المجلس
الأعلى
للثقافة

سحر الفضة..

سر الماء

دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق

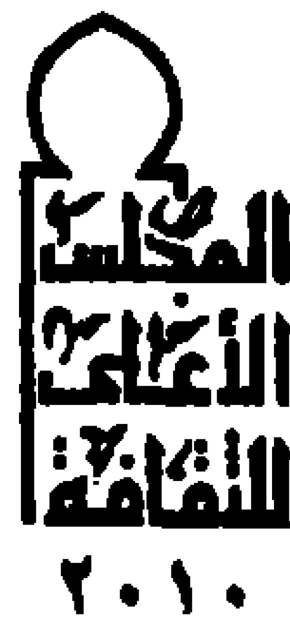
صادق شهيد الطائي

المجلس الأعلى للثقافة

سحر الفضة.. سر الماء

دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق

صادق شهيد الطائي



٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الطائي، صادق شهيد.

سحر الفضة .. سر الماء: دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق/ صادق شهيد الطائي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط ١ - ٢٠١٠

٢٥٦ ص، ٢٤ سم

١ - الصابئة .

٢ - الديانات القديمة

(أ) - العنوان ٢٤٩

رقم الإيداع ٢٢٣٤٤/٢٠١٠

الترقيم الدولي: I. S. B. N 978 - 977- 479 - 710 - 0

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel.: 27352396 **Fax:** 27358084

www. Scc.gov.eg

الفهرس

شكر وتقدير

إلى زوجتي ريم ..

وابنتي ليلك ..

اعترافًا بدعمهما الفعلي والمعنوي، ولكل ما بذلتاه من جهـد فـي قراءة وتصحيح المخطوطة، التي لولاهما ما كانت لترى النور.

مقدمــة

من هم الصابئة المندائيون ؟ هم أتباع دين موحد، ربما كان من أقدم الديانات على أرض الرافدين، عاشوا وما زالوا في جنوب ووسط العراق بين مد الاضطهاد وجزر التسامح على مر العصور.

(الصابئة) كلمة ذات أصل آرامي، وهي مشتقة من الجذر المندائي "صبا" الذي يعني (تعمد) أو ارتمس في الماء، و (المندائيون) كلمة مشتقة من الجذر المندائي "مندا" التي تعني بالمندائية (المعرفة)، وبذلك يكون معنى (الصابئة المندائيون) هو: (المتعمدون الذين يعرفون الدين الحق).

وللدين المندائي مجموعة من الأسس أو المبادئ التي يقوم عليها وهي:

١-التوحيد.

٢-التعميد.

٣-الصلاة.

٤-الصوم.

٥-الزكاة.

والمندائيون يؤمنون بالله وبوحدانيته، ويطلقون عليه في كتبهم المقدسة اسم (الحي العظيم) و(الحي الأزلي)، ويعتقدون أن آدم (ع) هو أول أنبيائهم، وهو المعلم الأول الذي نزلت عليه تعاليم الدين الحق – الدين المندائي – ثم أرسل بعده عدد من الرسل لتعليم البشرية تعاليم الدين ؛ وهم شيت (ع) ويسمى بالمندائية "شيتل"، ثم سام بن نوح (ع)، وآخر أنبيائهم هو يحيى بن زكريا (ع) وهو الرسول والمعلم الكبير الذي جدد الدين المندائي.

وللصابئة المندائيين عدد من الكتب المقدسة، في مقدمتها كتـــاب "كنزاربـــا" (الكنز العظيم)، وهو صحف آدم التي أنزلت من الحي العظيم على آدم (ع)، وفيها تعاليم الدين الحق، ويقع الكتاب المقدس "كنزاربا" في جزأين: -

الجزء الأول: "كنزاربا" اليمين، ويحوي هذا الجزء على قسم مهم من الأدب الديني المندائي وتعاليمه، كما يحوي على قصص وميثولوجيا دينية تصور صـــراع قوى الخير وقوى الشر، قوى النور وقوى الظلام، ويقص علينا عملية الخلق، خلق الكون والسماوات والإنسان الأول آدم (ع)، ونزول النفس من مستقرها الـــسماوي عند الحي العظيم إلى جسد آدم الطيني. كما يحتوي هذا الجزء على الكثيـــر مـــن التعاليم والصلوات والأدعية الدينية.

الجزء الثاني: "كنزاربا" يسار، وهو الجزء الخاص برحلة عودة النفس إلى بارئها بعد الوفاة، وعمليتي التطهير والعقاب التي تجري عليها في هذه الرحلة.

أما الكتاب الثاني من الكتب المقدسة فهو "دراشة آد يهيا"، أي (تعاليم النبـــي يحيى بن زكريا (ع) ، ويحوي تعاليم وأقوال النبي المعلم "يهيا يهانا" كمـــا يـــسمى بالمندائية.

وكذلك فإن هنالك عدد كبير من الكتب المقدسة في الأدب الديني المنـــدائي، مثل الـــ "قلستا" وهو (كتاب ترانيم وأدعية الزواج) وكتاب الـــ"نياني" وهو كتاب (الأدعية والصلوات المندائي).

والمندائيون يتوجهون في صلواتهم وفي جميع طقوســـهم باتجـــاه الـــشمال، ويكون دليلهم في ذلك النجم القطبي لثباته، وذلك لاعتقادهم بأن "المـــة آد نهـــورا" (عالم النور) أو الجنة المندائية تقع في المكان المقدس الذي هو في الـــشمال، وأن الأنفس ترحل باتجاه الشمال، والخير يأتي من الشمال، على عكس الجنـــوب الـــذي تأتي منه كل الشرور، وهم يؤدون الصلاة ثلاث مرات في اليوم، ويؤتون الزكـــاة، ويصومون (٣٦) يومًا متفرقة على أيام السنة، إذ يمتنعون عن أكل اللحوم، إلا أن الصوم الكبير هو أن يكف الإنسان شرورة عن الآخرين بالقول والعمل.

وللزواج والإنجاب أهمية دينية كبيرة في الدين المندائي والعزوبة محرمة، ولا ترهب في الامتناع عن الزواج بالنسبة لرجل الدين المندائي. أما طقوس الزواج المندائي فهي من الطقوس المتميزة التي تؤكد على الإيجاب والقبول بين العروسين وعلى شهادة الأهل والأصدقاء وعلى إشهار و إعلان الزواج في جو طقسي احتفالي، تصاحبه طقوس التطهر والتعميد بالماء الجاري المقدس "يردنا" كما أن لعذرية العروس أهمية خاصة في شروط الزواج.

ويُشهدنا التاريخ على شخصيات مندائية مرموقة حازت مكانة عالية في مجالات العلم والأدب والفلسفة والرياضيات والطب، ومن هذه الشخصيات على سبيل المثال لا الحصر:

١. **إبراهيم بن سنان:** المهندس المشهور الذي عاش في العصر العباسي.

٢. **البتاني:** الرياضي والفيلسوف والفلكي العباسي.

٣. **أبو إسحق الصابي:** الشاعر والأديب والفيلسوف صاحب الرسائل المشهورة مع نقيب الطالبيين الشريف الرضي.

٤. **ثابت بن قرة:** الفيلسوف والرياضي والفيزياوي والمترجم المشهور في البلاط العباسي.

٥. **سنان بن ثابت:** شيخ الأطباء في بغداد العباسية في عصر المأمون.

لقد عاش المندائيون لمئآت السنين في قرى وقصبات جنوب العراق وإيران، على ضفاف الأنهار وأطراف الأهوار، وبقيت منطقة دلتا دجلة والفرات جنوب وادي الرافدين مناطق الطائفة التقليدية حتى منتصف القرن العشرين. فبعد الاحتلال الإنكليزي وتأسيس الحكم الوطني في العراق وفي فترة ما بين الحربين، حدثت هجرات كبيرة قام بها أبناء الطائفة من مناطقهم الأصلية إلى المدن الكبرى في العراق مثل بغداد والبصرة، وقد أحدثت هذه الهجرات تغيرات جوهرية في البناء الاجتماعي للطائفة تمثل في تغير نمط العيش من التقليدية إلى الحداثة، كما وتمثل في تغير نمط القيادة ومراكز القوة في المجتمع المندائي.

وعند مطلع عقد الثمانينات من القرن العشرين حدث تحول واضح في بنى الطائفة الاجتماعية والسياسية والثقافية، تمثل في حركة جادة ودؤوبة لبلورة الهوية الثقافية الدينية والعصرية، وقد تمثلت جهود الساعين من أبناء الطائفة في هذا المجال في تشكيل النظم الجديدة المتمثلة في ثلاثة مجالس تقود الطائفة وتمثلها في التعاطي مع الآخر، وهذه المجالس هي:

١. **مجلس العموم:** وهو برلمان الطائفة الذي يتم فيه تمثيل الأفراد (لعشائرهم /عوائلهم) عن طريق الانتخاب الحر.

٢. **المجلس الروحاني:** وهو مجلس يضم كل رجال الدين المندائيين، واجباته رعاية الشؤون الدينية لأبناء الطائفة.

٣. **مجلس شؤون الطائفة:** وهو المجلس الذي يدير كل الشؤون الحياتية للطائفة في المجالات الاجتماعية والثقافية والترفيهية والتعليمية عبر عدد من اللجان التي يشرف عليها.

إن التغير الذي حدث في مجتمع الطائفة المندائية طال كل أنساق البناء الاجتماعي. ففي النسق الاقتصادي، كان أبناء الطائفة في مناطقهم الأصلية يمارسون حرفًا تقليدية اتقنوها وبرعوا فيها مثل الحدادة والنجارة والصياغة بالإضافة إلى صناعة وإصلاح الزوارق، وقد أبدع المندائيون في فن الصياغة وعلى الأخص أعمال المينا السوداء المنقوشة على الفضة. بينما نجد أبناء الطائفة بعد هجرتهم إلى المدن الكبرى ودخولهم المدارس الحديثة والجامعات قد ولجوا إلى كل مجالات المجتمع، فنجد اليوم منهم المهندس والطبيب والضابط والأستاذ الجامعي. . الخ.

إن ثقافة وبناء المجتمع المندائي هي جزء وثقافة فرعية من المجتمع العراقي، وقد عانى أبناء الطائفة ما عاناه الشعب العراقي من ويلات وحروب وأزمات، وربما كان أثر ذلك على أبناء الطائفة المندائية أكثر وضوحًا بحكم كونهم أقلية دينية صغيرة، مما دفع أعدادًا من نخبة أبناء الطائفة إلى الهجرة خارج العراق

بحثا عن الأمان والرزق الحلال وهامش الحرية، إلا أن صِلاتهم بوطنهم الأصلي لم تنقطع، كما وأن سعيهم للحفاظ على هويتهم الدينية والثقافية والاجتماعية بقي حاضرًا رغم كل شئ.

إن لدراسة ثقافة مجتمع طائفة الصابئة المندائيين، أهمية خاصة لما تمثله هذه الطائفة وهذا الدين من دور مهم في فهم نشوء وتطور وتداخل الأديان والحضارات والثقافات على أرض الرافدين، فأبناء هذه الطائفة هم بحق ورثة هذه الحضارات العريقة.

صادق الطائي

بغداد ـ ٢٠٠٥

الفصل الأول

مجالات البحث والواقع الأيكولوجي والبشري

المبحث الأول: المجال المكاني والزماني

١. المجال المكاني

٢. المجال الزماني

المبحث الثاني: المواقع والأيكولوجيا

١. الأهوار

٢. المدن العراقية الكبرى (بغداد، البصرة)

٣. دول العالم المختلفة

المبحث الثالث: الواقع السكاني والملامح البشرية

المبحث الأول

المجال المكاني والزماني

لا بد لنا في بداية هذا الفصل من الإشارة إلى الوسائل المستخدمة في هذا البحث بالإضافة إلى مجالات البحث.

وسائل البحث: لقد استخدمت في هذا البحث مجموعة من وسائل جمع المعلومات يمكن إيجازها بما يلي:

١. **الملاحظة المباشرة:** وقد اعتمدتها في ملاحظة الطقوس الدينية والاحتفالات والمناسبات الاجتماعية (مثل مراسيم الأعياد والأعراس ومجالس العزاء. . . الخ)، وذلك بقصد التعرف عن كثب على ماهية السلوك الاجتماعي لأفراد الطائفة.

٢. **المقابلات:** وقد اعتمدت صيغة المقابلات غير الرسمية مع عدد كبير من أفراد الطائفة (مثل رجال الدين أو القائمين على لجان شؤون الطائفة. . . الخ)، وقد استطعت من خلال ذلك التزود بالكثير من المعلومات التي كانت تعوزني، فثمة زوايا من السلوك المخفي الذي لا يمكن التعرف عليه من خلال الملاحظة المباشرة، ومثال ذلك واقع المرأة المندائية اليوم، إذ قمت بمقابلة عدد من النساء الصابئيات (المتعلمات خصوصا) وسألتهن عن الكثير مما يخص هذا الأمر.

٣. **المخبرون:** لقد اعتمدت على عدد منهم لتزويدي بالمعلومات المطلوبة، وقد اخترت لهذا الأمر عددا من الأصدقاء من أبناء الطائفة الذين تربطني بهم علاقات مودة واحترام، ويمتازون عن سواهم بأنهم متفقون دينيا "يلوفا"، فاستفدت بالكثير من معلوماتهم فيما استعصى عليّ فهمه من الملاحظة المباشرة أو المقابلات أو قراءة الكتب الدينية.

٤. **دراسة الكتب الدينية والأدبيات المندائية:** لقد قمت بـالاطلاع الواسـع والمعمق على الكتب الدينية المندائية، التي – لحسن الحظ – تمت ترجمة معظمهـا إلى اللغة العربية، كما واطلعت على أكثر الدراسات والبحوث التـي كتبـت عـن الطائفة من قبل أبناء الطائفة أو من خارجها. كما وكنت دائم الاطلاع على دوريات ومطبوعات الطائفة ومواقع شـبكة المعلومات (الانترنـت) الخاصـة بالطائفـة للوقوف على أحدث التطورات في الشأن المندائي.

أما مجالات البحث فهي:

١-المجال البشري:

إن الثقل البشري للوجود المندائي يتركز في إيران والعـراق، ورغـم أن كثافة وجود الطائفة في إيران أكبر منها في العراق، إلا أن العراق يعـد المـوطن الأساس للطائفة.

ففي إيران يوجد أكثر من ثلاثين ألف نسمة من المنـدائيين حـسب بعـض الباحثين[١]، رغم عدم وجود إحصاء دقيق لعدد نفوس الطائفة. ويجب أن نوضح أن هذا التواجد الكثيف هو في مدن الأحواز والمحمرة و عبادان والبسيتين والجزيـرة والخفاجية والفلاحية [٢]، إلا أنهم بقوا منغلقين ولم يشتركوا في البرلمان الإيرانـي كحال بقية الأقليات الدينية الإيرانية مثل اليهود والزرادشتيين والأرمن.

بينما يأتي في المرتبة الثانية من حيث الكثافة السكانية، وجود الطائفـة فـي العراق، إذ كان تواجدهم محصورًا في الجنوب في مناطق الأهوار والأنهـار ذات الوفرة المائية الجارية، مثل الناصرية والعمارة وسوق الشيوخ وقلعة صالح. ولكن

---

(١) صباح الموسوي، صابئة الأحواز (المندائيون) بين اضطهادين، مقال منشور في موقع اتحاد الجمعيـات المندائية في المهجر www. mandaeanumion. org، بتاريخ ٢٠٠٥/٢/٨.

(٢) سليم برنجي، الصابئة المندائيون، ترجمه عن الفارسية جابر أحمد، دار كنـوز أدبيـة، بيـروت، ط ١ ١٩٩٧، ص٢٩، وكذلك المقال السابق المشار إليه.

بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام ١٩٢١، ومع شيوع التسامح وتدوين حقوق الأقليات في الدستور العراقي، أخذ أبناء الطائفة ينتقلون إلى المدن الكبرى مثل بغداد والبصرة للدراسة والعمل، ثم مالبثت أن حدثت هجرات كبيرة إلى المدن الكبرى لما فيها من عناصر جذب لأفراد يجيدون المهن اليدوية والحرفية، ولأبنائهم المتعلمين في المدارس الحديثة لإمكانية حصولهم على وظائف حكومية. إن جو المدن الكبرى بما فيه من هامش تسامح وإمكانية حياة أفضل لأبناء الطائفة غيّر من توزيعهم الديموغرافي.

وفي منتصف القرن العشرين تقريبا، ومع انتقال الشيخ دخيل الشيخ عيدان إلى بغداد- وقد كان بدرجة "كنزبرة" وكان رأس الطائفة- [1]، أصبحت الكثافة السكانية للطائفة تتمثل في بغداد، بالإضافة إلى تجمعات صغيرة في المدن الأخرى.

وبذلك يكون المجال المكاني الرئيسي لبحثنا هو مدينة بغداد، لأن فيها التجمع الأكبر لأبناء الطائفة في العراق، وفيها رئاسة الطائفة الروحية في "المندي" (المعبد) الرئيسي لها في بغداد على ضفة نهر دجلة في منطقة القادسية. كما أن فيها المجالس التي تدير شؤون الطائفة، مثل مجلس العموم للعوائل المندائية ومجلس الشؤون والمجلس الروحاني، وتصدر فيها أهم المطبوعات المندائية، وقد تعاملت مع وجود الطائفة في مدن العراق الأخرى بمشاهدة مجتمعاتها وزيارة معابدها المندائية في مدن الجنوب، وكذلك من خلال اللقاءات مع أعضاء في مجالس شؤون الطائفة الفرعية في المحافظات عند قدومهم إلى مقر رئاسة الطائفة في بغداد.

كما يجب أن أشير إلى اطلاعي على بعض شؤون جاليات الطائفة في بلدان العالم المختلفة من خلال مواقعهم على الإنترنت[2]، إذ تُنشر فيها متابعات شؤون

---

(١) رشيد الخيون، في مقدمته لكتاب مندائي أو الصابئة الأقدمين، تقديم وتحقيق د.رشيد الخيون، دار الحكمة، لندن، ط١، ٢٠٠٣ لعبد الحميد عبادة، ص٢٨، حيث هاجر الشيخ دخيل إلى بغداد في عام ١٩٥٧.

(٢) هناك أكثر من ست مواقع رئيسية للطائفة ربما من أهمها الموقع الرسمي للطائفة ويديره مركز البحوث والدراسات في بغداد، أما في الخارج فموقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجريعد من أهم المواقع.

الأفراد في الدول المختلفة كما وتُنشر المقالات والدراسات والمتابعات والتغطية للأنشطة والجمعيات المندائية التي تقام في المهجر. ورغم أن دراستي مخصصة بالأساس لدراسة الطائفة في العراق، إلا أن ارتباطها مع أبنائها في المهجر والتأثير المتبادل بين أبناء الطائفة في العراق وفي المهجر، يدفعنا إلى دراستهم هناك ولو بعجالة، إذ أن التغيير الاجتماعي وتحديات الحفاظ على الهوية الدينية في المهجر أكبر منها في الوطن، كما سنرى في الفصول القادمة.

٢. المجال الزماني:

إن اهتمامي بالطائفة المندائية في العراق قديم، وربما يعود ذلك إلى بعض الأصدقاء من أبناء الطائفة ومحاولتي للتعرف عليهم بشكل افضل. ولكن الاهتمام البحثي الحقيقي يعود إلى عام (٢٠٠١)، عندما اخترت موضوع (الصائبة المندائية؛ دراسة انثروبولوجية) لبحث التخرج كجزء من متطلبات نيل درجة البكالوريوس في قسم الاجتماع في كلية الآداب – جامعة بغداد، وكان المشرف على البحث الاستاذ الدكتور خالد فرج الجابري. وقد التقيت في فترة إعداد البحث، بشيوخ ورئيس الطائفة، وشاهدت الطقوس ودرست الكتب الدينية لهم، وكان الكثير من أبناء الطائفة الذين قدموا لي العون يقولون، أن هذا الموضوع أكبر من بحث تخرج وربما تستطيع العمل عليه في رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير مثلاً، وكان هذا رأي استاذي المشرف الفاضل أيضًا.

من ذلك يمكنني القول إن الملاحظة بالمشاركة والاطلاع على الأدب المندائي ومحاولة تطبيق مناهج البحث استمرت معي لفترة تزيد على السنتين، إلا ان الفترة الرسمية لإعداد هذه البحث كانت تزيد على (سنة) بعد إكمال الفصول الدراسية النظرية، إذ تم تسجيل الموضوع لنيل درجة الماجستير في شهر تشرين الأول من عام (٢٠٠٣)، وأن مجال البحث استمر إلى نيسان من عام (٢٠٠٥).

المبحث الثاني

المواقع والأيكولوجيا

إذا أردنا فهم واقع حياة طائفة الصابئة المندائيين والتغيرات التي طرأت عليها، فلابد لنا أن نبحث مواقع الطائفة قديمًا وحديثًا. ولابد لنا من دراسة العلاقة بين الانساق الاجتماعية والثقافية لحياتهم، وعلاقة ذلك بالبيئة التي عاشوا فيها لآلاف السنين، وهي بيئة مدن ضفاف الأهوار، انتقلوا بعدها إلى مدن العراق الكبرى، ثم انتقل قسم منهم إلى المهاجر.

إن العلاقة بين البناء الاجتماعي والبيئة المحيطة بالمجتمع هي ما يطلق عليه الأيكولوجيا البشرية (Human Ecology). و كلمة أيكولوجيا مشتقة من الكلمة اللاتينية (Okologie) التي تعني البيت بما فيه أو الملجأ، ويمكن أن نرى أن الكلمة لا تدل فقط على السكن في البيت أو الملجأ، بل تتعدى ذلك إلى الأشخاص المقيمين فيه ونشاطاتهم اليومية التي يقومون بها من أجل العيش(١).

ويمكن أن نجد أن أولى الإشارات إلى مضمون مصطلح الأيكولوجيا موجودة في كتابات داروين(٢). وفي نهاية القرن التاسع عشر -تحديدًا في عام ١٨٦٩- استعمل عالم الأحياء الألماني أرنست هيكل (ARNST HAECKEL) هذا المصطلح للإشارة إلى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي توجد معًا في بيئة طبيعية(٣).

ويعتبر بعض الباحثين أن الأيكولوجيا البشرية هي في حقيقة الأمر إحياء للحتمية البيولوجية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر في الداروينية

---

(١) kuper, Adam & Kuper Jassica.: Editars,The Social Science Encyclopedia, Routledge & Kegan Paul, London, Boston and Henley, first publish, 1985, P. P. 218-219.

(٢) Lib. P219.

(٣) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، الجزء الثاني الأنساق، مصدر سابق، ص١١.

الاجتماعية. ومع ذلك يجب التمييز بين موقف الداروينية الاجتماعية والمدرسة الأيكولوجية، فقد حاولت الثانية ربط الأيكولوجيا بالاتجاهات البيولوجية والجغرافيّة، وذلك من خلال الكشف عن الارتباط بين الأساس البيولوجي للظواهر الاجتماعية والبيئة الجغرافية. ومن ذلك نجد أن مدرسة الأيكولوجيا البشرية طورت مفاهيم أساسية أهمها: الموطن والتدرّج والتكافل (أو المعيشة معًا) والمنافسة والغزو والتتابع. ولقد ظهرت فكرة تطبيق الاتجاه الأيكولوجي ومفاهيمه على العلاقات الإنسانية لأول مرة في أوائل القرن العشرين، وبخاصة في مؤلف تشارلز غالبن (Galpin) المعنون (التشريح الاجتماعي لمجتمع ريفي (Social Anatomy of an Agrarian Community). عام ١٩١٥[1]، وبالرغم من أن غالبن لم يستخدم مصطلح الأيكولوجيا، إلا أنه جمع بيانات عن أسر تعيش في مقاطعة ريفية في ولاية ويسكنسن (Wisconsin)، ويعد هذا البحث رائدًا في استخدام الخرائط لأماكن حياة الناس وأماكن التسوق والبنوك ...إلخ، الأمر الذي أصبح شائعًا بعد ذلك في البحوث الأيكولوجية.

وقد تحولت جامعة شيكاغو في الربع الثاني من القرن العشرين إلى مركز لما اطلق عليه المدرسة الأيكولوجية في علم الاجتماع وذلك على يد بارك وبيرجس. فقد استخدم هذان العالمان هذا المصطلح وطبقاه في كتابهما المشترك (مقدمة في علم الاجتماع، ١٩٢١) (An Introduction to the sience of Sociology)

وقد تطورت دراسات الأيكولوجيا بعد ذلك، ورغم أنها ولدت في حضن علم الاجتماع الحضري في جامعة شيكاغو، إلا أنها انتقلت إلى الدراسات الأنثروبولوجية عن طريق استخدام الباحثين لمفهوم الأيكولوجيا في دراسات علم الاجتماع الريفي. ويعد أهم من استخدم النسق الأيكولوجي العالم الأمريكي (ريدفليد) الذي كان طالبًا في جامعة شيكاغو وتأثر بأساتذته، ثم طبق هذا المنهج على دراساته الميدانية.

---

(١) نيقولا تيماشيف، ترجمة محمود عودة وآخرون، نظرية علم الاجتماع، طبيعتها وتطورها، دار المعارف، الطبعة الثامنه، القاهرة ١٩٨٣، ص٣١٤ وما بعدها

إلا أن (ريدفيلد) تعامل مع النسق الأيكولوجي بطريقة مختلفة، إذ لم يعتبره جزءًا من البناء الاجتماعي، وإنما اعتبره نسقا مستقلا خارج البناء الاجتماعي، وثمة تفاعل بينه وبين بقية أنساق البناء الاجتماعي، وهذه العلاقة تتضح أكثر كلما كان المجتمع بدائيًا أو غير متطور تكنولوجيا، وتقل وضوحًا كلما تطور المجتمع تكنولوجيًا[1].

كما و تعتبر دراسة العالم الفرنسي مارسيل موس(Muss) (التغيرات الفصلية عند الاسكيمو) أول وأهم الدراسات العميقة التي تعرضت لمشكلة العلاقة بين العوامل الأيكولوجية والاجتماعية في حياة الشعوب التقليدية، وخاصة في الحياة القبلية، ففي هذه الدراسة -التي كان لها تأثير قوي ومباشر في توجيه عدد كبير من الدراسات التي قام بها فيما بعد علماء الاجتماع المقارن وعلماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية - حاول موس أن يحلل عناصر التنظيم الاجتماعي عند الإسكيمو في ضوء الظروف والعوامل الطبيعية والبيئية من ناحية، والحياة الاقتصادية السائدة هناك من ناحية أخرى. ولاشك في أن إيفانز- بريجارد كان متأثرًا إلى حد كبير بمقال موس حينما تعرض لدراسة النسق الأيكولوجي عند النوير. وبصورة عامة، فإننا يمكن أن نعتبر أن الأيكولوجيا هي ذلك التفاعل القائم بين الكائن وبيئته ونتائج ذلك التفاعل.

أما في حالة دراسة البيئة التي يعيش فيها المندائيون في العراق وعلاقتهم بهذه البيئة فإننا تحتاج إلى توضيح، فنحن نجد أن ثمة علاقة قوية واضحة بل تكاد تكون ملزمة بين البيئة وبين أفراد الطائفة في قربهم من مجاري المياه، (إذ أن أفراد الطائفة كانوا وعلى مدى قرون يعيشون في مناطق وفيرة المياه، هي جنوب دلتا دجلة والفرات حيث مجاري المياه الكثيرة والوفيرة لأن توفر المياه شرط واجب للكثير من طقوسهم الدينية)، ومع ذلك فان بعض العوامل الأيكولوجية تقف دون ان تؤثرعلى البناء الاجتماعي للطائفة. فمثلاً نجد أن المحيط السكاني الذي يحيط بأبناء الطائفة في الجنوب مبنى على أسس قبلية صارمة وعنيفة، ونجد ان

(١) د. علاء الدين جاسم البياتي، علم الاجتماع بين النظرية والتطبيق، دار التربية بغداد، ١٩٧٥ ص٧٨

المسلمين- مجاوري أبناء الطائفة- يعملون في زراعة المحاصيل الاستراتيجية، (الحبوب؛ مثل الحنطة والشعير والرز)، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم يمارسون الصيد (صيد الطيور وصيد السمك)، وكذلك تربية الحيوانات (مثل الجاموس و الأبقار والأغنام)، ومع هذا فمن النادر مثلاً أن نجد صابئيًا مندائيًا يشتغل في هذه المهن. ورغم أن الظروف الأيكولوجية كلها تدفع بهذا الاتجاه، إلا أن هناك عناصر أخرى في المعادلة ؛ فالزراعة مثلا غير ملائمة لهم، وعندما سألت كبار السن والشيوخ منهم عن سبب عزوف آبائهم عن الزراعة قالوا؛ "إن الزراعة في جنوب العراق تعتمد على السقي سيحًا، وأن أغلب النزاعات العشائرية كانت تنشب بسبب حصص السقي، وبما أننا طائفة صغيرة ومسالمة وضعيفة فإننا لا نستطيع أن نمارس الزراعة، رغم أن بعض الأفراد كانوا يزرعون بشكل محدود مساحات صغيرة أقرب ما تكون إلى حدائق الخضروات لاستهلاكهم. وكذلك الأمر بالنسبة لتربية الحيوانات فإنهم لا يملكون القوة اللازمة للدفاع عن (حلالهم) في حالات الغارات القبلية عليهم، وهي كثيرة في تلك الأوقات. وعندما سألت شيخًا -كان أحد مصادر معلوماتي في هذا الموضوع-: الم يربي المندائيون حيوانات أبدًا ؟ أجابني: بلى، لقد كانوا يربون الدواجن لاستهلاكهم، وعندما كانوا يربون أبقارًا مثلاً كانوا يسعون إلى تأمينها لدى أحد المسلمين من مجاوريهم، إذ يتعهد بالعناية بها ورعيها وحمايتها، وعندما تلد البقرة فإن له نصيب من المواليد، أو أن العملية تتم بالاتفاق على أجر محدد، وعندما سألت محدثي ما إذا كان أفراد الطائفة يتعرضون لعمليات نصب أو (أكل) لحقوقهم، أجابني ضاحكًا: طبعًا وكان آباؤنا يعلمون بذلك لكنهم كانوا في الغالب مستضعفون. وروى لي حكاية حدثت قبل ستين عامًا مع والده، اذ أمن بقرة حاملاً لدى جاره المسلم وهو ينتظر ولادتها للاستفادة من العجل ومن حليبها، ومر الوقت وولدت البقرة، وقام جاره ببيع العجل إلى القصاب وأخذ جلده وحشاه قشًا ووضعه قرب الأم لتبقى البقرة تدر الحليب، ووالد محدثي ينتظر ويسأل عن الأخبار ألا أن الجار أبلغه في النهاية مع أغلظ الأيمان أن العجل قد مات، كان يروي لي هذه الحكاية وهو يضحك!!

لقد كان أفراد الطائفة يعانون من تمييز اجتماعي ضدهم، إلا أنهم حصلوا لأنفسهم على مكانة مهمة في ذلك المجتمع لكونهم حرفيين ممتازين، فكانوا يصنعون كل ما يحتاج إليه المجتمع البسيط من أدوات عبر إجادتهم لأعمال الحدادة والنجارة وصناعة القوارب، وبذلك لم يكن من السهولة الاستغناء عنهم لحاجة المجتمع البسيط لمهاراتهم ومنتجاتهم.

وبذلك يمكن أن نرى أن التصنيف الذي وضعه د. شاكر مصطفى سليم في التراتب الاجتماعي لقرية الجبايش ونستعمله كمقياس، نجد أن الطبقات الاجتماعية التي وضعها في النسق الاقتصادي جعلت الحرفيين يكونون الطبقة الوسطى بالضبط بين طبقتين من الأثرياء فوقها وطبقتين من الفقراء تحتها[1]، وهذا يعطي مؤشرًا على أن الصابئة، وهم جزء من هذه الطبقة، هم طبقة وسطى اقتصاديًا، مرفوضة و مضطهدة اجتماعيًا، إلا أنها تتمتع بنوع من الاستقلال أو هامش من التسامح تمارس فيه طقوسها، وهذا ما كان يهم أفرادها. وسنرى لاحقا تفاصيل التفاعل الأيكولوجي في المناطق القديمة والجديدة، أي بعد انتقال العديد من أفراد الطائفة إلى المدن الكبرى أو إلى المهاجر.

١. الأهوار:

تعتبر الأهوار إحدى أقدم وأبرز وأوضح البيئات الأيكولوجية التي ارتبط وجود الصابئة المندائيين بها. فما هي الأهوار ؟ واين تقع ؟ وما هو ارتباط المندائيين بها ؟

إن الأهوار هي مناطق منخفضة من أراضي السهل الرسوبي، يغمرها الماء بعمق متفاوت بين العميق والضحل، فمنها مايبقى مغمورًا بالماء طوال السنة ومنها ما يجف كله أو بعضه في فصل الصيف. ويعتقد الجغرافيون والجيولوجيون أن

---

(١) د. شاكر مصطفى سليم، الجبايش، دراسة أنثروبولوجية لقرية في أهوار العراق مطبعة الرابطة بغداد، ١٩٥٧ ص٤١١ وما بعدها

الأهوار توجد عادة في المناطق الدلتاوية عند مصبات الأنهار في البحار[١]. وتفسر أسباب وجودها، أن مثل هذه المناطق تكون حديثة التكوين ولم يكتمل تشكّلها وملؤها بالرواسب التي تنقلها الأنهار سنويا، وكذلك يعزي البعض الأسباب إلى تأثيرات المد والجزر البحري القريب منها.

ويمكن أن تحدد الأهوار في جنوب العراق بثلاثة خطوط رئيسية:

١. مستنقعات شمال السهل الرسوبي العراقي، وتشمل بحيرة شاري إلى الشرق من دجلة بين العظيم وديالى، ثم هور عكركوف (الذي جف منذ زمن) بين النهرين إلى الغرب من بغداد، وبحيرة الحبانية إلى الغرب من الفرات.

٢. أما الخط الثاني فيضم هور الشويحة إلى الشرق من دجلة، وهور دلمج وهور عفك بين دجلة والفرات، ثم أهوار الفرات الأوسط بين الحلة والحافة الصحراوية.

٣. أما الخط الثالث فيشمل هور الحمّار وهور الحويزة[٢].

وقد كانت هذه الأهوار تغطي مساحة تقدر بـ (٢٠٠٠٠) كم^{٢}.

إن ارتباط المندائيين بالأهوار ارتباط تاريخي ووجودهم مقترن به، ولم يذكر أحد الأهوار إلا وجاء ذكر الصابئة المندائيين متزامناً مع ذلك منذ أقدم العصور. ففي كتاب "حران كوثية"

أو حران الداخلية، الذي سبقت الإشارة إليه، تروى قصة رحلة تاريخية أسطورية لأسلاف المندائيين من منطقة أورشليم وشرق الأردن إلى جبال ميديا ثم إلى مناطق جنوب العراق. وقد ورد ذكر هذه المناطق إذ جاء في الكتاب **(أرسل ادوناي زوجته، شوربيش الروها، أرسلها إلى مدينة الطيب التي تعني مدينة الرسول أو الشاهد أشكندا وتدعى الطيب لأن كل من كان يعمل في مملكة بغداد**

---

(١) فلانين، الحاج ريكان أو عرب الأهوار، ترجمة د. جميل سعيد، د. إبراهيم شريف بغداد، ١٩٦٦ ص١٩

(٢) د. محمد رشيد الفيل، الصحين دراسة أنثروبولوجيه، بغداد ١٩٦٦ ص٧

لابد أن يرسل إلى مدينة الطيب لغرض الدراسة وتلقي المعرفة والعلم، لأن هذه المدينة تحتضن مجموعة كبيرة من الناصورائيين بدرجة ريشمي)[1].

إن إشارات تواجد المندائيين في منطقة الأهوار قديم، فقد أشار إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست، إذ قال: المغتسلة هؤلاء كثيرون بنواحي البطائح (الأهوار)، وهم صابة البطائح، يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلون[2].

والأهوار، بمدنها التي تنتشرعلى حوافها وبقراها الواقعة في عمقها، وبما تحويه من غابات القصب والبردي وما تحويه من وفرة غذائية حيوانية ونباتية، بكل ذلك كانت تمثل بيئة مثالية لمن يريد أن يهرب أو يختفي من الاضطهاد. وهذا هو حال المندائيين لمئات السنين، إذ كانوا يعيشون في بيئة وفيرة المياه وهذا شرط ديني أساسي لحياتهم، وهذه – كما اشرنا بيئة مثالية-تمنع مضطهديهم ممن يختلفون معهم من الوصول إليهم، وهذه نقطة مهمة، اذ مرت الطوائف الدينية في العراق على مر التاريخ بنزاعات واضطهاد للمخالفين، وأعتقد أن بقاء طائفة المندائيين إلى اليوم كان أحد أهم أسبابه هو انزوائهم واختفائهم في الأهوار.

إن حياة المندائيين في الأهوار في العصر الحديث تتسم بصفات يجب الإشارة إليها. فنجد أنهم أولا يقيمون في مدن الأهوار من أقضية أو نواح أو حتى قرى، لكنهم لا يقيمون إقامة دائمة في عمق الهور كما هو الحال مع بعض العشائر العربية، وإنما يقيمون في عمق الهور لفترات مؤقتة ينفذون فيها الأعمال التي يريدون القيام بها مثل النجارة أو الحدادة أو الصياغة، بحكم كونهم حرفيين على الأغلب.

والنقطة الثانية أنهم لم يعيشوا في أحياء مغلقة (غيتو) على الرغم من وجود بعض المحلات الخاصة بهم مثل محلة (المركب) وهي محلة الصابئة في سوق الشيوخ. وتقع (المركب) في سوق الشيوخ على الضفة الشرقية من نهر الفرات،

(١) ديوان حران كويثة (حران الداخلية)، إعداد لؤي زهرون حبيب ترجمة أمين فعيل حطاب، بغداد ٢٠٠٣، ص١٢.

(٢) ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨ ص٤٧٧.

على شريط من الأرض يزيد على الكيلو متر بعرض لا يزيد عن أربعمائة متر، وتمتد من جدول (كرمة الصبة) من جهة الشمال إلى سوق الشيوخ، اذ يوجد هناك مرسى للزوارق يسمى العبرة تستخدم للوصول إلى المدينة (الولاية) حيث توجد المحلات والأسواق والدوائر الحكومية.

وقد حدثني رجل مندائي عاش في الأربعينات في ناحية (الطويل) التي تسمى الآن ناحية (السلام)، أن الأحياء كانت مختلطة، لكن يمكنك أن تميز منازل الصابئة، فقد كانت مرتبة و معتنى بها؛ فالأرض مبلطة بالقار وهو مادة متوفرة لديهم يستخدمونها في طلاء الزوارق، كما أن البيوت مبنية من طين بدل القصب إلا أنها كانت في بعض الأحيان مبنية من القصب أيضا ولكنها كانت مفروشة ومبلطة الأرضية ومعتنى بنظافتها. ويعزي ذلك لأسباب اقتصادية. إذ أن الصابئي الحرفي يحصل على دخل جيد مقارنة بالمزارع أو الراعي. وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقاتهم، وهي النقطة التي ذكرناها في عدم وجود (غيتو). لقد حدثني مخبري: "أن والدي كان صنع زوارق (إيلام)، وعندما كان يوصي أحدهم والدي على زورق كان الأمر يستغرق وقتًا لتوفير الخشب من البصرة، ثم بدء العمل، إذ يستغرق ذلك في بعض الأحيان شهرًا كاملا، وكانت هذه الفترة لصاحب الزورق فترة زيارات مستمرة لنا، يصاحب ذلك تودد كبير ليعتني والدي بطلبه، وكانت كل زيارة مصحوبة بعدد من الطيور أو السمك أو المنتجات مثل الزبد أو القيمر أو اللبن.

كذلك تجدر الإشارة إلى أن مناطق الأهوار في محافظتي ميسان (العمارة) وذي قار (الناصرية) هي مناطق عشائرية صرف، حتى في مراكز المدن، لذلك كانت مجموعات عوائل المندائيين تدخل ضمن حماية بعض العشائر القوية التي يعيشون بقربها وهو ما يطلق عليه في العرف العشائري (ذبابة جرش)، أي أنهم مساهمون في تكاليف أو رسوم أو ضرائب مالية تدفع للعشيرة مقابل توفير الحماية لهم وعدم مشاركتهم في القتال (لحرمة ذلك دينيًا لديهم، بالإضافة لكونهم أقلية ضعيفة ومسالمة)، وكانت هذه الطريقة توفر لهم الكثير من الطمأنينة وتُفرّغهم لأعمالهم وتعبّدهم.

ومن حديثي مع بعض المخبرين و خاصة كبار السن، أحسست أن هناك نوع من الاعتزاز أو الشعور الذي يقترب من التعالي لكونهم، أو آبائهم، صاغة أو نجارين أو حدادين، فهم أرقى من القروي البسيط المزارع أو الصياد أو الراعي، ويُعتقد ان ذلك يعود إلى ان الحرفي يتطلع دائمًا لتطوير نفسه، ويبحث عن العدة الجديدة أو الماكينة الأكثر تطورًا لتحسين عمله، وهو بذلك يكون أكثر احتكاكًا بالحضارة من الآخرين.

ونلاحظ أن أبناء مدن الأهوار من المندائيين كانوا دائمًا يسعون إلى ادخال أبنائهم في المدارس، لأنهم كانوا يشعرون بأهمية دخول أبنائهم لسلك الوظيفة الحكومية بعد تشكل دولة العراق الحديث. وكان ذلك منذ وقت مبكر، إذ نجد أن بعض أبناء الطائفة درسوا في معاهد المعلمين مثلاً وعادوا إلى مدارس مدنهم في الأهوار لتدريس الاطفال هناك، ومثل هذه الحالات نجدها منذ العشرينات. وقد فتح هذا الأمر آفاقًا لانتقال من يدرس إلى المدن العراقية الكبرى مثل بغداد والبصرة، لما يتوفر فيها من عناصر جذب، وما تمثله مدن الأهوار من عناصر طرد لبعض سكانها.

٢. المدن العراقية الكبرى (بغداد، البصرة)

لقد بدأت مع بدايات القرن العشرين هجرات المندائيين إلى المدن الكبرى، كما أشرنا في المبحث السابق. وكانت مدينة البصرة هي المحطة الأولى لهجراتهم، فحدثت تحولات وتغيرات مهمة في البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، إذ بدأ العمل بنظام الطابو، فيذكر حنا بطاطو في كتابه عن العراق، أن التغيّر الأهم من هذه الناحية هو استقرار وتوسع الملكية الخاصة وتمركزها الشديد، وكان لهذا علاقة بمصادرة عدد صغير من المشايخ والأغوات الأراضي الزراعية العشائرية الجماعية، وبالدور الأكبر للمال، وبظهور المضاربة بالعقارات، وبتزامن وضع الملكية في إطار أسس قانونية أكثر ثباتا، وبشكل خاص من خلال قوانين الأراضي التي صدرت في العامين ١٨٥٨

و١٩٣٢، مما أدى بدوره إلى زيادة تماسك سلطة الدولة ومركزيتها، كما وأدى بالإضافة إلى ذلك، إلى انتشار الاتصالات ونمو المدن وسريان الأفكار والتقنيات الأوربية[١].

كل ذلك جعل الشيخ العشائري القديم يتحول إلى ملاك أو اقطاعي، وفي كثير من الأحيان بيعت الأراضي إلى أشخاص غير متواجدين في القرى، وإنما يديرون هذه الأملاك من خلال (سراكيل)، وكانت النتيجة تغيّر ظروف الفلاحين ومن يعيش في القرى إلى الأسوأ – من الناحية الاقتصادية والاجتماعية معا– وتحويلهم إلى ما يشبه الأقنان، فتظافرت كل تلك الأسباب لتشكل عوامل الطرد والدفع والهجرة إلى المدن الكبرى.

وكانت البصرة – المدينة والميناء المفتوح على بحار العالم والبعثات التجارية والإرساليات التبشيرية – تمثل محطة مهمة بالنسبة للمندائيين، فتواجد عدد من العشائر أو العوائل المندائية في البصرة مثل، الكياليين والجيزانة والجحيلية والبنكانية[٢]، ولكون مدينة البصرة تقع على حافة منطقة الأهوار، و لكونها غنية بمياه الأنهار، كانت مدينة مناسبة جدًا لسكنى المندائيين.

أما الهجرة نحو العاصمة – بغداد، فقد بدأت بشكل أفراد للعمل أو التجارة أو الدراسة في المدارس الحكومية، ولكنها حتى الثلاثينيات والأربعينيات لم تكن تضم وجودًا كثيفًا لأبناء الطائفة. ففي الأربعينيات انتقل بعض رجال الدين مثل الشيخ عبد الله الشيخ سام، وهو والد الدكتور عبد الجبار عبد الله – الذي كان رئيسا لجامعة بغداد –، فسكن في محلة الكريمات في منزل مطل على نهر دجلة، وأخذ يمارس الطقوس الدينية في منزله. واستمر الحال إلى أن انتقل الشيخ دخيل الشيخ عيدان من محافظة ذي قار(الناصرية) إلى بغداد عام ١٩٥٩م وسكن في منطقة الدورة في محلة المهدي، فأرخ بهذه الإنتقالة لمرحلة جديدة مهمة أصبحت فيها

(١) حنا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٠، ص٢٩.

(٢) غضبان رومي، الصابئة، بغداد، مطبعة الأمة، ١٩٨٣، ص١٣٧

رئاسة الطائفة في بغداد، توضحت فيها الهجرات الكثيفة لأبناء الطائفة من مدن الجنوب (العمارة، الناصرية، واقضيتهما ونواحيهما) إلى بغداد، وأصبح هناك وجودا كثيفا للطائفة المندائية فيها، بل ونستطيع القول إن الطائفة انتقلت إلى بغداد، مع بقاء بعض العوائل في الجنوب.

ولم يكن ذلك الانتقال كاملاً وكليًا ونهائيًا في فترة واحدة بالنسبة للعوائل المهاجرة، فكثير من أفراد الطائفة كان متنقلاً بين بغداد ومدينته الأصلية في الجنوب، و ذلك تبعًا لظروف العمل أو الدراسة، ثم يكون بعد ذلك الاستقرار النهائي في بغداد. وهنا يمكن أن نؤشر مجموعة ملاحظات، منها ذلك الدخول الكثيف لأبناء الطائفة في الحياة العصرية للعراق المنتقل من المرحلة الملكية إلى المرحلة الجمهورية، إذ دخل أبناء الطائفة بكثافة في المدارس الحديثة والجامعات، ومن ثم في الوظائف الحكومية، ومنها أيضا دخولهم المتميز في الأحزاب السياسية التي كانت الساحة العراقية تعج بها في تلك المرحلة، ونخص بالذكر الأحزاب اليسارية الماركسية، نظرًا لطبيعة هذه الأحزاب المنفتحة على الأقليات العرقية والدينية والقومية، بالإضافة إلى أن أيديولوجيا هذه الأحزاب تتمثل بطروحات العدالة الاجتماعية والاشتراكية...الخ، وقد وصل بعض أفراد الطائفة المندائية إلى درجات قيادية مهمة مثل (مالك سيف)(١) الذي اصبح سكرتيرًا للحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٤٩، بعد إعدام (فهد) يوسف سلمان- الشخصية الكارزمية التي أسست الحزب الشيوعي العراقي في الثلاثينيات - وبقي في الحزب الشيوعي كوادر متميزة من أبناء الطائفة مثل المفكر والكاتب (عزيز سباهي)(٢).

ومن ثم تم بناء أول "مندي" (معبد) للطائفة في منطقة الدورة في نهاية عقد الستينيات في بغداد. ومع التغيرات وظهور فاعلية أبناء الطائفة في المجتمع، ومن خلال وزارة الأوقاف، حصلت الطائفة على قطعة أرض في منتصف السبعينيات

---

(١) حنا بطاطو، مصدر سابق، الجزء الثاني، ملاحق اللجان المركزية للحزب الشيوعي العراقي ص٢١٨-٢١٩.

(٢) لقاء مع الكاتب العراقي عزيز سباهي أجرى اللقاء موسى الخميسي ونشر في موقع اتحاد الجمعيات في المهجر في ٢٠٠٤/١١/٩ www. mandaienunion,org.

في منطقة القادسية – قطعة أرض مطلة على نهر دجلة– إلا أن الشحة المالية حالت دون بناء معبد الطائفة الجديد حتى بداية الثمانينات، حينما صادرت الدولة أرض المعبد القديم في الدورة – لوقوعه ضمن أرض محطة كهرباء الدورة – فبني المعبد الجديد في منطقة القادسية وما زال قائمًا حتى اليوم، وفيه رئاسة الطائفة والمجلس الروحاني الأعلى والمجالس الإدارية وهي مجلس العموم ومجلس شؤون الطائفة، ويضم المعبد قاعة مناسبة الحجم لإقامة المآتم، كما تم بناء حوض للتعميد، وكان هذا حدثًا تطويريًا مهمًا في الجانب الطقسي تم على يد الـ "ريش امة" – أعلى درجة دينية في سلك الكهنوت المندائي– الشيخ عبد الله الشيخ نجم الذي تسنّم رئاسة الطائفة في بداية عقد الثمانينات، كما أنه (أفتى) بجواز "الرشامة" (الوضوء) بماء الإسالة (الحنفية)، إذ اعتبر ذلك أمرًا تيسيريًا ومجاراة لطريقة العيش في المدن الكبرى مثل مدينة بغداد، حيث لا يستطيع الفرد المندائي الوصول إلى مياه الأنهار ثلاث مرات في اليوم للرشامة وأداء "البراخا" (الصلاة)(١)، وسنأتي على ذكر ذلك تفصيلاً في مبحث قادم.

وفي الفترة التي تمت فيها الدراسة كان أبناء الطائفة – أو الثقل السكاني الرئيسي منهم – يسكن في محافظة بغداد، بالإضافة إلى بعض التجمعات الصغيرة في المحافظات والمهاجر. وأود أن أسلط الضوء هنا على نقطة مهمة تخص تواجد أبناء الطائفة في بغداد، إذ أنهم في هجرتهم لم يحاولوا التجمع في أحياء أو محلات (غيتو) في بغداد كما كان الحال مع (غيتوات) أو محلات اليهود في بغداد في النصف الأول من القرن العشرين، وإنما ذابوا في المجتمع البغدادي مثل مئات الآلاف من المهاجرين القادمين من الريف العراقي، ومع هذا يمكننا أن نلحظ بعض التجمعات بالقرب من تواجد أو سكن بعض رجال الدين، فمثلاً هناك تجمع ملحوظ في جانب الكرخ في مناطق الدورة والسيدية والبياع وحي العامل وغيرها من المناطق القريبة من الدورة، حيث سكن الشيخ دخيل الشيخ عيدان في نهاية

---

(١) مقابلة للدكتور رشيد الخيون مع" الريش امة"الشيخ عبد الله الشيخ نجم، في كتاب مندائي، مصدر سابق.

الخمسينيات، وحيث أقيم أول مندي في بغداد بل وحتى أن "المندي " (المعبد) الموجود اليوم في منطقة القادسية يعد قريبًا من هذه المناطق.

إن تبلور وجود ثقل الطائفة في بغداد ودخول أفراد الطائفة الحياة العصرية جعلهم يؤسسون ناديًا ثقافيًا اجتماعيًا عائليًا خاصًا بهم، إذ حصلوا على قطعة أرض في متنزه الزوراء ليقيموا أول نادٍ مندائي علني هو (نادي التعارف)، الذي استمر في النشاط حتّى سقوط النظام وسيطرة بعض القوى عليه ومصادرته من الطائفة. وتسلك الطائفة اليوم كافة الطرق القانونية مع هذه الجهات في محاولة استرداده حسب ما أبلغني أحد أعضاء مجلس شؤون الطائفة.

كما وحصلت الطائفة على قطعة أرض في منطقة العطيفية ما تزال أرضًا خالية لعدم توفر الإمكانات المادية لبناء معبد ثان للطائفة عليها.

إن معبد الطائفة الذي بني في منطقة القادسية والذي يطل على نهر دجلة، لم يلبث أن فقد أحد أهم رموزه وهو موقعه على نهر جارٍ، إذ أن نهر الخر الذي يقع عليه المعبد تم تجفيفه بسبب إنشاء مشاريع مياه وثروة سمكية تخص بعض المسؤولين في زمن النظام السابق، مما دفع مجالس الطائفة إلى المطالبة بقطعة أرض على نهر دجلة (وهذه تقع بالتحديد تحت جسر الجادرية) لممارسة طقوس التعميد هناك، وقد أطلق عليها اسم (أرض التعميد)، اذ يكثر فيها التعميد لجماعات من أبناء الطائفة وخصوصًا في أيام الأعياد مثل عيد الخليقة "البروانايا". ونظرًا لأن المكان مفتوح كان أبناء الطائفة يتعرضون لمضايقات من الجهلة من الناس والفضوليين، ولكنهم عالجوا الأمر بأن رتبوا هذه الساحة وبنوا فيها هياكل بسيطة للاستراحة وتناول الوجبات الطقسية والنزول إلى مياه النهر للتعميد، وقد تم ذلك بعد أن حصلوا على عقد أيجار لهذه الأرض من الدولة.

ولعدم حصولي على إحصاء دقيق لأفراد الطائفة في بغداد والمحافظات، فقد لجأت إلى الأسئلة التقريبية، فسألت أحد رجال الدين من البصرة عن عدد أفراد الطائفة اليوم في البصرة والناصرية والعمارة، فأخبرني أن لا أحد يعرف بدقة الأرقام، وذلك نتيجةً للضغوط التي يتعرض لها أبناء الطائفة هذه الأيام، من

تهديدات إلى فقدان أمن إلى حالة كساد اقتصادي مما دفعهم للهجرة إلى بلدان الجوار أولاً، ثم إلى المهاجر مثل أوربا وكندا واستراليا.

وحينما طلبت من الشيخ أرقامًا تقريبية، قال: إنها حوالي ألف نسمة في البصرة وأقل من ذلك بكثير في الناصرية وفي العمارة، أما عندما سألت أحد أعضاء مجلس شؤون الطائفة عن الأعداد التقريبية لأبناء الطائفة في بغداد والمحافظات أجابني الجواب نفسه: ليس هناك من أعداد مضبوطة. وفي الحوار قال لي: من المفروض أن كل عائلة (عشيرة مندائية) تتوافر على تعداد لأفرادها، لكن هذا غير موجود فعليًا، فمثلاً أنا أعرف عدد أفراد عائلتي (آل زهرون) وهم من أكبر العوائل (العشائر) المندائية، إذ يقترب عددهم من (٣٥٠٠) نسمة. ثم سألته عن عدد تقريبي لأفراد الطائفة في بغداد، فأجاب: إنها بحدود الـ (٣٥) ألف نسمة وبحدود الـ (١٥) ألف في المحافظات الأخرى.

وأعتقد أن هذه الأرقام مبالغ بها، وهو أمر طبيعي لإعطاء ثقل للطائفة أمام الغرباء. فقد سمعت من بعض الأصدقاء من أبناء الطائفة أعدادًا تقريبية أقل من ذلك بكثير بل تكاد تصل إلى النصف، وكذلك حاولت الاتصال بوزارة التخطيط/مديرية الإحصاء للحصول على عدد أفراد الطائفة حسب آخر إحصاء تم في عام ١٩٩٧م، إلا أن ذلك كان شبه مستحيل، إذ أمتنع المسؤولون عن إعطاء أرقام أو تفاصيل، مع العلم أن الأرقام الموجودة غير دقيقة لأن عملية الإحصاء تمت قبل ثماني سنوات، ناهيك عن عدم دقة الإحصاء نفسه؛ لأن الكثير من العوائل أخفت حقيقة سفر أبنائها وذلك لعدة أسباب منها السفر بطرق غير رسمية وطلب اللجوء والهجرة، بالإضافة إلى مشكلة تتعلق بالبطاقة التموينية إذ يشطب منها الفرد المسافر خارج العراق. ولم يتم إحصاء أفراد قوات الجيش وقوات الأمن بشكل دقيق في ذلك الإحصاء إذا كانوا خارج منازلهم.

٣. دول العالم (المهاجر):

لقد مرت على أبناء طائفة الصابئة المندائيين الكثير من الأزمات والكثير من فترات الاضطهاد والقسوة، وقد كانوا يجابهون ذلك بالإنغلاق على أنفسهم والإكثار من التعبد والاستغفار والصلاة والدعاء لتخليصهم من المحن التي يمرون بها [1]، ومع ذلك لم يكونوا متوانين عن تقديم الخدمات التي تعد مهمة للمجتمع الذي يعيشون فيه. لكن في القرن العشرين - وخصوصًا النصف الثاني منه ونتيجة للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية التي حدثت - برزت ظاهرة جديدة لدى الطائفة وهي هجرة أبنائها إلى بلدان بعيدة مثل أمريكا وكندا وأستراليا.

لقد كانت هذه الظاهرة محدودة في بداية الأمر، ولكنها أصبحت واضحة وملموسة في العقدين الآخرين من القرن العشرين بسبب الحروب والعقوبات الاقتصادية والضائقة التي مر بها الشعب العراقي ككل، لكنها كانت ذات تأثير مضاعف على الأقليات العرقية والأثنية والدينية، مما دفع بأبناء هذه الأقليات إلى هجرات كثيفة. وبالنظر لحجم الأقليات الديمغرافي الصغير فقد بدت هذه الظاهرة بشكل متضخم في الطائفة قيد الدرس. وعندما هاجرت عوائل مندائية كثيرة في عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، سلكت السلوك المعتاد للمهاجرين الجدد، إذ يحاول من يصل منها إلى المهجر أن يسكن بالقرب من أقربائه أو أصدقائه وذلك للشعور بالأمان واجتياز صدمة الانتقال من مجتمع وثقافة مغايرة لثقافة ومجتمع المهجر.

ومع منتصف العقد الأخير من القرن العشرين، كانت قد تكونت جاليات كبيرة من أبناء الطائفة في المهاجر المختلفة في العالم، وقد سعى أبناء الطائفة هناك إلى إقامة جمعيات واتحادات. ولابد لنا أن نشير هنا إلى أمر مهم وهو أن تحديات تذويب المهاجرين الجدد في المجتمع الجديد تكوّن قوى ضاغطة على الثقافة الأصلية للمهاجر، مما يدفعه للتمسك بها بشدة، فلم يلاحظ أبناء الطائفة هذا الأمر

---

(١) عزيز سباهي، أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، دار المدنى، دمشق، ١٩٩٦ ص٧٠ ومابعدها.

عند انتقالهم من مدن الجنوب إلى المدن الكبرى في العراق، لأنهم كانوا يمثلون ثقافية فرعية (Sub-culture) من الثقافة الأصلية للمجتمع بينما في المهجر يكون الفرق شاسعًا بين الثقافتين.

لقد لاحظنا أن الأقليات التي تهاجر من العراق تحاول أن تبرز ثقافاتها الفرعية، إذ نجد أن المهاجرين - برغم مشاركاتهم في تجمعات عراقية أو عربية- إلا أنهم يركزون اهتمامهم على إبراز هوية ثقافتهم الفرعية في تجمعات يبدون فيها أكثر فعالية وانسجاما.

لقد وصل عدد الجمعيات المندائية الكبيرة والمنضوية تحت خيمة اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر إلى عدد يزيد على العشرة، ففي المؤتمر الأول للجمعيات المندائية في العالم الذي عقد هذا العام (٢٠٠٥م) نقرأ في البيان الختامي وجود الجمعيات الآتية [١]:

١. الجمعية المندائية في الولايات المتحدة.
٢. الجمعية المندائية في الولايات المتحدة / ديترويت
٣. الجمعية المندائية في الدنمارك.
٤. الجمعية المندائية في المملكة المتحدة.
٥. الجمعية المندائية في فنلندا.
٦. الجمعية المندائية في كندا.
٧. الجمعية المندائية في هولندا.
٨. الجمعية المندائية في ميونخ / ألمانيا.
٩. الجمعية المندائية في نورمبيرغ/ ألمانيا.

---

(١) البيان الختامي للمؤتمر الأول للجمعيات المندائية في العالم، على موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر www. mandaeanunion. org في ٢٠٠٥/٣/٧.

١٠. الجمعية المندائية في لوند/ السويد.

١١. الجمعية المندائية في يوتوبري/ السويد.

١٢. الجمعية المندائية في مالمو/ السويد.

١٣. الجمعية المندائية في ستوكهولم/السويد.

١٤. الجمعية المندائية في نيوزلندة.

وعلى الرغم من الحرية الدينية التي يتمتع بها أفراد الطائفة في المهجر - من أداء الطقوس إلى احترام المعتقدات وعدم التدخل أو الاضطهاد في هذا الشأن بحكم رسوخ القوانين العلمانية في الغرب - إلا أن أبناء الطائفة لهم معاناتهم أيضًا، مثل صعوبة أداء بعض الطقوس في البلدان ذات الأجواء الباردة طوال السنة مثل شمال أوروبا وكندا. (لقد حصلت على صور فوتوغرافية لأبناء جالية مندائية في السويد يقومون بالتعميد في نهر، وكانت ثمة عبارة تحت الصور تقول إن درجة الحرارة صفر مئوي!!) ناهيك عن معاناتهم من قلة رجال الدين الذين يقدمون خدماتهم الدينية في طقوس الزواج والوفاة والتعميد والذبح وغيرها.

لكن أبناء الجاليات المندائية قد أثبتوا جدارة وتفوقًا في المهاجر، وهذا ديدن الطائفة التي يبرز فيها المبدعون في ظروف التسامح والانفتاح، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نشاطات منير الكيلاني[١]. الفنان التشكيلي المندائي في السويد، وحصول المهندس ثائر صالح على وسام استحقاق الجمهورية المجرية في بوادبست، وذلك لجهوده في تعريف العالم العربي بالثقافة المجرية في ٢٠٠٤/٥/٣[٢]. وكذلك حصول السيدة أنباء جاوي فرحان على وسام الكفاءة من الملكة اليزابيث الثانية ملكة بريطانيا، وذلك لجهودها التي بذلتها كمديرة لمركز

(١) من موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر باب مبدعون مندائيون بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٧ .www. mandaeanunion. org

(٢) من موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر باب مبدعون مندائيون بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٧ .www. mandaeanunion. org

إعادة تأهيل اللاجئين في لندن، ومساعدتهم في الحصول على فرصة عمل في المؤسسات والمصانع البريطانية(١).

ويجب أن نوضح أن علاقة الجاليات المندائية بمركز الطائفة في العراق بقيت علاقة متينة وقوية، إذ تعتبر رئاسة الطائفة في بغداد المرجع الديني الوحيد في العالم لهذه الجاليات، وأن رئاسة الطائفة على تواصل دائم مع أبنائها في المهجر، فالزيارات مستمرة والتواصل دائم بين الطرفين.

لقد بدأ العالم ومراكز الأبحاث والدراسات بالاطلاع والاهتمام بشكل مضاعف عما سبق بأبناء الطائفة وتاريخها وعقيدتها، فقد عقد مؤتمر عالمي عن المندائية في عام ١٩٩٩م في هارفرد، ثم عقد مؤتمر ثان في عام ٢٠٠٢م في كمبردج، وهذا بالطبع يعود في جزء كبير منه إلى جهود أبناء الجاليات المندائية في المهاجر الذين قدموا صورة جيدة عن دينهم وتراثهم وعمقهم الحضاري، ودور هذا الدين وتأثيره في أديان المنطقة والعالم. كذلك نرى أن أبناء الطائفة في المهجر على تواصل مع هموم وطنهم الأم من خلال مشاركاتهم الكبيرة في كل ما يمس بلدهم – العراق، محاولين أن يقدموا ما يستطيعون في ذلك.

---

(١) جريدة الزمان اللندنية الصادرة في ٢٢/حزيران/٢٠٠٤.

المبحث الثالث

الواقع السكاني والملامح البشرية

كما مر بنا في المباحث السابقة، فإن هذه الطائفة الصغيرة ظلت منزوية في أهوار جنوب العراق لآلاف السنين، وبقيت عصية على الاندثار حتى شبهها بعض الباحثين الأوروبيين بالمتحجرات الحية. واليوم يعيش عدة آلاف من المندائيين في العراق، وبعض الآلاف منهم منتشرين في مهاجر العالم، بالإضافة إلى وجود كثيف في مناطق عربستان (المحمرة والأحواز) في إيران، وهم أبناء عمومة وامتداد لمندائيي العراق. فإذا أردنا أن نصف الواقع السكاني للطائفة في العراق، نستطيع القول أن الثقل الأساسي لها هو في بغداد عاصمة العراق، وذلك نتيجة للتحولات التي مرت بها الطائفة وانخراط أبنائها في الدراسة والعمل في الدولة وفي القطاع الخاص في العاصمة. أما في المحافظات فإن لدينا مقياسا يكاد أن يكون دقيقًا لتواجد أبناء الطائفة، إلا وهو وجود المعابد "منادي" الطائفة، إذ أن المحافظة التي يتواجد فيها عدد مناسب من العوائل المندائية يصار إلى فتح "مندي" لهم في هذه المدينة، و هنالك اليوم ستة "منادي" في العراق وهي موجودة كما يلي:

١. بغداد: وهو المندي الرئيس في العراق، وتوجد فيه رئاسة الطائفة ومجالس عموم وشؤون الطائفة، بالإضافة إلى كل الشؤون الإدارية الخاصة بها على مستوى العالم.

٢. ذي قار: وهي المدينة الأم للطائفة، و فيها معبد "مندي" قديم تم ترميمه، تمارس فيه العوائل المندائية طقوسها.

٣. ميسان: و فيها معبد أيضًا، وهي من المدن الأصلية للطائفة، ويمارس أبناء الطائفة فيها نشاطهم وحياتهم كما كان أجدادهم يمارسونها.

٤. البصرة: وفيها معبد مهم باعتبارها مركز جنوب العراق أو المدينة الأكبر بعد العاصمة، وفيها تجمع كبير لأبناء الطائفة هناك.

٥. ديالى: وفيها مندي لخدمة أبناء الطائفة في هذه المحافظة.

٦. التأميم: وفيها معبد لم ينجز بناؤه حتى الآن لأسباب مالية، وكذلك بسبب الظروف الأمنية المضطربة التي تشهدها المدينة بشكل خاص والعراق بشكل عام.

كما وأخبرني رئيس مجلس شؤون الطائفة أن هنالك تجمع كبير لأبناء الطائفة في محافظتي القادسية وواسط، إلا أن الموافقات لم تحصل حتى الآن لبناء "منادي" فيها.

إن حال أبناء الطائفة اليوم صعب جدًا، فهناك هجمة من قوى ظلامية تكفيرية على أبناء الطائفة المندائية المسالمين، تهددهم بالقتل والاغتصاب والسرقة والاختطاف، إذ حدثت العشرات من هذه الحوادث مع الأقليات الدينية في الأخص، مثل المسيحيين والصابئة واليزيديين في محاولة لاخراجهم من المعادلة العراقية. ولكن بالتفاف أبناء الطائفة حول رئاستها في محاولة لتنسيق الجهود مع القوى الفاعلة في المجتمع من أحزاب ومؤسسات للدولة ومؤسسات مجتمع مدني ومرجعيات دينية، أثبتوا للعالم أنهم غرس عراقي أصيل في الثقافة والمجتمع العراقي، وأنهم رقم أصيل في الحضارة الرافدينية لا يمكن إهماله، وأن الطائفة تتعاون مع الجميع للوقوف بوجه الحملة الإرهابية الشرسة التي تطال قطاعات واسعة من أفراد المجتمع العراقي يقف في مقدمتهم أبناء الاقليات.

إن الأنشطة الكثيرة التي تقوم بها هذه الطائفة تدلل على فعاليتها ومثابرتها، فمن جملة النشاطات نذكر الإعلام المطبوع المتمثل في عدد من المجلات داخل وخارج القطر مثل (آفاق مندائية) و(هيمنوثا) و(المندائي)، وهي مجلات تصدر داخل العراق، أما المجلات التي تصدر خارج العراق فهي مجلة (الصابئي المندائي) ومجلة (الصدى) في السويد وغيرها، هذا بالاضافة إلى دخول أبناء الطائفة إلى عالم الإعلام المسموع، فهنالك اليوم راديو (زيوا) وراديو(يردنا) وقد أقامهما واشتغل على تأسيسهما أبناء الجاليات المندائية في المهاجر، بالإضافة إلى عدد يتجاوز الستة من مواقع الإنترنت الخاصة بالطائفة، كل ذلك يشير إلى حيوية هذه الطائفة التي لن تزول من الفسيفساء العراقي مهما تعرضت لضغوط خارجية وداخلية.

إن انضمام الأستاذ صبحي مبارك مال الله إلى المجلس الــوطني المؤقــت للعراق (البرلمان المؤقت) في تموز ٢٠٠٤ يشكل أهمية كبرى في تمثيــل هــذه الطائفة في المؤسسات الرسمية العراقية واحترام كل مكونــات الطيــف العراقــي المكون من أعراق وأديان وقوميات تمثل بتنوعها خصوصية وقوة العراق.

الفصل الثاني

التحديد العام لمعنى " الصابئة "

المبحث الأول: تتبع تاريخي

المبحث الثاني: آراء الباحثين في الصابئة

المبحث الثالث: موقع الصابئة من الأجناس البشرية

المبحث الأول

تتبع تاريخي

إن إطلاق تسمية "الصابئة" على مجموعة دينية مُعرّفة في العراق يثير الكثير من الالتباسات. وقد أشارت الدراسات المندائية إلى أن أقدم ورود لكلمة (صابئة) في اللغة العربية جاء موثقًا في القرآن الكريم في عدد من الآيات؛ وهي سورة المائدة الآية (٦٩)، وسورة الحج الآية (١٧)، وسورة البقرة الآية (٦٢). وقد اقترن ذكر: (الصابئون) بتعداد الديانات المعروفة في الجزيرة العربية وهي اليهودية والمسيحية، وفي سوزة الحج أضيف لهذه الديانات الزرادشتية التي يسميها العرب (المجوسية) التي كانت سائدة في إيران والعراق.

وتشير بعض الدراسات التاريخية إلى أن العرب كانوا على معرفة بهذه الديانات، وذلك لمجموعة أسباب يقف على رأسها كون قريش والقبائل العربية عملت كوصلة ثقافية بين الشمال العربي (الشام والعراق) وجنوبه (اليمن) عبر الرحلات التجارية (رحلة الشتاء والصيف) التي أتى ذكرها في القرآن الكريم في الإشارة إلى أحلاف قريش (الإيلاف). فقد كانت هذه الرحلات مصدرًا للكثير من المعلومات لعرب الحجاز عن طبيعة الحياة الدينية والاجتماعية والفكرية لشمال وجنوب جزيرة العرب. ومن المعروف أن هذه المناطق كانت ثرية بالحركات الدينية والفكرية، وهي مهبط الوحي للعديد من الأنبياء والرسل. وبالتالي فان عرب الجزيرة ومن خلال الرحلات التجارية تعرفوا على النتاج الثقافي لهذه المناطق وتأثروا به، كما وأثروا فيه في بعض الجوانب.

كما أشارت المصادر إلى دور الصحابي الجليل (سلمان الفارسي) (رضى الله عنه) إذ كان ذا ماضٍ ديني غامض ومتعدد الانتماءات حتى اعتبره بعض

الباحثين شخصية أسطورية(١). ولكن، وفي نفس الوقت، أكد البعض الآخر إنه شخصية حقيقية، بل وحاولوا إثبات كون ديانته السابقة للإسلام كانت المندائية، وليس المجوسية ثم النصرانية كما هو شائع(٢).

وعندما نتفحص كلمة (صابئة) أو (صَبَّة) بالعامية العراقية، لا نجد لها مدلولاً تاريخيًا دقيقًا يدل على الطائفة الدينية الموجودة في العراق وإيران، أو بتعبير أوضح أن (المندائيين) لا يطلقون هذه الكلمة (صابئة) على أنفسهم، وهي بالنسبة لهم أقرب ما تكون إلى الخطأ الشائع الذي يستخدمه الآخرون لتسميتهم، وهم يعرّفون أنفسهم بأنهم (مندائيون)، وسنأتي على ذكر الفرق بين الكلمتين لاحقًا.

وبالعودة إلى المصادر المندائية نجد فيها كلمة (صبا) واشتقاقاتها، وهي من المفردات المندائية الآرامية، إحدى لهجات المجموعة السامية التي كتبت بها المخطوطات الدينية للطائفة(٣).

وكلمة (صبا) غير المهموزة واشتقاقاتها، تعني التعميد أو التطهّر بالماء كشعيرة دينية أساسية من شعائر المندائيين، وهم يطلقون على هذه الشعيرة في استعمالاتهم اليومية كلمة "صباغة"، وبذلك تكون "صبا" هي صبغ، وتشير السيدة دراوور إلى معنى رمزي لكلمة "صباغة"، وهي أن المتعمد يدخل إلى (الماء الحي) أسودَ مرتكبًا للذنوب ويخرج منه أبيض متطهرًا من ذنوبه(٤)، ومعنى "صبا": صبغ، أي غُمس في الماء من أجل أن يتطهر ويدخل في دين المندائيين، أي تعمد، ومن اشتقاقاتها "صبيت" أي صبغتُ وهي تعني تعمدتُ، إذ يقول المندائي عندما يتطهر

---

(١) لوي ما سينيون، سلمان الفارسي والبواكير الروحية للاسلام في ايران، نشرات جماعة الدراسات الإيرانية رقم (٧)، باريس ١٩٣٤م، ترجمة عبد الرحمن بدوي في كتابه شخصيات قلقة في الاسلام، دار النهضة، القاهرة ١٩٦٤، ص٧-ص٣١.

(٢) د. رشيد الخيون، الاديان والمذاهب في العراق، منشورات دار الجمل، المانيا ٢٠٠٣م، ص٢٩، وكذلك ينقل الخيون عن اسباب النزول للواحدي النيسا بوري ان الاية (١٧) من سورة الحج نزلت في قوم سلمان الفارسي (رضى الله عنه).

(٣) ناجية مراني، مفاهيم صابئية (تاريخ، دين، لغة) بغداد ١٩٨١، مطبعة شركة التايمس، ص٥٢-ص٥٣.

(٤) الليدي داروور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي، طبعة ثانية ١٩٨٧، بغداد ص١٦٧.

بالماء: "صبيت بمصبوتا آد بهرام ربا" أي اصطبغت أو تعمدت بمعمودية الملاك بهرام الرباني. وكذلك نقرأ في الكتابات الدينية المندائية مصدر الكلمة بالشكل "مصبوتا" بمعنى صباغة أو تعميد، و "مصطبا" بمعنى الشخص المصطبغ أو المتعمد على الطريقة المندائية(١).

وإذا أردنا أن نتتبع تاريخيًا و أركيولوجيًا وجود أو ظهور هذه الطائفة وهذه التسمية، فلابد لنا من الإشارة إلى مجموعة من الصعوبات التي تكتنف هذا البحث. وأول هذه الصعوبات هي قلة أو انعدام الابحاث والتنقيبات لمنطقة تواجد الطائفة، أي منطقة الأهوار في دلتا دجلة والفرات جنوب العراق، والسبب في ذلك عائد إلى طبيعة المنطقة وتحولاتها المستمرة بسبب الفيضانات والإضافات الغرينية وتغير مسار الأنهار وتغير مواقع القرى تبعا لذلك، أما الصعوبة التاريخية فتكمن في طبيعة الديانة السرية وانغلاقها، واعتبار الطقوس والحياة الدينية والكتب المقدسة أسرارا لا يجوز إباحتها للآخرين، إما خوفا من الاضطهاد أو خوفا من خروج هذه الاسرار المقدسة لمن لا يقدّر قيمتها. كل ذلك أدى – حسب اعتقاد بعض الباحثين- إلى فترات طويلة من انتقال الإرث والأدب الديني المندائي بصورة شفوية أو عن طريق نسخ الكتب المقدسة بشكل محدود(٢).

عندما تناول علماء العرب في القرون الأولى المبكرة من الإسلام كلمة (صابئون، صابئين) أثناء عملهم في تفسير القرآن وفي الفقه والمعاجم اللغوية، كان هناك شبه إجماع على أن جذر الكلمة هو (صبأ) وتعني الخروج من الدين إلى دين آخر. وكان التأكيد في الدراسات الفقهية الإسلامية المبكرة ذا أهمية قانونية وذلك لتعلق الأمر بدافعي الجزية من أتباع الأديان الكتابية الأخرى أو من اتفق على تسميتهم (أهل الذمة).

---

(١) Maguch, Rudolf, Hand book of classical & modern Mandiac, Walter-de Gruter &Co. . Barlin, 1965. P. P. 230-231.

(٢) عزيز سباهي، أصول الصابئة (المندائين) ومعتقداتهم الدينية، دار المدى دمشق، ١٩٩٦، ص١٧- ص٢١.

وكذلك نلاحظ في معاجم اللغة أن معنى (صبأ) هو (تغير، تحول، انقلب، عاد). وقد أطلق العرب هذا الفعل على النجوم عندما تظهر أول الليل، وعلى الجمال حين ترجع، ولكن الاستعمال الأكثر شيوعًا كان للإشارة إلى الشخص الذي ترك دينه[1]، فعلى سبيل المثال، كل من ترك دينه في بداية البعثة النبوية واصبح مسلمًا قيل عنه (صبأ فلان)، وتعني بدّل دينه، وكذلك أطلقت قريش على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في بداية بعثته (الصابئ) والتي تعني (الذي بدّل دينه). كما لاحظ بعض العلماء المسلمين في الفترة الإسلامية المبكرة إنه ثمة علاقة بين مصطلح (صابئ) الذي أطلق على النبي ومحتوى تعاليمه، فلقد أكد (عبد الرحمن بن زياد) انه: أطلق المشركون على النبي وجماعته لقب (الصابئون)، مقارنة لهم بالصابئة الذين يعيشون في جزيرة الموصل والذين يذكرون (لا إله إلا رب واحد)[2].

وكما أسلفنا، فقد شرح المعجميون العرب معنى (صابئ) أو (صابي) في معاجمهم على أنها اشتقاق من الفعل (صبأ) المهموز الذي يعني (تحوّل أو ارتدّ عن دينه الأصلي)، لكن أغلب الباحثين الغربيين لا يقبلون بهذا الاشتقاق، وتتفق معظم آرائهم على أن أصل الكلمة غير عربي وقد دخلت إلى اللغة العربية، وهذا أمر اختلفوا فيه أيضًا.

ففي عام ١٦٤٩م اقترح بوكوك (Pocock) أن كلمة (صابئ) هي اشتقاق من الكلمة العبرية (سابا) (Saba) والتي تعني (جيش أو جند). وقد أيّد الباحث في الدراسات المندائية الأستاذ ميشيل تارديو (Tardieu) وجهة النظر تلك في النصف الثاني من القرن العشرين[3].

---

(١) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت١٩٨٣، ص٣٥٤.

(٢) س. كوندوز، معرفة الحياة (دراسة حول أصل الصابئة المندائيين)، ترجمة د. سعدي السعدي، مركز الحرف العربي السويد١٩٩٦، ص٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠.

أما العالم بيل (Bell) فيميل إلى الاعتقاد بأن هذه الكلمة لا تستخدم أو تطلق إلا على صابئة "جنوب العراق" حصرا، بالرغم من أنه لاحظ صعوبة في تقبل هذه النظرية بسبب تشوش صوت حرف الصاد الواضح تمامًا في اللغة العربية.

أما غريميه (Grimme)، فقد وجه اهتمامه إلى جنوب جزيرة العرب للبحث عن الأصل الفيلولوجي للكلمة، ووجد في كلمة (سبه) (Sbh) الأثيوبية ضالته، ومعناها الثانوي هو (ضريبة أو جزية)، وقد أوّلها وفسرها لتعني توزيع الصدقات، إلا أن هذا الرأي يعد من الآراء الضعيفة.

أما أقوى الآراء فهو رأي بعض العلماء الغربيين مثل ويلهاوزن جولسون (chwolsohn) و دراوور القائل: أن هذا الفعل مرتبط بالفعل السرياني "صبب" "Sb" الذي يعني (ينغمس، يغطس، ينصبغ، يتعمد). ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الكلمة لم تنتقل إلى العربية مباشرة من السريانية، إنما انتقلت من الفعل المندائي "صبب" "Sb" الذي يعني أيضا (تعمّد، غمس، غطس)، وقد تبنى هذا الرأي عدد من الأساتذة مثل توري (Tory) وجيفري (Jeffery). ويرجح بعض الباحثين العرب المعاصرين أن الكلمة المندائية كانت تسمع من المندائيين بشكل دائم، إذ أنهم يستعملون الفعل (صبا) الآرامي في طقس التعميد الرئيسي، وهذا الطقس يسمى (مصبته)، وكذلك يقولون في صيغة الآذان "انش صابي بمصبتة شلمي" أي (كل من تعمد بالمعمودية يسلم)[1]، كما يقولون في التعميد "الصباغة"؛ "صبينا ابمصبتة ادبهرام ربه" أي (تعمدت بعماد بهرام الرباني)[2]، ولديهم الكثير من العبارات التي تذكر كلمة "المصبتة" كثيرا في طقوسهم، ويعتقد أن يكون الأقوام المجاورون لهم - وكثير منهم آراميون أو يجيدون اللغة الآرامية - قد أطلقوا عليهم اسم: (الصابئون) أي المغتسلة بالآرامية.

---

(١) س. كوندوز، معرفة الحياة، مصدر سابق، ص٣٤ وما بعدها.

(٢) الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي، طبعة ثانية، ١٩٨٧، بغداد، من مقدمة المترجمين، ص٩.

والآن إذا سألنا سؤالاً هو: من هم (الصابئون) الذين ورد ذكرهم في أقدم توثيق في اللغة العربية وهو القرآن؟ نقول: أن هناك الكثير من التفاوت في آراء العلماء والباحثين حول هذه النقطة، لكن النظرية الأكثر شيوعًا هي التي اقترحها (والك) في القرن الثامن عشر، و(جولسون) في القرن التاسع عشر، وأيدها العديد من الأساتذة في القرن العشرين ؛ أمثال (كريلنغ) و(الليدي دراوور) و(بوك). وتفيد هذه النظرية بأن مصطلح: (الصابئون) الوارد ذكره في القرآن الكريم يشير إلى مندائيي إيران والعراق، وذلك استنادًا إلى أدلة تاريخية ذكرها العلماء العرب في القرون الوسطى واعتمادًا على أبحاث لغوية مقارنة حديثة وغيرها(١).

(١) س. كوندرز، المصدر نفسه، ص٣٧.

المبحث الثاني
آراء الباحثين في الصابئة

إذا أردنا تتبع آراء الباحثين الذين تناولوا موضوع الصابئة في دراساتهم وجب علينا ان نقسم هذا التتبع إلى قسمين كبيرين هما:

أولاً: العلماء والباحثون العرب.

ثانيًا: العلماء والباحثون الغربيون.

وسنتناول القسمين بالتوضيح وكما يلي:

اولاً: العلماء والباحثون العرب:

وهنا نضطر إلى تقسيم البحث أو التتبع إلى قسمين فرعيين؛ فثمة كتابات تناولت بالشرح والتوضيح موضوع الديانة المندائية في القرون الوسطى أبان الحضارة العربية الإسلامية، وثمة دراسات وأبحاث عربية حديثة تناولت الموضوع منذ عصر النهضة في القرن التاسع عشر، سنأتي على ذكرها.

١. **العلماء العرب في القرون الوسطى:** عندما نستعرض الكتابات التأريخية الإسلامية في موضوع الصابئة المندائية يجب أن نتوقف عند نقطة تأريخية فاصلة اعتبرها بعض الباحثيين نقطة تحول في نوع وطبيعة الكتابات قبلها وبعدها، وهذه النقطة هي وفاة الخليفة العباسي المأمون (٨٣٢م-٨٣٣م)[1].

فالكتابات المبكرة قبل وفاة المأمون، كانت بشكل عام مختصرة وتشير إلى الموضوع في جمل قليلة، وكانت منصبة على توضيح مصطلح (صابئون) الوارد الذكر في الآيات القرآنية لأغراض فقهية أو قانونية، ووضع أجوبة حول السؤال

---

(١) س. كوندوز، معرفة الحياة، مصدر سابق، ص٣٠

القائل: هل يعتبر (الصابئون) من أهل الذمة؟ وهل يجوز أخذ الجزية منهم باعتبارهم موحدين مثل النصارى واليهود أم لا؟ أما الكتابات المتأخرة عن ذلك – أي بعد النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي – فقد اعتمدت كثيرًا على الآراء المبكرة، إلا أن هناك كتابات فيها تفصيل لا بأس به مثل كتابات المسعودي والبيروني وابن النديم، وسنأتي على تفصيل كل ذلك فيما يلي: –

أ. الصابئة حسب المصادر الاسلامية المبكرة، قبل عام (٨٣٢م-٨٣٣م):

لم ينتبه العلماء الغربيون المهتمون بالصابئة إلى المدارس الإسلامية المبكرة، بالرغم من أنها تعتبر بالغة الأهمية في تمييز (من هم صابئة القرآن)، وفي تحليل التأملات حول الصابئة. وربما أن مرد ذلك إلى أن ذكر الصابئة كان متفرقًا أو قليلاً، إذ أنهم كانوا يذكرون ضمن موضوع ما مثل الجزية أو أكل لحوم ذبائح أهل الذمة، فيأتي ذكر الصابئة بجملة أو جملتين لكنها مهمة جدًا، أولا نظرا لقرب المدرسة الإسلامية المبكرة من القرآن ومصطلحاته والفهم الجيد له، وثانيًا لأن المدارس الإسلامية اللاحقة في الفقة والحديث وعلوم القرآن كانت قد استندت إلى الكتابات المبكرة كمراجع لا غنى عنها.

ويمكن أن نوجز ما توصلت إليه المصادر الإسلامية المبكرة في ما يلي:

أن المناطق التي يتواجد فيها الصابئة تمركزت حول الموصل بحسب (عبد الرحمن بن زيد)، وأرض السواد بحسب (عطا بن رباح وابن جريج) وفي واسط بحسب (ابو الزناد).

أما بخصوص تعريف ديانة الصابئة: فهي ديانة بين اليهودية والمجوسية بحسب (الحسن البصري وابن جريج)، وهي ديانة وسط بين اليهودية والنصرانية بحسب بعض الأئمة مثل (الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان)، و(قتادة) و(الإمام الأوزاعي) و(الإمام مالك ابن أنس) و(الإمام أحمد ابن حنبل)، أما حبر الإسلام (عبد الله ابن عباس) "رضى الله عنه" فيعتبرها فرقة من النصرانية، ولكن هناك

رأي لـــ (عبد الرحمن ابن زيد) يعتبر أن لهم دينًا مستقلاً، وهم ليــسوا بطائفــة أو نحلة من أي دين سابق[1]

أما فيما يتعلق بمعتقداتهم وطقوسهم الخاصة، فقد أشار (وهب بــن منبــه) و(عبد الرحمن بن زيد) إلى أنهم يعتقدون بإله واحد. وأضاف (الخليل ابــن احمــد الفراهيدي) بأنهم يعتقدون أنهم من أتباع النبي نــوح (ع)، ولكنــه اضــاف بــأنهم يؤلهون الملائكة. وهذا الرأي يتطابق مع رأي (الحسن البصري) و(ابن جــريج)، أما (أبو الزناد) فقد ذكر أنهم يؤمنون بالأنبياء السابقين ويصلون خمس مرات فــي اليوم وصلاتهم باتجاه الجنوب ويصومون (٣٠) يومًا في السنة[2].

والخلاصة المهمة لقراءة المدرسة الإسلامية المبكرة – التي تكونــت علــى الأغلب من علماء عاشوا في العراق، مما يعني قربهم من الأرض التي يعيش فيها المندائيون– تفيد أن الصابئة دين بين المجوسية واليهودية والمسيحية، أو أنهم فرقة لها علاقة بواحدة من هذه الديانات، أو أنهم أصحاب دين مستقل يحمــل عناصــر مختلفة من تلك الأديان الثلاث.

أما فيما يخص موقعهم بالنسبة للقانون الاسلامي في المدرســة الاســلامية المبكرة؛ فعندما فتحت أرض العراق في زمن الخليفة الراشدي الثــاني عمــر بــن الخطاب (رضى الله عنه) اندرج غير المسلمين في العراق مثل المجوس والصابئة ضمن نظام دافعي الجزية. ولكن انقسامًا فقهيًا حدث فيما يتعلق بالصابئة في هــذه الفترة المبكرة، و قد كان يدور حول السؤال: هل الصابئة هم من أهل الكتاب؟ قال (الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان) وبعض الفقهاء في العصر الأموي مثــل (أبــو العلياء) و(السعدي): بأن الصابئة من أهل الكتاب لأنهم يقرأون الزبور، لذلك يجوز مناكحتهم وأكل طعامهم، بينما ذهب الرأي الآخر – الذي وقف على رأس الفقهــاء فيه تلميذ أبو حنيفة القاضي (أبو يوسف) و(محمد بن الحــسن) وغيــرهم – إلــى

---

(١) س. كوندوز، مصدر سابق، ص٣٩

(٢) المصدر نفسه، ص٤٠

القول بأنهم ليسوا من أهل الكتاب بسبب عبادتهم للملائكة. لذلك فأن موقعهم مشابه لموقع المجوس في القانون الإسلامي وهو عدم جواز مناكحتهم و مؤاكلتهم[1].

ب. الصابئة حسب المدارس الإسلامية اللاحقة (أي بعد وفاة الخليفة المأمون):

ونتناول هنا آراء المفسّرين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين والفلاسفة من المفكرين العرب المسلمين؛ مثل(أحمد بن الطيب) صاحب كتاب "رسالتي في وصف مذاهب الصابئيين". وهذا الكتاب هو رسالة مفقودة، إلا أن أهميتها في ريادتها، إذ نقل عنها الكثير من المتأخرين؛ مثل (المسعودي) و(ابن النديم) في كتابه "الفهرست". وكذلك ذكر الصابئة كل من (القرطبي) و(ابن خلدون) و(القفطي) و(ابن خلكان) و(ياقوت الحموي) و(ابن أبي أصيبعة) و(الكندي) و(الشهرستاني) و(أبو بكر الرازي) و(أبو الريحان البيروني) وغيرهم. وفي البدء لابد من الإشارة إلى أن أغلب هؤلاء المؤلفين اعتمد الرواية الشفوية كمصدر أساس، وهو منهج عام سار عليه كثير من المفكرين المسلمين ليس في هذا الشأن وحده[2]، وإنما في معالجتهم للكثير من القضايا. وقد قيل الكثير في هذه الطريقة التي اشتقت من الممارسة العامة في الكتابة.

إن الرواية الشفوية على ما فيها من صدق في كثير من الأحيان وعلى ما فيها من ضرورة، إلا أن فيها نقاط ضعف قاتلة، متمثلة في مصداقية وأهلية الرواة، والتحقق من المروي، وهو الشئ الذي لم يكن يحصل مع المؤلفين المسلمين، حتى غدت بعض كتاباتهم سردًا لمجموعة من الأساطير والتهويمات دون تمحيص. وهذا متأت من عدم معرفتهم باللغة المندائية مما لا يؤهلهم للاطلاع على الأدب الديني المندائي بأنفسهم أو التدقيق فيما يروون. كما وأن الصابئة أنفسهم، وكما أسلفنا القول، يضنون على الغرباء بكتبهم الدينية وكشف طقوسهم.

---

(١) س. كوندوز، معرفة الحياة، مصدر سابق، ص٤٤

(٢) عزيز سباهي، أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، منشورات المدى، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص٢٦.

ففي كتاب "القانون المسعودي"، يقول البيروني – وفي روايته الكثير من الموضوعية والدقة العلمية بالمقارنة بالآخرين–: (الصابئون في كتاب الله تعالى مقترنوا الذكر بالطوايف التي قدمنا ذكرهم، فأما الكاينون بسواد العراق حوالي قرى واسط، فما حصلت من أسلوبهم على شئ البته، وأما المتلقبون بلقبهم من بقايا اليونانيين الكاينين بحرّان فهم من الصيانه لشرائعهم بحيث لا يكاد مخالفوهم يقفون عليها)[1].

كما اعتمد بعض المؤلفين الإسلاميين في كتاباتهم عن الصابئة على المصادر المسيحية. فإذا ما عرفنا أن الصراعات التي كانت دائرة بين المذاهب المسيحية كانت على أشدّها، والتنافس على الحضوة في دوائر الترجمة والعلوم في البلاط العباسي كانت مستعرة في تلك الفترة، عرفنا حجم التشويه أو عدم الدقة في أحاديث هؤلاء المنقول عنهم. وهنا لابد من ذكر رواية كان لها الأثر الكبير في الدراسات المندائية ؛ وهي رواية (أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني) كما أوردها ابن النديم، إذ يقول: "قال أبو يوسف أيشع القطيعي النصراني في كتابه في الكشف عن مذاهب الحرنانيين المعروفين في عصرنا بالصابئة، إن المأمون اجتاز في آخر أيامه بديار مضر، يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من الحرنانيين، وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة بوفرات كوفرة قرة جد سنان بن ثابت، فأنكر المأمون زيهم وقال لهم من أنتم من الذمة ؟ فقالوا نحن الحرنانية، فقال لهم أنصارى أنتم ؟ قالو لا، قال فيهود أنتم ؟ قالوا لا، قال فمجوس أنتم ؟ قالوا لا، قال لهم أفلكم كتاب أو نبي ؟ فمجمجوا في القول، فقال لهم فأنتم إذن الزنادقة عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم، فقالوا نحن نؤدي الجزية، فقال إنما تؤخذ الجزية ممن خالف الإسلام من أهل الأديان الذين ذكرهم الله عز وجل في كتابه، ولهم كتاب وصالحه المسلمون على ذلك، فأنتم ليس من هؤلاء ولا هؤلاء، فاختاروا الآن أحد

(١) البيروني، ابو الريحان محمد بن احمد (المتوفي ٤٤٠هـ)، القانون المسعودي، جـ١ طبعة حيدر اباد، الهند، ١٩٥٤م، ص٣٦٧

أمرين: إما أن تنتحلوا دين الإسلام أو دينًا من الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلا قتلتكم عن آخركم، فأني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه، فإن دخلتم في الإسلام أو في دين من هذه الأديان التي ذكرها الله في كتابه، وإلا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم، ورحل المأمون يريد بلاد الروم، فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية، وتنصر كثير منهم ولبسوا زنانير، وأسلم منهم طائفة وبقي منهم شرذمة بحالهم، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتسب لهم شيخ من أهل حران فقيه، فقال لهم وجدت لكم شيئًا تنجون به وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيمًا من بيت مالهم، أحدثوه منذ أيام الرشيد إلى هذه الغاية، وأنا أشرح لك أيدك الله السبب في ذلك، فقال لهم، إذا رجع المأمون من سفرة فقولوا له نحن الصابئون، فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه في القرآن فانتحلوا تنجون به، وقضى أن المأمون توفي في سفرته تلك بالبذنون، وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابه، فلما اتصل بهم وفاة المأمون ارتد أكثر من تنصر منهم ورجع إلى الحرنانية، وطولوا شعورهم حسبما كانوا عليه قبل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون"(١).

لقد لعبت رواية القطيعي دورًا كبيرًا في تشويش الدراسات المندائية سابقًا وفي الوقت الحاضر، لذلك يجب أن نشير إلى أن أحدًا غير القطيعي لم يشر إلى هذه الواقعة المزعومة، أي أنه ينفرد بالحديث عنها. في حين أن حياة المأمون ونشاطه كانت موضع عناية خاصة من جانب الرواة والمؤرخين نظرًا للمنزلة العالية التي حظي بها هذا الخليفة العالم، فهو- أي القطيعي - يختار للواقعة التي يرويها زمنًا يسبق وفاة المأمون مباشرة، لكي لا يبقى للقصة من ذيول يتابعها المأمون بنفسه من بعد. لقد كان المأمون - كما هو معروف - رجلاً واسع الاطلاع، وقد نظمت في زمنه مكتبة الحكمة المعروفة، وقد رعى شخصيًا حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية في ميادين الفلسفة والطب والفلك والعلوم الرياضية والطبيعية الأخرى. وقد لعب مثقفو حران دورًا مهمًا في حركة الترجمة

---

(١) ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨م ص٤٤٥/٤٤٦

هذه، فليس من المعقول ألاّ يعرف المأمون شيئًا عنهم[١]. وعلى خلاف ما يزعم القطيعي، ففي ديار مضر، ومنها حران والرقة وغيرها، كان هناك من يدعى بالصابئة حتى قبل خلافة المأمون بل و(ابن النديم) ذاته، الذي نقل لنا رواية القطيعي يورد في فهرسته في موضع آخر: "أن أجداد ثابت بن قرة قد توارثوا رئاسة الصابئة منذ أيام عبد الملك بن مروان[٢] ".

ونستطيع القول في المرحلة المتأخرة، أو بعد وفاة المأمون، إن (المسعودي) يعتبر أول العلماء الذين وضعوا دراسة منهجية حول الصابئة. وقد اعتمد في بعض كتاباته، كما أشرنا سابقًا، على رسالة وضعها (ابن الطيب) تلميذ فيلسوف العرب الأول (الكندي). لقد أعطى (ابن الطيب) غزارة من المعلومات عن الحرانيين، فوصف نظامهم اللاهوتي ومعتقداتهم الكواكبية ونظام العالم وأسطورة الخلق بالنسبة لهم، وكذلك طقوسهم الدينية مثل الصلاة والصوم والقرابين، ووصف أعيادهم. كما وروى أن الكندي معلمه كان قد قال له انه فحص كتابًا كان يعتبر المرجع لهؤلاء الناس وهو رسائل هرمس (Hermes) حول وحدة الإله، وكان هرمس قد كتبها إلى والده[٣]. وقد ذكر (أبو إسحاق الأصطخري) الجغرافي حران كمدينة للصابئة في بداية القرن العاشر الميلادي، وقال إن فيها سبعة عشر (١٧) مكانًا للعبادة (معبد)، ولاحظ وجود تل عظيم يعود إلى النبي إبراهيم يقدسه الصابئون ويصلون عليه[٤].

ونستطيع أن نستخلص من كل ذلك أن المصادر الإسلامية المبكرة قبل (٨٣٢م – ٨٣٣م) وهو تاريخ وفاة الخليفة العباسي المأمون، قد وصفت (الصابئة) الذين ذكرهم القرآن بصفتهم أهل كتاب أسوة باليهود والنصارى. وقد ذكرت هذه المصادر أن للصابئة نظام عبادة توحيدي، وأنه أخذ من عناصر اليهودية والمسيحية والمجوسية، وهم يعيشون في العراق. واعتبارًا من الربع الأخير من

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٣١

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص٤٥٤

(٣) س. كوندوز، مصدر سابق، ص٤٥

(٤) س. كوندوز، معرفة الحياة، مصدر سابق، ص٤٦

القرن التاسع ظهر أهل حران تحت اسم صابئة حران، بالرغم من أنهم ذكروا في المصادر الإسلامية المبكرة تحت اسم الحرانيين. وعلى سبيل المثال، عرض (أبو يوسف) قاضي القضاة في زمن الرشيد؛ أن شعب حران هم نباتيون وهم مهاجرون أو من بقايا اليونانيين[١]. وقد وصف معظم علماء المسلمين القروسطيين بعد المأمون أهل حران الذين يعبدون الكواكب والأصنام التي تمثلها، على أنهم صابئة، وفي الوقت نفسه كانوا قد ذكروا فرقة صابئية أخرى عرفت بأسماء مختلفة؛ مثل المغتسلة والواسطيون والكيماريون، وأشاروا إلى أن موطنهم هو العراق، وهم يسكنون على وجه الخصوص في واسط والبصرة والبطائح وهي مناطق الأهوار في الجنوب البابلي.

ولابد من ذكر ملاحظة عن كتابات مفكري القرون الوسطى المسلمين، وهي أنهم أطلقوا تسمية الصابئة على كل عبدة الأصنام والكواكب من الصين إلى اليونان، ومن وسط آسيا إلى المصريين.

لقد أشرنا في متن الموضوع إلى منهج النقل الشفهي والخلط الذي كان شائعًا في كتابات علماء المسلمين في تلك الفترة، ولم نلاحظ استخدام الروي عن أشخاص كانوا صابئة ودخلوا الإسلام، ولم تردنا دراسة موضوعية عن الصابئة إلا في حالات نادرة مثل وصف (المسعودي) لصابئة حرّان في كتاب "التنبيه والأشراف".

٢. **الكتّاب والباحثون العرب المعاصرون:** منذ القرن التاسع عشر تناول الكثير من الكتاب والمفكرين والأساتذة العرب موضوع الصابئة. ولكن غالبا ما كانت هذه الدراسات وصفية ومتأثرة بطريقة البحث الاستشراقي، ولم تتوفر دراسات معمقة عن موضوع الصابئة رغم وجود بعض المحاولات الجادة. كما ولم تكن الإشارات في نهاية القرن التاسع عشر سوى نتف متناثرة في مقالات. ومع بدايات القرن العشرين بدأت تظهر دراسات أكثر عمقا. وكان الرائد فيها كتاب (مندائي) لعبد الحميد افندي عبادة، وقد اعتبر أول كتاب يصدر بالعربية عن

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٨

الطائفة، وهو حصيلة حوار مباشر بين الباحث وبين الشيخ كنزبرا (دخيل بن عيدان بن داموك) رئيس الطائفة المندائية في العراق الساكن في مدينة الناصرية آنذاك في عام (١٩٢٥)[١]. وقد أعاد تحقيقه وقدم له الباحث العراقي د. رشيد الخيون وصدر في طبعة حديثة عام ٢٠٠٣م عن دار الحكمة في لندن.

لقد سبقت كتاب (مندائي أو الصائبة الأقدمين) بلا شك مقالات الأب الموسوعي انستاس ماري الكرملي في مجلة المشرق، عندما كان مراسلاً لهذه المجلة في مطلع القرن العشرين، إلا أنها لم تجمع في كتاب حتى الان.

ولكن، وكما يشير د. رشيد الخيون في مقدمة الكتاب الذي حققه وأعاد طبعه، لابد وأن يكون عبد الحميد عبادة قد اطلع على مقالات الأب الكرملي، لأنه أخذ منها نصوصًا كاملة من بحث "الصابئة" لنقولا السيوفي، الذي كتبه بالفرنسية ونشرته مجلة البيان بالعربية عام (١٨٩٧م). ثم صدر كتاب عبد الرزاق الحسني "الصائبة قديما وحديثا " عام (١٩٣١) وقدم له أحمد زكي باشا، وكذلك يشير د. الخيون إلى أن الحسني (اختطف الكثير من مقالة نقولا السيوفي ونصوص عبد الحميد عبادة دون الإشارة، إلا في مكان لا علاقة له بالنصوص الرئيسية المقتبسة[٢]). وبقي كتاب الحسني مصدرًا وحيدًا للمعلومات عن الطائفة رغم أن فيه الكثير من الأخطاء والمغالطات، حتى أن الشيخ دخيل بن عيدان رئيس الطائفة في الثلاثينيات رفع دعوى نظرت في القضاء العراقي ضد المؤلف عبد الرزاق الحسني، وقد ردَّ فيها على اتهامات الحسني بأنهم - أي الصابئة - غير موحدين ويعبدون أو يقدسون النجوم. لقد قرأ الشيخ دخيل في كتاب المندائيين المقدس "كنزا ربًا" ردًا على الحسني في المحكمة، وترجمت الكلمات المقدسة لتثبت أخطاء الحسني، وحكمت المحكمة بتعديل الطبعة القادمة وباعتذار المؤلف رسميًا إلى الطائفة ممثلة برئيسها[٣].

---

(١) عبد الحميد افندي عبادة ، مندائي أو الصائبة الاقدمين، تقديم وتحقيق د. رشيد الخيون، دار الحكمة، لندن، طبعة اولى ٢٠٠٣، ص٣ من مقدمة المحقق.

(٢) المصدر نفسه، ص٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦.

ومع ذلك بقي كتاب الحسني على ماهو عليه حتى الخمسينات من القرن العشرين، حينما بدأت كتب أخرى بالعربية بالظهور مثل كتاب عباس محمود العقاد (أبو الأنبياء) الذي صدر عام ١٩٥٣، وأشار فيه إلى أن الصابئة هم ملة إبراهيم. وقد اعتمد في طروحاته على مصادر إسلامية قروسطية بالإضافة إلى ما اطلع عليه من دراسات حديثة مثل كتاب الحسني الذي طبع في القاهرة. ومن الجدير بالذكر أن مرحلة الستينات كانت زاخرة بالانفتاح والإبداع لدى أبناء الطائفة أنفسهم، إذ اشتغل باحثان مندائيان على ترجمة كتاب الباحثة الإنكليزية الليدي دراوور، التي عاشت كزوجة لإداري انكليزي في مدينة العمارة، فكانت قريبة من لغتهم وطقوسهم، وأنتجت أهم الدراسات عن المندائية، وقد تعاون معها رئيس الطائفة في الثلاثينيات الشيخ دخيل الشيخ عيدان، الذي يعتبر بحق أهم من أرسى الوجود الحديث للطائفة في العراق الحديث. (لقد حدثني أستاذي المشرف الدكتور خالد الجابري أنه قابل الليدي دراوور في بيتها في إنكلترا، عندما كان طالبا يعد أطروحته للدكتوراة عن اليزيدية وقال لي: بعد أن أخبرتها سكرتيرتها أن طالبا من العراق يريد مقابلتها، خرجت من داخل قاعة الاستقبال وهي تدبك بقدمها رافعة يدها إلى الأعلى ومرددة "هوسة" من هوسات أهل الجنوب، وهو دليل على عمق معرفتها بهم وشغفها بثقافتهم).

لقد اشتغل الأستاذ نعيم بدوي والأستاذ غضبان رومي على ترجمة الكتاب الأهم عن الطائفة – كتاب الليدي دراوور (الصابئة المندائيون) – ثم ترجما الجزء الثاني منه تحت عنوان (أساطير وحكايات شعبية صابئية). كما برز دور الأستاذ غضبان رومي في مؤلف مستقل حاول فيه أن يتجاوز هفوات الليدي دراوور وأخطائها، فأصدر كتابه (الصابئة، بحث اجتماعي ديني تاريخي عن الصابئة) عام ١٩٨٣ في بغداد. وقد سبق غضبان رومي من أبناء الطائفة في التأليف الأستاذة ناجية مراني في كتابها (مفاهيم صابئية مندائية)، والأستاذ عبد الفتاح الزهيري في كتابه (الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين، العرب البائدة). ويمكننا أن نلاحظ منذ نهاية الستينيات – أي منذ صدور كتاب (الصائبة المندائيون) في عام ١٩٦٩ –

إن أهم الدراسات عن الطائفة صار يكتبها أبناؤها، بعد أن آمنوا بضرورة الانفتاح والتفاعل مع المجتمع بالنظر للتغيرات التي حدثت في العراق بعد تأسيس الدولة العراقية وبداية التغيرات والحراك الاجتماعي في المجتمع. إذ ترجم الدكتور صبيح مدلول السهيري كتاب (النشوء والخلق في النصوص المندائية) للمستشرق الباحث في الشؤون المندائية كورت رودولف، في عام ١٩٩٣، كما قام الدكتور سعدي السعدي – المهاجر خارج العراق– في عام ١٩٩٦ في السويد بترجمة كتاب عالم المندائيات س. كوندوز (معرفة الحياة) إلى العربية، وفي العام نفسه كتب السياسي الماركسي العراقي عزيز سباهي كتابه المهم (أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم) وقد صدر في دمشق في ذلك العام. أما في الدراسات المختصة أو العلمية فقد أصدر الدكتور خزعل الماجدي عام ١٩٩٧ كتيبه (جذور الديانة المندائية) وهي محاولة لإرجاع الديانة المندائية إلى أصول سومرية رافدينية، وهو اشتغال سبق أن قام عدد من الباحثين الغربيين بمحاولات مهمة فيه، كما وصدر كتاب الدكتور رشيد الخيون (أديان ومذاهب العراق) في ألمانيا عام ٢٠٠٣.

ومن الجدير بالذكر أن جزءًا كبيرًا من الأدب الديني المندائي تمت ترجمته إلى العربية، ابتداءً بالكتاب المقدس " كنزا ربا " وهو صحف آدم. وقد قام الأستاذ أمين فعيل حطاب بجهد طيب في ترجمة عدد من النصوص الدينية المندائية من لغتها الأصلية إلى العربية مباشرة مثل " القلستا " وهي ترانيم الزواج المندائية، و"الانياني" وهو كتاب الأدعية والصلوات المندائية، وكتاب "دراشة اد يهيا" وهو مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا (ع)، بالإضافة إلى ترجمة الرحلة الأسطورية للمندائيين المسماة "حرّان كويث (حران الداخلية).

ويصدر اليوم في العراق والعالم أكثر من مطبوع دوري يقف في مقدمتها مجلة (آفاق مندائية) الرصينة بموضوعاتها والمتنوعة في طروحاتها، بالإضافة إلى مجلة "هيمنوثا" الدورية – رغم تلكؤها لفترات – ومجلة الصابئي التي يصدرها أبناء الطائفة في محافظة ذي قار. كما أن هناك أكثر من خمسة مواقع مهمة على الإنترنيت باللغة العربية توفر المعلومات والتواصل مع أبناء الطائفة.

ثانيا: العلماء والباحثون الغربيون:

لقد تعرف الغرب على الصابئة من خلال المبشرين الذين قدموا إلى البصرة في القرن السادس عشر. وكان مبشرو اورموز الجيسويتي - وهم من المبشرين البرتغاليين - قد قدموا إلى الخليج العربي في تلك الفترة، فكانت أول إشارة لالتقائهم بالصابئة في التقرير الذي صدر عام ١٥٥٥ م[١]. لقد اعتقد المبشرون أن هؤلاء القوم - الصابئة - ينتمون إلى فرقة يوحنا المعمدان المسيحية، ومنذ ذلك الحين بقي المندائيون حتى وقت قريب يقدمون أنفسهم للأجانب على أنهم مرتبطون أو موالون ليوحنا المعمدان الذي له دورمهم في الأدب الديني المندائي[٢]. إن تقرير المبشرين البرتغالين يشير إلى أن هذه الطائفة هي طائفة مسيحية لكنها غير تامة المسيحية، فقد ألمح هذا التقرير إلى أن القديس يوحنا كان قد بشرعلى هذه الأرض، وفي هذا خلط واضح بين القديس يوحنا ويوحنا المعمدان الذي يمجده الصابئة كأحد قديسيهم. بيد أن رسالة تالية من (غوا) المستعمرة البرتغالية في الهند صححت هذا الخلط، إذ جاء فيها " أن هنالك عدد كبير من المسيحيين الذين يتبعون يوحنا المعمدان"[٣]. ثم تلتها رسالة أخرى في عام ١٦١٥ مشيرة إليهم كطائفة مستقلة. وفي عام ١٦٢٢ أشار الرحالة الإيطالي (Diluglio) (ديلو غليو) إلى أن هذه الطائفة تعرف بـ "المنداي" أو "صابي"، ودعاهم اغناطيوس - وهو من المبشرين الكاثوليك- بأتباع يوحنا المعمدان و بالـ" مندائيا". وقد ظل هذا الخلط في التسميات والأوصاف قائمًا حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، إذ كان الباحثون يخلطون بينهم وبين السبأيين في جنوب اليمن للتقارب بين لفظتي (الصابئيين) و(السبأيين) حينما يكتبان بالحروف اللاتينية، كما وأثارت التسميات العامية التي

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٣٢.

(٢) س. كوندوز، مصدر سابق، ص٣٣.

(٣) هذه المعلومات استقاها عزيز سباهي من مصادر مختلفة اهمها

(*) savend Age pallis, Essay on Mandaen, Bibliography 1560 – 1930 , Phil press Amsterdam , 1974.

(*) Edwin,yamauchi, The present status of Mandaean studies . Journal of Near Estern studies.

تطلق عليهم مثل الصبُّة والصبَة والصابئة والداي والمنداي والمندايي بعض الارتباك في دوائر البحث.

وقد امتد هذا الخلط ليشمل تلك التسميات التي ترد في كتبهم: "الناصروثا" و"الناصورائيي" فقد عزى البعض ذلك بإرجاعهم إلى مدينة الناصرة. وخلط البعض الآخر بينهم وبين النصيريين – وهي فرقة من غلاة الشيعة في بلاد الشام – رغم أن الناصورائي في اللغة المندائية تعني شيئا آخر تماما، فمعناها هو الكاهن الذي يمتلك المعرفة الحقيقية بالدين أو الضليع بمعارفه الدينية.

ومنذ ذلك الحين – أي منذ القرن السابع عشر – تزايدت الإشارات إلى الصابئة، ومع تزايدها بدأ الباحثون يولون دراسة معتقدات هذه الطائفة اهتمامًا أكبر. ففي ذلك القرن تحديدا وصل أوربا (٥٢) تقريرًا عنهم. وفي القرن التالي ارتفع العدد إلى (٧٤) تقريرًا. وقد حفزت الأخطاء التي وقع فيها الرحالة بشأنهم الباحثين على ترجمة كتبهم. ففي عام (١٦٦٠) نشر الماروني (ايخيلينس) مقتبسات من بعض كتبهم ترجمها بمساعدة صابئي كان قد اعتنق المسيحية وسكن روما[١]. ثم تتابعت التراجم، ولكن غالبا ما كانت تعوزها الدقة، وأبرزها ترجمة قام بها الباحث السويدي (م. نورمبيرغ) للـ "كنزا ربّا" الكتاب المقدس الرئيسي للطائفة عام (١٨١٦). وفي عام (١٨٦٧) نشر (بيترمان) ترجمة جديدة للـ" كنزا ربا "، بيد أن الترجمتين معا لم تخلوا من الأخطاء.

ثم توالت التراجم، فترجم (ايتنغ) كتاب ترانيم الزواج المندائية " قلستا ". ونشر عالم اللغات السامية (نولدكة) كتابا عن قواعد اللغة المندائية في عام (١٨٧٥). وجاءت الخطوة الحاسمة في إرساء الأسس العلمية الرصينة في دراسة المندائية على يد (ولهلم براندت (Brandt)) في مؤلفه الدين المندائي (١٨٨٩)م، وعلى يد ليدزبارسكي (Lidzbarski) في ترجمة وإعداد طبعات نقدية لأهم كتب المندائية "دراشة اد يهيا " (١٩٠٥) والـ " كنزا ربّا " ١٩٢٥م[٢]

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥.

ولقد نشر في أوربا بين عـامي (١٩٣٠-١٩٦٠) (١٤٢) (مائـة واثنـان وأربعون) مؤلفا في حقل الدراسات المندائية. (٦٦) منها في ألمانيـا، و(٢٤) فـي بريطانيا، و(١٥) في فرنسا، و(٩) في إيطاليا، و(١٦) في اسكندنافيا، بالإضـافة إلى مقالات وبحوث متنوعة نشرت في أمريكا[1].

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أن أشهر المختصين والمهتمين في هذا الحقـل من الدراسات كانت السيدة (دراوور)، ولها الكثير من المؤلفـات فـي موضـوع الصابئة، كما أنها قامت بترجمة العديد من الكتب المندائية إلى اللغـة الإنكليزيـة. وتوجد الآن في مكتبة بودلين في اكسفورد مجموعة السيدة (دراوور) التي تحتـوي على ست وخمسين مخطوطة مندائية. ومن المختصين بدراسـة المندائيـة أيـضًا الباحث (رودولف ماكوخ) الذي اشترك مع (دراوور) في تأليف القاموس المندائي، ومن الكتب الحديثة في موضوع المندائية كتاب (كورت رودولف) الذي نشر فـي لايدن عام (١٩٧٨م) وعنوانه (المندائية) [2].

ومن ذلك بمكننا أن نرى، أن الدراسات الغربية في موضوع المندائيـة قـد انصبت في البداية على مجموعة دينية يعتقد أنها فرقة مسيحية ناقصة أو مارقة، إذ كانت الدراسات المبكرة منها مدفوعة بدافع التبشير، حتى جاءت دراسـات القـرن التاسع عشر في ألمانيا بالذات لتشكل نشاطًا فلسفيًا كـان بمثابـة مقدمـة للتحـول السياسي الذي حدث في النصف الثاني من القرن نفسه.

إن فلاسفة البرجوازية الراديكالية الذين عرفوا باسم الهيغيلين الشباب وجهوا نقدهم نحو الدين كمدخل للنضال ضد الإقطاعية ودولتها والكنيسة التـي سـاندتها، وكان باكورة هذا النشاط كتاب فردريك شتراوس "حياة يسوع" ١٨٣٥م، وقد ركـز هذا التيار نشاطه على دراسة التيارات الفكرية - في العهـد الـذي نـشأت فيـه المسيحية - دراسة نقدية وبروح جديدة لا تلزم نفسها بما إلتزم به التيـار الكنـسي الرسمي، واتجهت الأنظار نحو الغنوصية وما تركته من آثـار علـى المـسيحية

(١) ناجية مراني، مفاهيم صابئية مندائية (تاريخ، دين لغة)، بغداد ١٩٨١، طبعة شركة التايمس، ص٦.
(٢) ناجية مراني، مصدر سابق، ص٧.

الأولى، لا على أساس ما وصفت به على أيدي آباء الكنيسة، وإنما على أساس الشواهد التاريخية[1]. وبالتالي فنحن نرى أن الدراسات الغربية التي تناولت المندائية كانت في البداية مدفوعة بدافع التبشير المسيحي، ثم تناولت المندائية كجزء من دراسة القرون الأولى لبدايات المسيحية الذي انصب على دراسة الغنوصية. ويمكننا أن نقول بحق إن الدراسات المندائية كانت تعاني- رغم كل شيء - من جانب استشراقي غير عميق أو غير دقيق حتى جاءت دراسات السيدة (دراوور) - التي عاشت في العراق ما يناهز الربع قرن - فاستهوتها في البداية دراسة مخلفات الأديان القديمة في الشرق الأوسط، لكنها انصرفت بعد ذلك بكليتها لدراسة المندائية والتخصص فيها. ورغم أن السيدة (دراوور) لم تكن أكاديمية، إلا أن دراستها كانت على درجة عالية من العلمية والموضوعية وكانت قريبة جدًا من المنهج الأنثروبولوجي، إذ أنها استخدمت طريقة الملاحظة بالمشاركة، حتى أنها كانت تشارك في أداء بعض الطقوس لكيما تفهمها وتدركها، وقد استطاعت أن تكسب ودّ أفراد الطائفة ورجال الدين وتنال ثقتهم، حتى باحوا لها بالكثير من أسرارهم الدينية، بما فيها تلك التي يحجبونها عن عامة الطائفة.

إن الدراسات الأخرى التي تناولت المندائية تناولتها من جانب أصل الديانة وحاولت ربط أصولها بطوائف وأديان مختلفة، وحاولت الوصول إلى حسم في نقاش الأصل الشرقي أو الغربي للطائفة، وعملت على فك أسرار علاقة صابئة حران بالمندائية، ومحاولة معرفة من هم صابئة القرآن. أما دراسة المندائية دراسة أنثروبولوجية فلم يتم إلا على يد السيدة (دراوور)، وهي دراسة قديمة أنجزت في الثلاثينات من القرن المنصرم، ولذا فقد أصبح من الواجب جدا بحث التغير الذي طرأ على الطائفة وصار من المهم بمكان الخوض في هذا الغمار.

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٣٥.

المبحث الثالث

موقع الصابئة من الأجناس البشرية

يذهب الكثير من الباحثين إلى القول بأن طائفة الصابئة المندائيين هم طائفة دينية، وليس هناك أي مؤشرات على كونها مجموعة عرقية أو أقلية إثنية، وسنناقش ذلك في هذا المبحث، لنرى مدى الصواب والخطأ فيه ؟

وكما أشرنا سابقا، فإن كتب الصائبة التي تتناول تاريخ الطائفة فيها خلط كبير من الناحية التاريخية، إذ يصطف الجزء الأسطوري إلى جانب الديني إلى جانب السرد التاريخي والقصصي في الكتب الدينية التي يعتقد الكثير من أساتذة المندائية أن نسخها قد تعرضت عبر التاريخ لتغييرات الناسخين.

لقد اعتبر الباحثون أن اللغة المندائية هي فرع من فروع اللغة الآرامية (وهي من مجموعة اللغات السامية)، فمن هم الآراميون؟

قبل أن يسمى الآراميون بهذا الاسم كانوا قبائل من الرحل في بادية شمال الجزيرة العربية. وكانوا - كسائر البدو من قبلهم ومن بعدهم - يهاجمون من وقت إلى آخر أراضي جيرانهم النائية في بلاد بابل وسوريا بهدف امتلاكها، وقبل أن ينتصف الألف الثاني ق. م كانت هذه القبائل قد سكنت ضفاف وادي الفرات الأوسط حيث نشأت قوميتها ولغتها. ويمكن الاعتقاد بأن الآرامية أتت من لهجة سامية غربية كانت مستعملة في الشمال الغربي لبلاد الرافدين في النصف الأول للألف الثاني، ولم يكتسبوا اسمهم (الآراميين) حتى أيام (تغلات فلاسر الأول) نحو ١١٠٠ ق. م، حين أقاموا في منطقة الفرات الأوسط حتى سوريا في الغرب. وكانت الهجمات الخاطفة في أوائل القرن السادس عشر (ق. م) على بابل وشمال سوريا هي التي فتحت الأبواب كما يبدو في وجه الحركة الآرامية، وأعطت القادمين الجدد من الصحراء محطًا ثابتًا في تلك المنطقة(١).

---

(١) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد، عبد المنعم رافق، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، دار الثقافة بيروت ١٩٥٨، ص١٧٤ وما بعدها.

أما اللغة الآرامية – التي تعد المندائية إحدى لهجاتها – فقد لعب التجار الآراميون دورًا مهمًا في نشرها منذ أول عهدهم في مختلف البلدان، وتعد هذه اللغة فرعا من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية. وفي نحو عام ٥٠٠ق.م أصبحت الآرامية، التي كانت اللغة التجارية لإحدى الجماعات السورية هي اللغة العامة للتجارة والحضارة والحكومة في بلاد الهلال الخصيب كلها، بل وتعدت ذلك لتصبح اللغة التي يستعملها سكان تلك البلاد في كلامهم، وأصبحت لغة المسيح وشعبه. ومن الجدير بالذكر أن أقدم لقية أثرية مكتوبة بالآرامية وجدت مخطوطة بحروف لاتينية مشوهة على جدار مسكن ربما كان مكانا للعبادة في بومبي ويعتقد أن تأريخها يعود إلى ما قبل عام ٧٩م.

إن من أهم المصادر الصابئية – التي تروي القليل عن حياتهم – ما وجد في كتاب "كنزا ربا". وقد ذكر فيه أنهم خروجوا مع قوم فرعون "برخ ملكا" وتعقبوا اليهود الفارّين مع موسى، إذ غرق قسم منهم في البحر، وسافر الناجون منهم شمالاً وسكنوا أعالي "فرات زيوا" (الفرات النوراني). وفي كتاب آخر من الكتب المندائية الدينية وهو "ديوان حرّان كويثه"، نقرأ تعرض المندائيين إلى اضطهاد يهودي، حين كان المندائيون يسكنون القدس وتعرضوا لمجازر من قبل اليهود، مما دفعهم إلى الهجرة نحو الشمال حيث التحقوا بإخوان لهم يسكنون جبال ميديا "طور اد ميديا". وفي حرّان تحديدًا استقروا، وكان ذلك قبل المسيح بحوالي قرن أو أكثر بقليل. ثم يعود كتاب "حران كويثه" فيذكر شيئًا عن ميلاد يحيى (ع)، وأخذ الطفل وإرساله إلى الشمال، ومن ثم عودته بعد أن بلغ الحادية والعشرين إلى أورشليم بصحبة أحد الملائكة "أنش اثرا " الذي رعاه من الاعتداءات اليهودية، ثم يذكر بعد وفاة يحيى بحوالي سبعين سنة أن اليهود أعادوا عداءهم للباقين من الصابئة المندائيين، وهاجموهم مهاجمة قاسية، فهجر الصابئة على إثرها أورشليم والتقوا بإخوانهم في

الشمال والشرق[1]. وسكنوا بغداد حيث كانت هناك قرية تعرف بهذا الاسم قبل بناء مدينة بغداد كما يذكر في بعض كتب الصابئة، كما سكنوا في أرض ميسان و"كـرة سيانه" أي نهر الكرخة في الاحواز حتى شيشتر ودسبول في إيران، وكان ذلك في حوالي القرن الثاني الميلادي.

وإذا أردنا أن نحدد المواصفات الجسدية للطائفة، فأن دراسة (هنـري فيلـد) هي المرجع في ذلك. ففي أوائل الحكم الوطني في العـراق اسـتدعت الحكومـة العراقية خبيرًا في الأنثروبولوجيا هو الأستاذ (هنري فيلد) لدراسة أجنـاس سـكان العراق على اختلاف أديانهم وأصولهم ومواطنهم من الشمال إلى الجنـوب، وقـد تناول من جملة ما تناول بالبحث أبناء طائفة الـصابئة. كـذلك وصـفتهم أسـتاذة المندائية الليدي دراوور التي عاشت بينهم على مدى ربع قرن، فوصـفت الطبقـة العليا بأنها تتمتع بصفات مختلفة ومتميزة عن عامة الصابئة، وقد عنت بـ (الطبقة العليا) أولئك الصابئيين الذين انحدروا من أسر كهنوتية تتشدد كثيـرًا فـي نقـاوة النسب، وتبحث عن السلامة التامة عند الزواج. وقد قسمت الأسر الكهنوتيـة إلـى نوعين متميزين، الأول قوي أسمر اللون ذو عيون سود، والآخر طويـل أبـيض البشرة أو برونزيها قليلاً، بنسبة من العيون الزرق المائلة إلى السواد تبلغ ثلاثة في كل اثنتي عشرة. أما الصابئون الفقراء سكان الأهوار في العـراق وفـي جنـوب إيران، فهم أقتم بشرة وأضأل أجسامًا من الفئة الكهنوتية - ذات الأجـسام الـسليمة بصورة عامة - وعلى العموم فأن القوة والجمال والأنف الكبير الطويـل الأقنـى هي السمات المميزة للفرد المندائي[2].

أما (هنري فيلد) فيقول، إن لون البشرة يتراوح من الوسط الفـاتح (أوربـا الشمالية) إلى الأسمر النحاسي، وعلى وجه العموم، فإن الصابئة أكـشف أو أفـتح لونًا من سكان أواسط وجنوب العراق. وهناك عدد من الـصابئة قـد تـأثر لـون

---

(١) غضبان رومي ، الصابئة، مطبعة الامة بغداد، ١٩٨٣م، ص١٦-١٧.

(٢) الليدي دراوور، الصابئة المندائييون، ترجمة نعيم بدوي، غضبان رومـي، الطبعـة الثانيـة، مطبعـة الديوان، بغداد، ١٩٨٧م، ص٤٠.

بشرتهم بالمناخ وباتوا يشبهون سكان الأهوار المجاورين لهم. ويتميز شعرهم عن غيرهم بلونه الأسود الفاحم إلى البني، ويمتلك الفرد الصابئي شعرًا خفيفًا ومن النادر أن تشاهد بينهم شعرًا رماديًا قبل الأربعين، كما أن (فيلد) لاحظ أنهم يحتفظون بلحى مرسلة نتيجة لتقاليد دينية، كما اتسم قسم منهم بلحى حمراء.

أما عيونهم فتعتبر غامرةً شهلاً، كما أن عيون بعضهم سود غير غامقة، وبينهم عدد بعيون زرق أو خضر، وعلى العموم، فالعيون الصابئية جميلة وممتازة، وذلك يعود لكثرة تناولهم الأسماك، وقد شاهد (فيلد) بينهم جماعة من البصيرين والعور، وقد اعتقد أن سبب ذلك يعود إلى طبيعة مهنهم اليدوية وعلى الأخص الصياغة.

أما فيما يخص الأنف فكان حوالي ٣٠% منهم أصحاب أنوف محدودبة وهذه الصفة تنتشر بمقياس واسع بين أجناس سكان جنوب غرب آسيا، وقد لاحظ أيضًا جنسين مختلفين من الأنوف، فقد امتلك قسم قليل منهم أنوفًا مستقيمة رفيعة المؤخرة، وحوالي ١٠% منهم امتلك أنوفا مفلطحة، مع العلم بأنهم ليسوا زنوجًا. ومع هذا فان السائد بينهم أنهم يمتلكون أنوفًا كبيرة مستقيمة عند الكبر.

أما شكل الفم والأسنان؛ فأن الشفاه طبيعية المقلب، وتشبه أسنانهم إلى حد بعيد الأسنان الأوربية في انطباقها. وعلى العموم فإن أسنانهم جميلة وبحالة جيدة.

وقد لاحظ (هنري فيلد) أن صحة معظمهم جيدة وذلك وفقا للتقارير المستحصلة من الدوائر الصحية. أما الأمراض، فتنحصر إلى حد كبير بالجدري وحبة بغداد وحب الشباب وأمراض الديدان المعوية وغيرها من الأمراض التي تنتشر في العراق.

والنساء الصابئيات يمتلكن هيئات أكثر جمالاً من جاراتهن، وبعض الفتيات جذّابات وجميلات في أشكالهن. وتتميز المرأة المندائية عموما بشعر أسود فاحم مع تموجات قليلة، وعيون شهل وأنف مستقيم أو محدودب، وثمة كثيرات منهن بحالة

جيدة وجميلة. كما أنهن متوسطات الطول، وهناك قصر في أرجلهن مع ضيق في جباههن، إلا أن رؤوسهن عريضة[1].

من ذلك نستطيع القول: بما أن التبشير في الدين المندائي غير موجود منذ أكثر من الف وخمسمائة سنة، وأن الفرد المندائي يجب أن يكون من والدين مندائيين، لذلك فإن الصفات الجسدية تكون مغلقة ضمن الطائفة المنغلقة على نفسها وبالتالي تكون هذه الأقلية أقلية (عرقية - دينية).

---

(١) كل المعلومات المتعلقة بتقرير د. (هنري فيلد) اخذناها من كتاب غضبان رومي، الصابئة مطبعة الامة، بغداد، ١٩٨٣، ص٤١-٤٢.

الفصل الثالث

النسق الديني ـ المفاهيم

المبحث الأول: المعتقد والمنظار الكوني

١. الخالق.

٢. الخليقة (الكواكب، الأرض، البشر)

المبحث الثاني: المقدسون.

١. الملائكة.

٢. الأنبياء.

٣. الكتب المقدسة.

٤. الهيئة الكهنوتية.

المبحث الأول

المعتقد والمنظار الكوني

في البدء لا بد من الإشارة إلى أن البحث في النسق الديني لطائفة الصابئة المندائيين تعتريه الصعوبات لأسباب عدة، ربما كان أهمها الفترة الزمنية الطويلة التي مرت على بدء ونشوء هذا الدين، فإن هذا القدم يعني التراكم في الأسطورة والمفهوم والطقس، بالإضافة إلى ذلك مرور الكثير من فترات الاضطهاد وعدم التسامح، مما دفع بأبناء الطائفة إلى الاختباء وعدم الحرية في ممارسة طقوس عبادتهم، ومما أدي بدوره إلى نقل الموروث الديني من أدب وتعاليم وطقوس بشكل شفاهي. وكان لهذا – بالتأكيد – تغيرات وتشوش فيما ينقل، إلى أن حان زمن التدوين فظهرت الاختلافات والاجتهادات في الفهم(١). وهذا ما نراه جليًا في الكتب الدينية المندائية، إذ أنها دونت في فترات زمنية مختلفة ولم تكن عمليات التدوين تخلو من أخطاء النساخ في فترات تكون فيها إمكانية التعليم الديني محدودة.

كما وتجدر الإشارة هنا إلى نقطة مهمة، وهي إننا في العلوم الاجتماعية لا نتعامل مع الأنساق الدينية على أنها كتلة تاريخية واحدة وجدت في زمن واحد. لأن هذه الكتلة لم تنبثق فجأة أو دون ممهدات تاريخية في المجتمعات التي تظهر فيها، وإنما سبقتها تفاعلات عميقة في حياة هذه المجتمعات مهدت لتبلورها ولإيجاد الأرضية الاجتماعية والثقافية الضرورية لتقبلها. كما أن الأديان التي زالت لم تُخلِ مسرح الحياة فجأة دون أن تخلف وراءها أية آثار، ويمكن للباحث أن يعثر بسهولة على مثل هذه الآثار في الممارسات والطقوس والمفاهيم لدى الناس.

ومن صعوبات البحث في النسق الديني المندائي كونه أثّر وتأثّر بكل الأديان الموجودة في الشرق الأوسط، فنجد فيه عناصر يهودية ومسيحية وبابلية

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٧٢.

وزرادشتية وإسلامية. كما أن هناك تأثيرات للفلسفة اليونانية الهلنستية في نموذجها الغنوصي الشرقي المسيحي، لذلك نحتاج إلى عمليات حفر في الطبقات المعرفية المكونة للأغلفة التي تحيط بنواة الديانة المندائية الموحدة. وسنتناول فيما يلي المفهومين الرئيسيين في مبحث المعتقد والمنظار الكوني: -

١. **الخالق:** يفتتح الكتاب المقدس للطائفة (صحف آدم) "الكنزاربا – اليمين" في أول "بوثه" (البوثة هي السورة أو الإصحاح، وفي طبعة بغداد التي اعتمدناها سميت بالكتاب)، وهي "الكتاب الأول"، التسبيح الأول: التوحيد لنقرأ في مطلعها صفات الخالق لدى المندائيين وكما يلي:

باسم الحي العظيم(*)

مُسبّح ربي بقلب نقي.

هو الحي العظيم، البصير القدير العليم، العزيز، الحكيم، هو الأزلي القديم، الغريب عن أكوان النور، الغني عن أكوان النور، وهو القول والسمع والبصر، الشفاء والظفر والقوة والثبات، هو الحي العظيم، مسرة القلب، وغفران الخطايا.

مُسبّح ربي بقلب نقي.

يا رب الأكوان جميعًا. . مُسبّح أنت، مبارك، ممجد، معظم، موقر، قيوم، العظيم السامي، ملك النور السامي، الحنان التواب الرؤوف الرحيم، الحي العظيم لا حد لبهائه، ولا مدى لضيائه، المنتشرة قوته، العظيمة قدرته، هو العظيم الذي لا يُرى ولا يحد، لا شريك له في سلطانه، ولا صاحب له في صولجانه

والحي مزكى(١)**

---

(١) كنزاربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، قسم اليمين، الكتاب الاول، التسبيح الاول، التوحيد، ص١، طبعة بغداد، الطبعة الثالثة ٢٠٠١م.

*فاتحة "البواثا" (الاصحاحات) تبدأ بجملة باسم الحي العظيم.

** خاتمة" البواثا "(الاصحاحات) تختم بجملة والحي مزكى.

وللإجابة على سؤال ما هو الخالق؟ وكيف تم الخلق؟ ولإعطاء تصوّر عن المنظار الكوني لدى المندائيين، يمكننا القول إن أول ما نواجهه في الكتب المقدسة هو الحديث عن الخلق الأول الذي كان بأمر من (الحي العظيم)، ويوصف بأنه "نطق" أو "نادى" أي أن الخلق كان بالكلمة ويسمى بالمندائية "هوابميمرا" أي (الخلق بالكلمة)، وهناك العديد من النصوص التي تشير بوضوح إلى ذلك، نذكر منها مثلاً "بميمرخ هوا كل مندام"، (بكلمتك أيها الحي العظيم خلق كل شيء)، وفي نص آخر يشار إلى خلق الأرواح أو الكائنات النورانية: (بكلمة من الحي العظيم خلق "إثري")، والإثري درجة سامية من الملائكة مفردها "إثر" سناتي على ذكرها تفصيلاً في فقرة قادمة.

ورغم إشارات الكتب المقدسة المندائية إلى قدرات "الإثري"- إذ تمتلك قدرات خلق ممنوحة من "الاها" (الإله) أو (الحي العظيم) - إلا أننا نقرأ دائما التاكيد على التوحيد في "كنزا ربا":

ليس له أب يكبره أو أقدم منه

ولا مولود كان قبله ولا أخ يقاسمه الملكوت، ولا توأم يشاركه الملك، مسبّح ومبارك، أنت إلهي في كل وقت وإلى الأبد. . أنت منذ البدء وباق لما لا نهاية[1]

ونستطيع القول إن الصابئة المندائيين يعتقدون بوجود (الله) العظيم المتعالي الذي يطلقون عليه الأسماء والصفات مثل (الحي) أو (الحياة) "هيي" والحي العظيم "هيي ربي"، العقل الأعظم "مانا ربا"، ملك الأنوار "ملكا اد نهورا"، كذلك يعتقدون بأن (الحي العظيم) محاط بعدد لا يحصى من الكائنات الروحانية النورانية هم الـ "إثري"، وأن هذا العالم من الكائنات الروحانية قد انبعث من الذات العليا للإله، وهو أول مراحل الخلق، وأن هذه المرحلة تامة كاملة لا وجود للخطأ فيها تمت

(١) كنزاربا، الكنز العظيم، الكتاب المقدس للصابئة المندائيين، قسم اليمين، الكتاب الأول، التسبيح الأول، التوحيد، ص٥.

بـــ (كلمة الله)، ثم أعقبتها المرحلة الثانية ثم المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة، إلا أن هذه المراحل التي انتهت بخلق العالم الأرضي الفاني "تيبل"، حـــدث فيها زلـــل أو خطأ لأنها تمت بقدرة الله، إلا أن من نفذ الأمر هم "الإثريون"(١). وكذلك يـــؤمن المندائي بيوم الحساب أو يوم القيامة، اذ يحاسب الإنسان عمّا جنت يـــداه فتكـــون الجنة أو دار الحق "مشوني كشـــطا" من نصيب الصالحين، وتكون النار الموقـــدة من نصيب الأشرار.

وفي "مشوني كشطا" يوجد النظير "دموثا" أو النموذج أو القـــرين النـــوراني لكل شيء في الحياة الفانية، وأن "نشـــمثا" النفس أو الروح بعد تحررها من الجسد الفاني "بغرا"، تسعى للاتحاد بنظريها في عالم الحق، وهذا ما سنتناوله في الفقرات القادمة.

٢. الخليقة (الإنسان، الأرض، الكواكب):

تأتي قضية الخلق بعد موضوع التوحيد مباشرة في كتاب الطائفـــة المقـــدس "كنزا ربا –اليمين"، ففي "البوثة" الثانية يطرح موضوع الخلق والتكوين.

إن موضوع الخلق موضوع معقد ومتداخل بشكل كبيـــر اذ يـــصعب معـــه البحث إلا بتأنٍ شديد، لأن الأدب الديني المندائي لا يقدم عرضًا واحـــدًا متجانـــسا لقصة الخلق، وإنما هناك عروضًا عديدة قد تتباين فيما بينها إلـــى حـــد التعـــارض أحيانًا، وعلى الباحث أن يتوقع اختلافات في الأسماء والأدوار وســـير الأحـــداث. وهذا لا يحدث بين كتابين وحسب، وإنما في المؤلف الواحد ذاته، وهو كما أشـــرنا ربما عائد إلى تأثير فترة الرواية الشفهية الطويلة، وإلى أن الأدب المنـــدائي فـــي صورته التي وصلتنا لم يوضع ويدوّن مرة واحدة، وإنما كانت تضاف إليـــه مـــع الأيام مزيدًا من التراتيل والأدعية. فالكثير من النصوص التي نقرأها اليوم، كتبهـــا في صورة تراتيل شعرية بعض رجال الدين في أزمان مختلفـــة، وعكـــسوا فيهـــا

---

(١) ناجية مراني، مصدر سابق، ص٩٨.

فهمهم وتصوراتهم الخاصة لمسألة الخلق وأصل الكون دون أن يراعوا تمامًا البناء الأولى للميثولوجيا الدينية(١).

وفي التعاطي مع قصة الخلق لابد من الإشارة إلى وجود عالمين منفصلين ومتعاديين، هما عالم النور "الما اد نهورا" وعالم الظلام "الما اد هشوخا"، ورغم العداء والقتال بين الاثنين إلا أن هناك بعض الصلات بينهما، سنأتي على ذكرها لاحقًا.

إن صورة الصراع بين عالم النور وعالم الظلام فيها بعض من الصفات الثنوية، ولكن يجب أن نعرف أن الخالق (الحي العظيم) مترفع عن هذه العوالم، ومن إرادته وبكلمته وبفيض منه خلق (نادى) الحياة الأولى. ثم بدعاء من الحياة الأولى وبكلمة من الحي العظيم خَلَقَت الحياة الأولى حياةً ثانيةً "يوشامن"، وبالطريقة نفسها أي بطلب من المرحلة اللاحقة أو بدعاء منها إلى الحي العظيم وبقدرته وبكلمته تُخلق مرحلة ثالثة ثم رابعة، كان كل ذلك قد حدث في عالم النور.

إن الحيوات أو مراحل الحياة الأربع شرحتها الكتب المقدسة بالتفصيل، ويمكن أن نوجز ذلك من كتاب "سيدرا اد نشماثا" البوثة الأولى:

لقد نطق وتكلم ملك النور السامي العظيم

إن قِدَم الحياة الأولى عن تكوّن ووجود الحياة الثانية [ستة الاف روبان*]

وقِدَم الحياة الثانية عن تكوّن ووجود الحياة الثالثة [ستة الاف روبان].

وقِدَم الحياة الثالثة عن تكوّن ووجود أي إثري [ستة الاف روبان].**

وقِدَم وتكوّن أي إثري عن كل ما هو مادي (أرضي وفان) وعن تكوّن (السبعة أسياد البيت المادي)- المقصود الكواكب - هو [سبعة آلاف وسبعمائة روبان]. (٢)

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٧٢.

(٢) ماجد فندي المباركي، دراسات مندائية - تاريخ ومعتقدات، سدني ٢٠٠٠م، ص١٠٩

(*) روبان = ١٠٠,٠٠٠ سنة ارضية.

وقد أشارت النصوص الدينية بشكل مفصل ومطول إلى ماهية كل حياة وأهميتها وما جرى عليها، ووصفت ذلك وصفًا دقيقًا وفريدًا في الوقت نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن الأدب الديني المندائي اعتبر الحياة الأولى قد امتازت بالكمال، وأن عالمها كان مرتّبا شديد النظام، وكان بهيجًا وواسعًا ولا يمكن أن يضاهيه أي عالم في نوره وقوته، ولا يمكن أن تنشأ حياة أجمل مما هي في الحياة الأولى.

أما ما يخص تكوّن الحيوات الأخرى، فيمكننا القول بأن نشوء الحياة الثانية وما نتج عنها من توسع في التكوين وعدم استقرار وثبات ونقص وخلل أصاب النظام فيها، أدى بها أن تفتقر إلى الكمال، ومنها نشأ الخطأ وعدم الدقة في الأعمال -علمًا أن هذا الخطأ مردود على الأثري وليس على الحي العظيم لأنه منزّه عن الخطأ - ونجد أن الحياة الثالثة والرابعة كانتا تسيران أكثر فأكثر باتجاه التدني، وأصبحت أعمال الخلق غير ناضجة أو غير مكتملة تمامًا، وقد شاب بناؤها ووجودها النقص وعدم الترتيب(1).

إن قصة الخلق المندائية ذات الرمزية العالية تقترب إلى حد بعيد من النظريات الحديثة في تكون الكون، وفيما يلي إيجاز لقصة خلق الحيوات:

يُصوّر التكوين الأول بأنه كان (كالثمرة)، وهذه الثمرة كانت في داخل (ثمرة) أخرى عظيمة، وكانت الثمرة الأخيرة ذات كتلة متعاظمة ممتلئة محتدمة المحتوى، تضم عناصر فريدة كثيرة ومتنوعة (ليس لها مثيل في دقتها)، وأن تلك الثمرة تمثل الرحم الكوني العظيم الذي ضم عناصر النشوء الأول. وذُكِر - في الكتاب المقدس - أن (الثمرة) تُشَبه أحيانًا بـ "الهلبونا" أو البيضة، أي المستقر والمسكن السماوي الذي يحافظ على داخله بواسطة غلاف سميك إلى حين نضوج محتواه، فيتبلور عن حياة جديدة تعيد بدورها هي الأخرى دورة الحياة من جديد(2).

** الاثري = درجة عالية من الملائكة وسنأتي على تفصيل ذلك في مبحث المقدسون.

(1) كنزا ربا- يمين الكتاب الثالث، التسبيح الأول ص41 وما بعدها.

(2) ماجد فندي المباركي ، مصدر سابق، ص103

الثمر داخل الثمر

والأثير داخل الأثير

ويردنا العظيم صار من يورا العظيم

من يورا العظيم المنتشرة أضواؤه، صار يردنا والماء الحي الذي منه بدأت الحياة، من يردنا العظيم بدأت الحياة، وقومت نفسها مثيلاً لمانا العظيم الذي منه انبثقت ومنه طلبها الأول طلبت، فصار الإثري الذي سماه الحي:

الحياة الثانية. . . فكان الإثريون الذين لا عدد لهم ولا حدود(١)

إن ذلك النشوء لم يكن قد اكتمل بعد لأن محتواه مضغوط وهائج وعناصره متباينة، فهو ما يزال ينمو وينضج في ذلك الرحم الكبير أو (الثمرة العظيمة)، ومن بين عناصره؛ مثلاً "بيراط" الثمرة، و "آير" الاثير، و"مانا" الألق الوهاج أو الجوهر، و"كنا" الفراغ أو المكان، و" تنا" البخار الكثيف، و"تطفتا" قطرة التكوين، و"دموثا" النظير أو الشبيه أو النموذج. وقد ظهرت هذه العناصر في أوقات ومراحل متعاقبة استغرقت ملايين السنين الأرضية، ولقد تحرك هذا المحتوى وهاج في تلك الثمرة في ذلك الرحم الكوني بسبب ما حصل من التضاغط والتسخين في "تنا" وهي البخار أو الضباب الكوني المتصاعد الذي انفتح وصب في المنبع العظيم الأول للحياة.

---

(١) كنترابا – اليمين، الكتاب الثالث – التسبيح الأول، ص٤٢-٤٣

والمصطلحات الواردة في هذا النص بحسب ما ذكرت في ملحق الكتاب المقدس هي:

يردنا: الماء الحي، الماء الجاري

يورا: الجوهرة، الألق الوهاج

مانا: عقل، وعاء، وتعني أحياناً النفس، وتأتي بمعنى أحد الإثري ذي مرتبه سامية.

بســم الحي العظــيم

هذا هو السر وكتاب الضياء المتقد في داخل "بهثا"

التي انطلقت بنورها وببهائها الذاتي

هو "مانا" الأول صار فيها ونشأ فيها وسكن فيها.

واعترف بــ "مانا" الذي صار فيها واعترف بالبهاء والضياء اللذين صارا فيها.

وخرج البهاء من "بهثا" وحل النور على "بهثا" وخرج منها

ونادى "تبطا" لذاته بهاء وضياء

اللذين كل منهما يتقد بهاء ويتقد ضياء

سخنت "تنا" فذاب الضياء فيها

وعندما اتــقد الضياء على "تنا" نشأت الينابيع

وأصبح الاتحاد لا نهاية له، صار الاتحاد مع الحياة

فاستقرت (الحياة) داخليًا، وثبتت ذاتها داخل ينابيع المياه[1]

ولإكمال قصة الخلق المندائية لابد وأن نتطرق إلى عــالم الظــلام، فــرغم الوضوح في شرح ماهيته، فقد تناوله بالتوضيح التسبيح الثالث من الكتاب الرابــع عشر من صحــف آدم "كنزا ربا"، إلا أن هناك تشوشًا في كيفية وجوده أو بدئــه. فالنصوص المندائية المقدسة تذكر أن عالم الظلام موجود كوجود عالم النور، لكــن النور أقدم من الظلام وسابق له في الوجود. بيد أن الاختلاف بينهمــا يكمــن فــي العناصر المكونة لهما. فتكوّن الأثير الوهاج في عالم النور قبل الماء الأسود فــي عالم الظلام، والماء الحي قبل الآسن، وشعاع الحرارة الحية قبل شعاع النار الآكلة.

---

(١) كورت رودولف، النشوء والخلق في النصوص المندائية، إعداد وترجمة صــبيح مــدلول الــسهيري، مطبعة الأديب، بغداد ١٩٩٤، ص٢٨، والنص المقدس من الكنزاربا اليمــين متــرجم عــن نــسخة ليدزبارسكي كنزا يمين الجزء ١٠ ص٢٣٩.

ومن ذلك نعلم أن النور قد سبق الظلام في الوجود، لكن ثمة لكل واحد منهما عالمه الخاص به، وهذه الرؤية تطرح صيغًا واضحة للثنوية.

إن الصراع بين عالم النور وعالم الظلام، أو قوى كل عالم، تلعب دورًا مهمًا في قصة الخلق المندائية، وهي موزعة في أجزاء كتاب (صحف آدم) "كنزاربا". ففي الكتاب الثالث والرابع والخامس والرابع عشر، ثمة أجزاء متناثرة من صراع قوى النور وقوى الظلام وقصة الخلق بعامة. وقد ناقشها الباحث عزيز سباهي في كتابه (أصول الصابئة المندائيين)، وقارن قصة الخلق المندائية بقصة الخلق البابلية – ذات الأصل السومري – وهي أسطورة (اينوما ايلتش).

إن قصة الصراع بين قوى الخير وقوى الشر تبتدئ بالشكل الآتي في الأدب الديني المندائي:

واسع وعميق هو المكان الذي يأوي إليه الشر، من يستوطنه لا يبدي الأمان للمنزل الذي يأوي إليه، أبد الآبدين مملكتهم، جاءت إلى الوجود من نفسها، ينبسط تحتها وفوقها ظلام دامس.

وتتحدث الأسطورة عن بشاعة ملك الظلام الذي يتخذ كل أشكال المخلوقات الأرضية، ورغم أنه يتحدث بكل اللغات إلا أنه غبي وأفكاره مشوشة، وهو ذو قوة عظيمة، ثم تواصل الأسطورة وصفه ووصف جبروته:

يستبد بملك الظلام الغرور فيقول: هل هناك من هو أعظم مني، هل هناك من يضاهيني قوةً ؟ إن وجد هذا سأتهيأ لمنازلته وسأُريه من أين تأتي القوة، وإذ يرى من بعيد عالم النور المشرق، يغلي الحقد في قلبه ويقرر إشعال الحرب ضد ملك النور وانتزاع تاجه، وبذلك يصبح ملك الأعالي والأعماق، وإذ لا يعثر على سبيل يوصله إلى السماء يرتفع صراخة فتسمعه عوالم النور(١).

ثم يتحدث ملك النور مطمئنًا الملائكة التي تحيط به قائلا: أن الخيبة هي كل ما سيحصل عليه هذا الشرير.

---

(١) كنزا ربا – يمين، الكتاب الرابع، (صباغة هيبل زيوا)، مصدر سابق، ص٨٤

ونكمل قراءة القصة في الكتاب الرابع "صباغة هيبل زيوا"، فنرى أن ملك النور اختار "هيبل زيوا" الشاب ابن "منداد هيي" (عارف الحي) لكي يرسله إلى عالم الظلام للقضاء على التمرد، ويزوّده بقوة عظيمة من نور وملائكة، ويزوّده براية من النور ليبهر أعين قوى الظلام، ويأخذ منه عهدًا "كشطا"، ويخبره أن "اور" أو "كرون" ابن "الروها" (ملكة الظلام) يسعى ليحارب عالم النور، فيسير "هيبل زيوا" وصحبه نحو عالم الظلام حتى يصلوا إلى "كرون" (جبل اللحم الهائل) ليقول له "هيبل زيوا ": (**بماذا أمرك الحي الأعظم ؟ أترغب في أن تحتل وتخضع السماوات ؟**)، وبعد أن يحبط "هيبل زيوا " قوة " أور " السحرية يقيده بالسلاسل، ويواصل مسيرته نحو "الروها" ، " قين" أو "اناتان" زوجة "كَاف" ملك الظلام، ويقول لها: (**حين جئت إلى الوجود هل كنت أنت ممن يضارعني في المستوى ؟**)، فتستعين "الروها" بعدّتها من السحر التي تكمن فيها كل قوة الظلام ... لكن "هيبل زيوا " يستل منها هذه القوة دون أن تعي ذلك، فلما تفقد "الروها" عدّتها من السحر تصرخ وتولول: (**من هذا الذي عرف اسمي وفهم إشاراتي؟**) فيجيبها "هيبل زيوا" بأنه رسول (الحي العظيم) الذي أمره بأن ينازل أبنها الذي يثير ضجة ضد من هم في عوالم النور، فتنهره "الروها" وتصارعه إلا أنه ينتصر عليها "[1].. إذ ذاك تدرك أن لا حيلة لها مع هذا الجبار فتتذلل له، وينتزع هو منها جواز المرور (الأسماء السرية) فيتمكن من اختراق عوالم الظلام صعودًا إلى السماء دون عائق، وهناك في السماء يجرى له تعميد خاص ليطهّره مما علق به من عوالم الظلام بعد أن عاد مصطحباً معه "بثاهيل" الذي كان محجوزًا هناك، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الملاك "بثاهيل" سيلعب دورًا خاصًا في قصة خلق الإنسان[2]، كما سنرى لاحقا.

وتقول الأسطورة: إن "يوشامن" – وهو من ملائكة الحياة الثانية وله مكانة عالية – قد نادى (خلق أو أنجب) "اباثر" (من الحياة الثالثة)، وإن "اباثر" قد نادى "بثاهيل" (من الحياة الرابعة)، وإن "اباثر" إذ داخله الغرور نادى على ابنه "بثاهيل"

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٧٣

(٢) كنزا ربا-يمين، الكتاب الثالث التسبيح الثاني، (خلق ادم)، مصدر سابق، ص٧٠

ومنحه بركاته، وحفزه على أن يقوم بخلق عالم خاص به. . غير أنه لم يحدثه عن الخصوم ولم يسلحه أو يرشده، فهبط "بثاهيل" إلى مكان لا علم له به وخاض في الوحل والماء العكر، وهناك أحس بأن النور اختفى وراح يسائل نفسه عن سر ذلك، فسمعته الـ "روها" ملكة الظلام، وقالت لملك الظلام انظر ماذا حل بالغريب.. وقالت لابنها "أور" ملك الظلام، انهض ونم مع أمك لتحل عنك قيودك (والإشارة هنا إلى السلاسل التي قيده بها "هيبل زيوا")، فيستجيب لها فتلد منه السبعة الأشرار (والإشارة هنا إلى الكواكب، لأن المندائيين يعتبرونها من قوى الشر)، وتتحدث بعدها الأسطورة عن محاولة "بثاهيل" الفاشلة في خلق الأرض، إذ ذاك تزداد ملكة الظلام "الروها" ضراوة وتضاجع ولدها وتنجب منه اثني عشر وحشًا (إشارة إلى بروج السماء الإثنى عشر)، فيقرر "بثاهيل" ترك الأرض، فتسمعه "الروها " وتقول لنفسها إذن الغريب لا يملك مزيدًا من القوة، إذ ذاك تذهب إلى (مصدر الظلام) وكان وحشًا بلا أيد ولا أرجل، وتدعوه لمضاجعتها وتنجب منه خمسة (مرة أخرى تلد الكواكب دون الشمس والقمر)، ويتوسل "بثاهيل" إلى (الحي العظيم) أن يمنحه حلة من نور ليستطيع خلق الأرض فيُستجاب طلبه، وبفضل اختلاط النور بالماء العكر تتجلد الأرض، وترتفع ستارةً حتى كبد السماء، فيفرح "بثاهيل" ويمسك بسرة الأرض ويحاول ربطها بالسماء، وبعد جهد جهيد يوفق أخيرًا، ويستغل الأشرار فرصة انشغاله لتأخذ البروج الإثنى عشر والكواكب السبع مواقعها في السماء.

ونقرأ في الكتاب الخامس من "كنزا ربا":

(أنا ياور هيبل، مانا النقي. . حين رأيت هؤلاء المسوخ الذين لا يشبهون الجبابرة، آباؤهم في الأكوان السفلى، أردت أن أبيدهم، ثم عدلت قلت ساتركهم يسيرون مسيرة العالم الذي منه ولدوا، ناديتهم فسقطت قلوبهم من مساندها وبكت "الروها" عليهم، قالت هذا قاتل أبيكم. . فضجوا حتى مادت بهم الأرض)

ثم في مقطع آخر، يقول (هيبل زيوا) إلى الكواكب السبعة:

- ماذا ترونني صانعًا بكم ؟

- ما تشاء يا مولانا.

ناديت شامش باسمه وناديت سين، وكيوان وبيل وليبات وانبو و نيرغ[١] ، كلا ناديته باسمه وقلت لهم: سأُجلسكم على عروش تسير، وأُلبسكم أردية تنير، لتضيئوا هذا العالم، أمسكوا بشامش أخيهم الأكبر. . قالوا: ستكون أنت ملكنا وتكون ليبات ملكتنا في العالم. . ونحن كلنا لكما مطيعون.

حين سمعت هذا منهم، أمرت لهم بأثريين اثنين، يقفان حارسين، ويكونان لشامش مساعدين، فأُنيرَ العالم. خرجتُ من جميع تلك العوالم، وغلقتُ ورائي الأسوار بعد أن وضعتهم كلا في مدار، ثم أتاني أمر الله، قال اصنع آدم، أمرت السبعة أن يعينوا بثاهيل على صنع الجسد، وصعدت إلى كنوز الحياة المعظمة، أبلغت أبي "منداد هيي"، فجاء بنشمثا (النفس)، وألقاها على جسد آدم فدبت فيه الحياة، وبأمر الحي صنعت له حواء زوجة، ليتكاثر العالم ويستمر غرسهم فيه، حتى إذا انتهت أعمارهم صعد كل منهم لأبيه[٢] .

ولإعطاء فكرة واضحة عن خلق الإنسان، لا بد من القول إن تكوين الإنسان في النصوص المقدسة المندائية يعود إلى أفكار متعددة ونصوص متنوعة، بالإضافة إلى خلط أو تغيير كبير في القائمين بعملية الخلق من الإثريين أو الملائكة تنفيذًا لأمر الله (الحي العظيم)، وهنا نستطيع أن نقول إن خلق الإنسان لا يحيد بالمندائيين عن فكرة التوحيد، وإن عملية الخلق تمثلت في مرحلتين:

١- خُلق جسم الإنسان بأمر من (الحي العظيم).

---

(١) نلاحظ أن أسماء الكواكب هي الأسماء البابلية نفسها، فشمش السومرية هي الشمس نجدها شامش في المندائية والقمر سين في السومرية وسين بالمندائية والمريخ يمثله في السومرية الإلـه نركال وفي المندائية نيرغ، وعطارد في السومرية (نبو) وفي المندائية انبو، والمشتري في السومرية بيل وفي المندائية بيل، والزهرة في السومرية أنانا وتسمى دلبات وفي المندائية ليبات وزحل في السومرية كوردش وفي المندائية كيوان. خزعل الماجدي، مصدر سابق، ص١٨.

(٢) إن كلمة أبي بين الإثريين لا تعني الأبوة البايولوجية بل تشير إلى تدرج الحيوات حسب الفيض.

٢- نزول "نشمثا" النفس أو الروح في الجسد، وقد حملها الإثريون (الكائنات النورانية) من بيت السر أو من (الحي العظيم) وبأمره، ونزلوا بها وألقوها على الجسد فدبت فيه الحياة.

ويمكن أن نوجز هذه العملية بما يلي:

تشير نصوص (صحف آدم) " الكنزا ربا - اليمين" في الكتاب الثالث، التسبيح الثاني (خلق آدم) بصورة مفصلة إلى هذا الموضوع :

أ- أن "بثاهيل" وملائكة الكواكب قد كوّنوا (جسم آدم) "آدم بغرا" بإيعاز من "أباثر"، وبقدرة الخالق (الحي العظيم) وإرادته، و"بثاهيل" يسمي آدم (ابنًا له) ويعطيه لقب (ملك هذا العالم)، وهو مثيله ومثيل "أباثر".

ب- بعد خلق جسم آدم بدون "نشمثا"، وهي النفس وجمعها "نشماثا" وهي جوهر الحياة، ومصدرها عالم النور، وهي هبة الخالق سبحانه للإنسان، وهذا يعني أن جسد آدم بقي بدون روح أو نفس أو حركة. وتدب فيه الحياة بعد دخول "نشمثا" ولا يتم ذلك إلا عبر الخطوات التالية:

١- يطلب "بثاهيل" المساعدة من أبيه "أباثر" الذي يذهب إلى (المكان الخفي السري)

" أثرا-كسيا " ويجلب "نشمثا" بأمر الخالق (الحي العظيم) وبموافقته.

٢- يعطي "أباثر" "نشمثا" إلى أبنه "بثاهيل".

٣- بعد أن يعطيها إلى "بثاهيل"، ينادي "منداد هيي" (عارف الحي) على المساعدين وهم "هيبل" و"شيتل" و"آنوش" وهم إثريون من درجة عالية (القيمون، الطيبون)، ويطلب "منداد هيي" منهم أن يحموا "نشمثا" لأهميتها وقدسيتها، وأن يتدبروا الأمر بحيث يجعلوا "بثاهيل" لا يعرف كيف تدخل "نشمثا" الجسد، في إشارة إلى درجة"بثاهيل" الواطئة كأثري مقارنة بالإثريين الكبار.

٤- يجب على "إدكاس – مانا" حارس "نشمثا" أو على "منداد هيي" أن يعودا بـــ "نشمثا" ثانيةً بعد الموت إلى موطنها الأصلي (ملكوت الحي).

٥- يقوم "بثاهيل" بلف "نشمثا" برشامته أو بعمامته، ويجلبها (مخفيـــه) إلـــى "تيبل" وهي الأرض الزائلة (أو العالم الأرضي المادي)، يرافقه الإثريون المكلفـــون بحماية "نشمثا".

٦- أن "بثاهيل" لا يرمي بـــ"نشمثا" في جسد آدم، بل إن "منداد هيـــي" هـــو الذي يقوم بذلك.

٧- يصعد "إدكاس زيوا" إلى موطنه بعد دخول "نشمثا" في جسد آدم، وبعـــد أن تكون قوة الحياة قد حلّت في آدم.

٨- ينفذ "منداد هيي" أمر (الحي العظيم) بأن يحمي "نشمثا" من الأشرار، وأن يكشف لآدم المعرفة فيقوم بتعليم آدم المعرفة الحقة المتمثلة في صحف أدم "كنـــزا ربا "وهي – حتى اليوم – الكتاب المقدس للصابئة المندائيين(١).

---

(١) كورت رودولف، إعداد وترجمة د. صبيح مدلول السهيري، النشوء والخلق في النـــصوص المندائيـــة، مصدر سابق، ص١٤١ وما بعدها.

المبحث الثاني
المقدسون

إن للقدسية عند طائفة الصابئة المندائيين سمات خاصة تختلف عن الأديان الأخرى المعروفة، فهناك القدسية الكبرى للكائن الأسمى والأعلى والمنزّه عن كل الصفات المادية. ولكن لابد من الإشارة إلا أن القوة العظمى الخالقة في الفكر المندائي تكاد أن تكون متعالية أي غير داخلة بشكل مباشر في تفاصيل الخلق والحياة، وهذا – حسب رأي الباحثة (دراوور) – أقرب ما يكون إلى تقديس قوانين الحياة ، إذ أن لب أو جوهر الدين الصابئي عبر جميع التقلبات والتغيرات هو عبادة (قوانين) الحياة والخصب القديمة، فالحياة العظمى لديهم تتجسد كقوة كونية خلاّقة نافعة، غير أنه تجسيد سطحي، ويكون الحديث عنه دائمًا بصيغة الجمع المبهمة فيبقى تجريدًا غامضًا. كما وإن رمز الحياة العظمى لديهم هو (الماء الحي) أو الجاري الذي يسمونه "يردنا"[(١)].

ثم إن هناك بعد القوة الخلاقة غير المحدودة، كائنات نورانية أو كما يطلق عليها بعض الباحثين نصف إلهية، وهذه الكائنات هي "الإثري" و"الملكا"، وهي كائنات نورانية خلقت من كلمة (الله). وتمتلك الـ"الإثري " و" الملكا " قدرات أو مشاركات في أعمال الخلق وتسيير شؤون الكون، وهذه القدرات ممنوحة لهم من (الحي العظيم)، مصدر القوة وقانون الحياة الذي يسيير الكون. ثم يأتي تقديس الأنبياء والرسل بالمرتبة اللاحقة، وبما أن الديانة المندائية ديانة عرفانية، فإن العلم الإلهي يأتي بواسطة الإلهام أو الكشف للبعض الخاص من البشر الذين هم بمواصفات خاصة جدًا. ورغم أن الدين المندائي، وحسب الأدب الديني الموجود بين أيدينا اليوم، يعود بنفسه إلى آدم (ع) – بحسب (صحف آدم) الكتاب المقدس الرئيسي للطائفة – أي أنه الدين الأول للبشر، إلا أننا لا نلاحظ وجود عدد كبير

---

(١) الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، مصدر سابق، ص٣٠-ص٣١.

من الأنبياء وهذا ما سنأتي على تفصيله. ثم يأتي تقديس الهيئة الكهنوتية التي تسير الأمور الدينية وكانت تسير في الماضي الأمور الدنيوية، إلا أن ثمة تغيّرات حدثت للهيئة الكهنوتية سندرسها بالتفصيل، وأخيرا يأتي المصدر الرئيس للقدسية المتمثـل بالكتب المقدسة وسنلاحظها ونشرحها لاحقا.

١. **الملائكة:** وهي كائنات (شبه إلهية) موكلة بحمل إرادة (الحي العظـيم) وتنفيذها، وهي تابعة للخالق، تامة غير ناقصة، حياتها لا يأتيها الباطل، وقد (نادى) الخالق فكانت (كلمته) التي أوجدت هذه الكائنات النورانية الأثيرية.

لقد ترجم د. ليدزبارسكي كلمة "ملكا" إلى (ملك) وليس (مـلاك)، رغـم ان وظائف "الملكا" تشبه وظائف (الملاك) في اليهودية وفي الإسلام(١). ولكننا يجب ان نوضح أن كلمة "ملاكيا" قد تدل على الأرواح الشريرة أيضًا.

وفي الأدب الديني المندائي إشارات يجب أن نسلط عليهـا الـضوء، إذ أن كلمة "ملكي" في حالة الجمع تطلق على الكائنات (فوق البشرية) الشريرة والطيبـة، بينما يستخدم مصطلح "إثري" وهو جمع "إثرا" على الكائنات (فوق البشرية) الخيرة فقط. وعلى العموم فـ "الإثري" تدل على الأرواح التي تهب الحياة وتديمها بـأمر (الحي العظيم)، وهي ذات صلة بالكلمة السريانية "يثري" أي يغتنـي حـسب رأي (دراوور)(٢)، إذ ترى الباحثة أن معناها (يمتلئ حتى يطفح)، وهذا الاشتقاق قريـب من مفهوم نظرية الفيض الإلهي التي تمثل الأساس للفقه العرفاني المندائي.

ويذكر البرفوسور "روبرتسن سمث" في كتابه "أديان الساميين" اسم إله فـي الجنـوب العـربي يسمى "اثتار" يتحكم في الري، ويقول إن "عثاري" كانت تعنـي ما يروى من السماء، وهذا مصدر المعنى الأصيل لهطول المياه من السماء علـى الأرض، وهو يكتسب لدى الصابئيين صفة الماء الحي الآتي من بيت الحياة. وهكذا

---

(١) الليدي دراوور، مصدر سابق، ص١٥٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٥٨.

- وحسب رأي (دراوور)- يمكن أن يكون معنى "إثري" أرواح الحياة التي تهب الخصب والغنى على شكل مطر وينابيع. وفي الأراضي القاحلة التي لا تنبت إلا حين يهطل المطر، فإن رسلاً كهؤلاء هم حقًا (واهبو الحياة)(١). وهناك تدرّج واضح في المنزلة والأهمية والمهام أو (الوظائف) التي تؤديها الكائنات النورانية، فهي ليست بمستوى واحد من التقديس، كما أن هناك تدرج أو تصنيف للقوة على أساس مرحلة الخلق التي خلق فيها "الإثرا"، فمثلاً "مار اد ربوثا" إذ هو ذو أهمية كبيرة وهو (سيد العظمة) وناقل أوامر (الحي العظيم) ونواهيه(٢) يأتي بدرجة عالية، بينما "يوشامن" إذ هو من الحياة الثانية (المرحلة الثانية) يأتي بمرتبة أقل شأنا من الأول. وفي بعض الأحيان تطلق صفة الأب أو الابن على هذه الكائنات، والإشارة هنا لا تعني البنوة البايولوجية مطلقا وإنما يعتبر "الإثرا" الذي (بنادي) عالمًا فيه "إثريين" بمثابة الأب لهم، فيقال "إباثر" ابن "يوشامن"، وكذلك "إباثر" أبو "بثاهيل" وهو "أثرا" لعب دورًا مهمًا في خلق الإنسان والعالم المادي.

ويمكن أن تناط مهمة محددة بـ "الإثري"، أو تتعدد مهامه، فالملائكة الكبار الثلاثة وهم "انوش وهيبل وشيتل" (وهنا نلاحظ تشابهًا مع أسماء أولاد آدم) هم (إثريون) أو ملائكة متعددي المهام كما سنرى. أما "أباثر" فهو ملاك الميزان الذي يزن أعمال البشر من حسنات وسيئات، وله صفات عديدة منها: العتيد، السماوي، المصون، الخفي، وهو كما أشرنا يمثل الحياة الثالثة(٣).

كما يختص بعض "الإثريين" بأن لهم مطهرًا، مثال ذلك "تباز هيلا" فهو كائن نوراني وله مطهر لتطهير النفس من آثامها، ومثله الإثري "نباط العظيم" الذي يمتلك مطهرًا أيضًا(٤). وقد تناط بالإثرين مهام محددة مثل "شلماي وندباي" وهما ملاكان نورانيان يحرسان الماء الجاري أو الماء الحي "اليردنا"، وهي المهمة نفسها التي يؤديها "إدثان ويدثان" الإثريان اللذان يحرسان "اليردنا" السماوي، بالإضافة إلى

---

(١) نقلاً، عن دراوور، مصدر سابق، ص١٥٩.

(٢) مصطلاحات كتزاربا اليمين، طبعة بغداد.

(٣) كنزا ربا يمين، مصطلحات كنزا ربايمين، طبعة بغداد.

(٤) المصدر نفسه.

مهمتها في الوقوف عند بوابة الحياة لمراقبة الأرواح والأنفس[1]. أما الإثري "بثاهيل" فهو ملاك من درجة أوطأ من القدسية والمنزلة مقارنة بالسابقين لأنه يمثل الحياة الرابعة، ولكن أهميته تتجلى في عملية الخلق والتكوين، بالإضافة إلى كونه له مطهرا"[2]. وفي حالة الإثري "بثاهيل" يجب ألا نغفل ملاحظة الباحثة (دراوور) التي تقول بأن هناك علاقات بين عالم النور والخير وبين عالم الظلام و الشر، فالملاك أو الإثري "بثاهيل" ناتج من أب من عالم النور هو "أباثر" - وهو "إثرا" له مكانه سامية كما مر بنا - ومن أم من عالم الظلام، ولذلك كما تلاحظ (دراوور) كان خلقه للعالم المادي غير ناجح[3]. كما أن الملاك ذو الأهمية الكبيرة "هيبل زيوا" قد تزوج من "زاهربيل" وهي أخت "الروها" ملكة الظلام[4].

ويجب أن نوضح نقطة أخرى مهمة، وهي أن سيرة "الإثري" ليست دائمًا مثالية وخالية من الصراعات والنزاعات، فعند قراءتنا لـ "دراشة اد يهيا" وهو ثاني الكتب المقدسة المندائية وهو (مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا "ع")، نرى في أحد النصوص أسئلة (الحي العظيم) وإجابات أحد الإثرين عليها وهو "يوخابر"، فيسأل (الحي العظيم) بالصيغة التالية: **عند بوابة العالم وقف الحق متسائلاً:**

من جلا سر الحياة العظمى ؟ من أطلق العداوة والخصام في عالم النور؟ من اجتاز المنازل ؟ ومن أحدث بلبلة وفوضى في سيناويس ؟ - سيناويس مكان في عالم الظلام - "أور" ملك الظلام من قيده وألقى به في غياهب السجن ؟ من أنزل "يوشامن" من عرشه ؟ ولماذا آثروا أن يكون "أباثر" حاكمًا ؟ لماذا أوجدوا النقص والعوز في العالم ؟ من كلمت الـ "روها" ؟ من أوضح الحق في العالم ؟ ومن نشر الرحمة ؟ من أثار العصيان في السماء؟

ثم تبدأ إجابة الملاك "يوخابر" مفصحًا عن أفكاره إذ قال:

---

(١)المصدر نفسه.

(٢)المصدر نفسه.

.P. 34 ، E. S. Drower, Haran Guaita and The Bapitizm of Hibil Ziwa(٣)

(٤) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص٧٧.

"يوشامن" جلا سر الحياة، "هيبل" اجتاز المنازل وأحدث "بسيناويس" الفوضى، وزعزع سر الظلام، وبمشيئة الحي العظيم زج بـ "أور" ملك الظلام في سجن لا قرار له، "يوشامن" هو الذي أطيح بعرشه، إذ أراد أن يثير صراعًا، "أباثر" أصبح حاكمًا، وقد أنزله "هيبل زيوا" إلى الماء الآسن ومن مقامه جهر بالقول:

أنا من الملائكة، وابن الملاك العظيم، الخاتم يثبتني في مكاني، وقد تضاعفت قوتي، وإني أدعو أن يُنحّى "بثاهيل"

في العالم السفلي أودع "أباثر" وأوصدوا دونه الأبواب، حيث أقصي عن عرشه بعدئذٍ أصبح ملاك الميزان(١).

إذن ها نحن نقرأ قصة تمرد حدث في عالم الأنوار، وكانت أحداث هذا التمرد تدور في عالم الظلام، حيث يوجد تمرد آخر (كما مر بنا سابقًا) في عالم الظلام، وهناك عقوبات وسجون وإطاحة بعروش الإثريين الكبار، ثم يأتي بعد ذلك قرار الحي العظيم بالعفو عنهم وإعادة الأمور إلى نصابها.

وقبل أن ننهي الحديث عن موضوع (الملائكة)، يجب أن نذكر عالم نوراني آخر هو "مشوني كشطا" أو أرض الحق أو أرض العهد، وهو العالم المثالي للصابئة المندائيين، ويقطنه أحفاد "آدم كسيا" أو آدم الخفي أو آدم النوراني، فثمة فكرة دينية مندائية مطابقة لفكرة المثال لدى أفلاطون، اذ يعتقد المندائيون أن هناك أثنان من كل شيء في الدنيا، الواقع ومقابلهُ المثالي "دموثا". والمثال أو الشبيه "دموثا" يعيش في "مشوني كشطا"، وعند الوفاة يفارق إنسان الأرض جسمه الترابي ويلتحق بالجسم الإثيري لشبيهه، وفي هذا الجسم الأخير تعاني الروح آلام التطهير، أما الشبيه "دموثا" في "مشوني كشطا"، فهو عند وفاة صنوه الأرضي يغادر جسده الإثيري الذي استقر به ويدخل في جسم نوراني. وحين يكون على أتم نقاوته يعرج حالاً إلى عالم الأنوار، حيث تكون النفس البشرية قد أتمت دورتها التطهيرية

---

(١) دراشة اد يهيا، تعاليم يحيى بن زكريا، ترجم عن المندائية على يد لجنة الترجمة، ط١، بغداد، ٢٠٠١م، ص٦.

وأذنت لها موازين "أباثر" بالانعتاق من أعبائها، فتدخل هي الأخرى عالم الأنوار ويتحد الاثنان. ويقول المندائيون إن الوحوش والطيور والإزهار وكل ما في الدنيا المادية له مقابله في "مشوني كشطا"، وكذلك يقال إن سكان "مشوني كشطا" يتزوجون ويتناسلون لكن دون إتيان أية نجاسة، ويكونون أحيانًا على صلة بمماثليهم الأرضيين.

ومن الجدير بالذكر أن مكان "مشوني كشطا" غير واضح أو محدد، ولكن على العموم يشار إلى أنه في الشمال وراء منطقة الجليد والثلج حيث النور الدائم، وحيث يمكن لسكانه أن يتخاطبوا مع "الملكي" و"الإثري" وأن يشاهدوهم[١].

٢. **الأنبياء:** وكما أشرنا في بداية هذا المبحث فإن الدين المندائي لا يشير إلى كثير من الأنبياء، لأن هناك الكثير من المهمات يقوم بها الـ "إثريون" في نقل الرسالة من (الحي العظيم) إلى بني البشر. وقسم منهم يصل إلى مراحل متقدمة من "الناصروثه" التي تعني المعرفة الحقة بأصول الدين المندائي، والناصورائيون، ومفردها" ناصورائي"، تعني الضليع في الديانة المندائية والمتعمق فيها والمدرك لأسرارها[٢]. فمثلاً في الكتاب السابع عشر من الكنزاربا – اليمين في التسبيح الأول ("أنوش" هو الكلمة)

يا "أنوش". علّم الناصورائيين والمندائيين، علّم المختارين الذين ستعود بهم من العالم، علّمهم الصلاة في أوقاتها والتسبيح، وليعلموا أن كل صلاة تتأخر عن ميقاتها تبقى عند باب بيت الحي لا تصعد حتى يفتح باب "أباثر" العظيم.

ولكننا نجد ذكر عدد من الأنبياء، يأتي في مقدمتهم النبي آدم (ع)، فهو أبو البشر، وقد علّمه الملائكة كل العلوم، ويعتبر المندائيون أن كتابهم المقدس "كنزا ربا" هو الصحف التي أوحي بها لآدم، لذلك يسمى الـ "كنزاربا" أحيانًا (صحف آدم)،

---

(١) دراوور، مصدر سابق، ص١١٠ إلى ص١١٢.

(٢) كنزا ربا–يمين، طبعة بغداد، الكتاب السابع عشر التسبيح الاول، مصدر سابق، ص٢٦٣.

وآدم (ع) هو أول أنبياء المندائية، إذ يقول المندائيون: لقــد جــاء ســيدنا آدم (ع) بتعاليم (الحي العظيم)، ليهتدي بها البشر بعده إلى العمل الــصالح، ولينجــوا مــن عذاب الآخرة، وهو مذكور في تفاصيل الخلق وفي سفر مفرد له في الكتاب الثالث التسبيح الثاني من "الكنزا ربا – اليمين".

ومع أبناء آدم (ع) يكون هناك خلط أو تحول شخصيات بشرية إلى كائنــات روحانية، مثل "شيتل" ابن آدم (ع)، إذ يوصف بأنه "شيتل" الأمين، وكذلك "آنــوش" ابن شيتل (ع) إذ يوصف بأنه "أنوش" الأمين أيضًا، ونقرأ مثالاً على ذلك:

نزل الحي منزلاً فأشرق الضياء في الأثير السني، هذا هو الــسر، وكتــاب أنوش الأمين بن شيتل الأمين بن آدم الامين بن الإثريين الأجلاء ذوي الوقار، بن بلد النور، بن الدار المتقنة.

أنا الذي كلي إثريون، ابن عالم الخير، إثريان اثنان، إذ هما يفكران، ومــع نفسيهما يتأملان خطر لهما أن يناديا الإثري الجليل الأول[١].

ومن ذلك يتضح تحول الشخصية الإنسانية إلى كائن نوراني. وهناك خلــط بين ذرية آدم وهم "شيتل وأنوش" وبين كائنات نورانية إثرية تحمل الأسماء نفسها، وقد أدى هذا الخلط في الأسماء إلى خلط مربك في الشخصيات لدى الاطلاع علــى التراث الديني المندائي.

ومن الشخصيات المقدسة لدى المندائيين النبي إدريس (ع) ويطلق عليه فــي "الكنزا ربا" اسم "دنانوخت"[٢]، والنبي إدريس (ع) موجود في أكثر مــن مــوروث ديني في المنطقة، إذ يطلق عليه المصريون القدماء اسم (هرمس)، وهذا الاسم هو من الأسماء المقدسة لدى الطائفة حتى اليوم، إذ نجد أن الكثيــرين يحملــون اســم (هرمز) كاسم ديني لهم "الملواشة". ويشير الأستاذ عبد الحميد جودة السحار، إلــى أن الله قد بعث النبي إدريس (ع) إلى الناس يدعوهم إلــى عبــادة الله الــذي لــه

(١) الكنزا ربا اليمين، الكتاب الثالث عشر (انوش)، مصدر سابق، ص١٩٤.

(٢) معجم مصطلحات الكنزاربا-اليمين، طبعة بغداد.

السموات والأرض، ويحدثهم عن البعث والحساب والميزان والجحيم والخيرات التي اعدت للمتقين، فآمن المصريون بالله في فجر التاريخ، قبل أن يوحد مينا الوجه البحري والوجه القبلي، وعرف أتباع (إدريس) بالصابئيين، وعرف الكتاب الذي جاءهم به بالـ (كنزة) ولم تقم دعوة إدريس داخل حدود مصر فحسب، بل لقد ذهب بدعوته إلى بلاد العرب، يدعو إلى عبادة الله. ونرى أن المندائيين اليوم يعتقدون أن أجدادهم كانوا في مصر، وأنهم طاردوا مع فرعون اليهود الذين فروا مع النبي موسى (ع)، ثم غرقوا في البحر الأحمر. ويقيم المندائييون اليوم وجبة طقسية على أرواح أجدادهم الغرقى في ذكرى الحملة المصرية، ويطلقون على هذه الوجبة اسم (العاشورية)(١).

ويعتقد المندائيون أن البشر قد عصوا دعوة آدم وشيتل وإدريس "دنانوخت" لمّا تقادم عليها الزمن، فأشركوا الأصنام مع عبادة الله، فأرسل لهم نوحًا يهديهم إلى الطريق القويم، ولبث في قومه طويلاً يدعوهم إلى توحيد الله فعصوه. . فشكى أمره إلى ربه بعد اليأس منهم، فعاقبهم الله بالطوفان، وقصته مشهورة ويسمى عند المندائيين "طوفانه"، وتشير الكتب المقدسة المندائية إلى أن العالم يفنى ثلاث مرات، وينجوا منه ذكر وأنثى أو بعض البشر القلائل فيعيدون بتكاثرهم الجنس البشري، وتحدد الكتب المقدسة أيضًا تواريخ الفناءات كما وتحدد عمر الإنسان على الأرض وفقا لذلك. وهذه الفناءات هي:

١. الفناء بالماء.
٢. الفناء بالهواء.
٣. الفناء بالنار.

(١) دراوور، مصدر سابق، هامش المترجمان ص٥٠.

ومما سبق يتضح لنا أن نوحًا (ع) هو أحد الأنبياء المندائيين، وابنه سام (ع) هو جدهم الأعلى[1]، ونلاحظ أن اسم (سام) شائع كثيرًا بينهم حتى هذا اليوم.

لقد وقع بعض الباحثين - المندائيين وغير المندائيين - بالتباس في اعتبار أن النبي إبراهيم الخليل (ع) هو أحد أنبياء المندائيين، واعتبروا - خطأ - أنه "بهرام ربا"، بينما يرى المدقق بوضوح أن "بهرام ربا" هو "أثرا" أو ملاك ولا علاقة له بإبراهيم الخليل[2]. ومن الجدير بالذكر أن اسم " بهرام ربا" هو من الأسماء التي تذكر أثناء عملية الوضوء "الرشامة" وسنأتي على تفاصيل ذلك في مبحث لاحق.

أما النبي الأوضح سيرة والأكثر تأثيرا والأقرب تاريخًا فهو يحيى بن زكريا(ع) أو كما يطلق عليه في المندائية "يهيا يهيانا"، إذ تروي الكتب الدينية المندائية أن المندائيين قد تعرضوا لنكبة قبل مولد النبي "يهيا يهيانا" على يد اليهود، واضطهدوا، ولكنهم استمروا في ممارسة طقوسهم بشكل سري متضرعين إلى الحي العظيم، حتى ولد النبي يحيى "يهيا يهيانا" بمعجزة[3]، لأن والديه كانا قد بلغا من الكبر عتيًا، وهو لذلك - بحسب الميثولوجيا المندائية - جاء من الماء الحي "اليردنا" بأمر الحي العظيم ودخل إلى رحم (أُمه)، وبعد الحمل والولادة المعجزة، تأخذه الملائكة خوفًا عليه من غدر اليهود، ويذهب به "ملكا أنوش أثرا" ويرتقي به جبل بروان الأبيض "طورا بروان هيوارا" حيث يتربى الأطفال بالماء المقدس، ويتغذون من الشجرة المرضعة للأطفال "إيلانا ادماربي يانقي". ليعيش يحيى فترة هناك إلى أن يحين إظهار نبوتهُ وإرساله إلى العالم الأرضي، أذ تُقرأ عليه بعض الكلمات السحرية والطلاسم والأحراز في الجبل الأبيض المقدس، ويعلمه الملائكة كلمات إذا نطق بها حصل له ما شاء، وما أراد، ثم يأمرون "أنوش أثرا" أن يصحبه.

---

(١) عبد الفتاح الزهيري، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين (العرب البائدة)، ط١، بغداد، ١٩٨٣، ص١٤٣.

(٢) عبد الحميد عبادة، مندائي أو الصابئة الاقدمون، تحقيق رشيد الخيون، لندن طبعة اولى، ٢٠٠٣، هامش ص٨٨.

(٣) امين فعيل حطاب، (يهيا يهيانا) في النصوص المندائية (كرسات مندائية)، بغداد، ٢٠٠١.

وتقول القصة: إن يحيى و"أنوش أثرا" ركبا زورقًا في الفرات وعادا إلى اورشليم، فعاد يحيى إلى أبيه، وما أن وصلا إلى القدس حتى رجع "أنوش أثرا" إلى عالم الأنوار، فأظهر هناك يحيى " يهيا يهيانا" نبوّتهُ وكانت من علاماتها شفاء المرضى والعميان، فلم تؤمن به اليهود وأحرقوا داره، فلم تضره النار، ثم آمنوا به إلا "اليعازر" وأتباعه (وقد كان اليعازر زعيم اليهود في بيت المقدس في تلك الفترة)[1]. وجمع المندائيين مرة أخرى وكتب لهم الصحف والتعاليم حتى حان موعد وفاته. أما قصة الوفاة، فنقرؤها بتفاصيلها في كتاب (تعاليم يحيى) " دراشه اد يهيا " لتصبح فيما بعد أساسا لتعاليم الدفن وطقوس الموت.

٣. الكتب المقدسة: يتميز الأدب الديني المندائي بتنوعه وكثرة نصوصه المقدسة، وأن سعة هذا الأدب وتنوعه قد يشيران إلى أنه لم يوضع كله للأغراض الدينية[2]. ولم تكن وظائف رجال الدين منذ أزمنة غابرة – امتدت إلى نهايات القرن التاسع عشر– محصورة في الجانب الديني فقط، بل إنهم تعدوا ذلك ليتولوا شؤون التطبيب واستطلاع الفأل وغيرها.

يعتبر كتاب "كنزا ربا" الكنز العظيم أو (صحف آدم)، الكتاب المقدس الرئيسي للطائفة، وهو كتاب كبير يحتوي على (كتب أو "بوثات") تماثل السور أو الإصحاحات، وتقسم إلى تسبيحات، ويحتوي الكتاب على جزأين، يسمى الجزء الأول "الكنزا – يمين" : ويحوي على إصحاحات نظام الكون والخليقة وخلق آدم والثواب والعقاب وأدعية وحكايات وقصص بعض الأنبياء مثل "دنانوخت – إدريس". أما القسم الثاني فهو "الكنزا – يسار" وهو مثبت مع الكتاب الأول بشكل مقلوب في نهايته، وهو مقتصر على معالجة خروج الروح ورحلة الروح وشؤون وطقوس الموت. وقد ترجم هذا الكتاب منذ عام ١٨١٣م من قبل ماثيو نوربيرغ السويدي، وظهرت له ترجمات وتعليقات في فترات مختلفة بلغت ذروتها في

(١)عبد الحميد عبادة، مندائي أو الصابئة الأقدمون ، تحقيق رشيد الخيون، مصدر سابق، ص٧٥.
(٢) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص١٣.

ترجمة البروفسيور (ليدزبارسكي) النفيسة إلى اللغة الألمانية[1] وقد طبعت عام ١٩٢٥م. وكانت هذه الطبعة مصدرًا مهما للترجمة إلى اللغة العربية في سدني قام بها عدد من المترجمين، مع مقارنة لها بالنسخة المندائية، وقد قام بالترجمة (كارلوس جيلبرت) وطبع الكتاب ونشر عن منشورات الماء الحي (عام٢٠٠٠ م)، وفي الوقت نفسه تقريبًا تمت ترجمته عن المندائية، وقد قام بالترجمة لجنة ترأسها يوسف متي قوزي وصبيح مدلول السهيري إلى اللغة العربية، ثم قام الشاعر المندائي الكبيرعبد الرزاق عبد الواحد بإعادة صياغتها العربية، وذلك في عام (٢٠٠٠م) في بغداد. وقد ثار جدل كبير حول نسخة بغداد، إذ أثيرت مشاكل أهمها إعادة الصياغة التي اعتبرت أنها غير أمينة للأصل، وإنها ناقصة وغير معتمدة، ومع هذا فقد أصبحت هذه النسخة اليوم الأكثر شيوعا والأوسع استخداما بين أبناء الطائفة. إن النقطة الأساسية في موضوع ترجمة الكتاب المقدس هي أن أغلب أبناء الطائفة لا يفقهون لغتهم الأصلية، وحتى أن من حفظ منهم نصوصًا، فإنه يرددها دون فهم دقيق أو واع لمضمونها. وبعد أن تمت الترجمة وبدء أبناء الطائفة – وخصوصا الشباب منهم – الاطلاع على أدبهم الديني وفهمه ومناقشته، تولد بين أبناء الطائفة نوع من التلاحم والترابط حول نواة الهوية الدينية لهم.

ويأتي الكتاب الثاني في الأهمية من الكتب المقدسة كتاب "دراشة اد يهيا" (تعاليم يحيى بن زكريا)، وقد ترجمه البروفيسور ليدزبارسكي عام ١٩١٥م إلى الألمانية، ويضم مجموعة من التراتيل والنصوص التي تتحدث عن النبي (يحيى بن زكريا) "يهيا يهيانا" ونشأته، وهجرة الناصورائيين من فلسطين إلى الفرات، وقد قام بترجمته من اللغة المندائية إلى العربية مباشرة الأستاذ أمين فعيل حطاب، وأعد الصياغة الأدبية للكتاب سميع داوود سلمان، وقد صدرت الطبعة العربية الأولى في بغداد سنة ٢٠٠١ م.

وفي نهاية عقد التسعينيات، قام مجلس شؤون الطائفة العام بتشكيل لجنة أطلق عليها اللجنة العليا للترجمة، وقد تألفت من السادة بشير عبد الواحد يوسف

---

(١) ليدي دراوور، مصدر سابق، ص٦٩.

وحمودي مطشر تقي وداخل يوسف عمارة ونزار ياسر صكر، وقد أصدرت هذه اللجنة مجموعة مهمة من الكتب والكراسات باللغة العربية بعد ترجمتها عن المندائية، كما وقام الأستاذ أمين فعيل حطاب بترجمة كتاب "الأنياني"وهو كتاب الأدعية والصلوات المندائية وصدر عن مركز الدراسات والبحوث المندائية في بداية هذا القرن. وطريقة الإصدار كانت مميزة إذ طبع بطريقة صفحة باللغة المندائية تقابلها ترجمتها باللغة العربية، وهذا الكتاب يضم الأدعية والوضوء والصلاة "البراخا" وتقسيماتها بحسب الأيام والأوقات.

كما قام الأستاذ أمين فعيل حطاب بترجمة كتاب "ديوان حران كويثة" (ديوان حران الداخلية)، وهو كتاب مهم يروي تاريخًا افتراضيا لرحلة المندائيين من فلسطين إلى جنوب العراق، وينتهي سرد الحوادث في هذا الكتاب بالفتح العربي. وقد قامت السيدة (دراوود) بترجمته ونشره مع كتاب "مصبتا اد هيبل زيوا" (تعميد هيبل زيوا) في الفاتكان عام ١٩٥٣، بينما كانت ترجمة الأستاذ أمين فعيل حطاب إلى العربية وعن المندائية مباشرة، وطبع بالطريقة نفسها (أي مثل كتاب الأنياني- صفحة مندائية يقابلها معناها بالعربي) وصدر في بغداد عام ٢٠٠٣ م. وحري بنا أن نشير هنا إلى دور المهندس (لؤي زهرون حبيب)، الذي أوجد الحرف المندائي على الحاسبة الإلكترونية، وبالتالي سهّل الكثير من عملية الطباعة باللغة المندائية، وهذا ما حصل في الكتب التي ترجمها الأستاذ أمين فعيل حطاب[1].

كما قام الأستاذ أمين أيضًا بترجمة كتاب الـ " قلستا " وهو (ترانيم الزواج المندائية) بتكليف من مركز البحوث والدراسات، وتم نشره في بغداد عام ٢٠٠٣م. وقد سبق أن ترجمته الليدي (دراوور) تحت اسم (كتاب الصلوات القانوني – القلستا) عام ١٩٥٩ م[2]. وهناك مجموعة من كتب الأدب الديني المندائي مختصة بقضايا الفلك كما فهموه في زمن كتابة هذه الكتب. وتضم هذه

---

(١) ديوان"حران كويثة"، إعداد لؤي زهرون حبيب، ترجمة أمين فعيل حطاب، بغداد ٢٠٠٣، مقدمة الديوان.

(٢) عزيز سباهي، مصدر سابق ص١٤.

المجموعة كتبًا ربما كان أهمها كتاب "أسفر ملواشة" (سفر البروج)، ويتضمن هذا الكتاب نصوصًا متنوعة عن الفلك والتنبؤات، وهو مكرس لقراءة الطالع، ويضم إلى جانب ذلك نصوصًا سحرية مقتبسة من مصادر يونانية وفارسية وعربية. وقد ترجمته السيدة (دراوور) إلى اللغة الانكليزية ونشرته عام ١٩٤٩م[١]. وقد قامت بتحقيقه وترجمته إلى اللغة العربية كرسالة ماجستير في جامعة بغداد كلية اللغات، قسم اللغة العبرية الطالبة بروانايا الزهيري، بإشراف أ. د. يوسف قوزي. أما الكتاب الثاني المختص بالفلك فهو كتاب " شباني شايي " (ساعات النهار) والذي يعالج تصور رجال الدين المندائيين عن قيمة كل ساعة من ساعات النهار وفقا لحسابات فلكية.

كما أشارت الليدي دراوور إلى وجود كتابات وطلاسم وأدعية ونصوص سحرية لطرد الأرواح الخبيثة ولاستجلاب عطف القوى الروحانية وما شابه ذلك[٢]. وأشارت إلى أهمية كتابات الرقى الصابئية، إذ إن هذه الكتابات لم تحظَ بالاهتمام الذي تستحقه بأستثناء الكتابات المنقوشة على القحوف. فقد اعتاد المندائيون منذ القدم وفي أوقات تفشي الأوبئة أن يدفنوا في عتبة الدار أو مع المتوفي في قبره بعض القحوف وقد كتب عليها تعاويذ لتصدّ عنه أرواح الظلام. وتعتبر دراوور أن الكتابات الطلسمية كلها تحمل الروحية والأسلوب نفسه، وقد استنسخت وأعيد استنساخها منذ قرون (وغالبا دونما إدراك)، لأن البعض من أسماء الأرواح الطلسمية التي لا تزال تذكر فيها قد اختفت من الدين الأصلي، وهي غير موجودة الآن في أي كتاب من كتبهم المقدسة.

٤. **الهيئة الكهنوتية:** تتمثل الهيئة الكهنوتية في طبقة أو شريحة رجال الدين، وتتدرج هذه الشريحة عند المندائيين بتدرجات دقيقة (انظر هرم الهيئة الكهنوتية في آخر الكتاب)، ويتم الانتقال من درجة إلى أخرى عبر إجراء طقوسي صارم ودقيق، تحسب فيه خطوات التعميد وعدد مرات العماد، بالإضافة إلى اختبار للمعلومات

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق ص١٥.
(٢) الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، مصدر سابق، ص٧١.

الدينية، إذ تكون لكل درجة معلومات يجب أن يلم بها من يريد الوصول لهذه الدرجة. وعدا ذلك فإن هنالك شروط بدنية واجتماعية ؛ إذ يتحتم على من يريد أن يدخل سلك الكهنوت أن يكون سالما من الناحية البدنية والعقلية، فيجب أن يكون سالما من الأمراض السارية (المعدية) كالبرص والسل والجذام. ويُرجع بعض الباحثين سبب ذلك إلى كون رجل الدين المندائي على اتصال دائم بأفراد مجتمعة[1]، فهو يمارس طقوس التعميد التي تجرى لهم ولعُددهم (أواني ومستلزمات البيت)، ويقوم بصنع الوجبات الطقسية " لوفاني"، ويقوم بالذباحة، وكل تلك الأعمال توجب على الكاهن أن يكون سالمًا. بالإضافة إلى ذلك، يجب ألا يكون رجل الدين عقيمًا، ويجب أن لا يكون مولودا لامرأة ثيب هو أو آبائه حتى الجد السابع، ورغم أن السلك الكهنوتي لا يشترط توريث الكهانة، فالسلك مفتوح لكل مندائي تنطبق عليه الشروط، إلا أن واقع الحال هو أن رجال الدين يربّون أولادهم تربية دينية، فينخرط الأولاد نتيجة لذلك في سلك الكهنوت حسب الأصول والشروط بعد أن يدرسوا دراسة خاصة ويقوموا برياضة روحية خاصة، يعقب ذلك امتحان خاص. وتتقسم درجات رجال الدين من الدرجة الأدنى صعودا إلى الأعلى كما يلي:

١. **الحلالي**: وهو من كان تام الخلقة، سليم الحواس والجسم، وسليل عائلة (حلالية)، وكانت دراسته قد اقتصرت على بعض كتب الدين الأولية، وتعمد بالتعميد الخاص بهذه الطبقة، ومن المهمات التي يقوم بها الحلالي، السير في الجنازة، وإجراء طقوس الذباحة.

٢. **الترميذة**: وتعتبر الدرجة الأولى في الكهنوت المندائي لأن "الحلالي" هي مرحلة تهيئة. ويتدرج "الحلالي" إلى درجة "ترميذة" – وهي تعني التلميذ – إذا ما أكمل دراسة بعض الكتب الدينية مثل "سدرة اد نشماثا" (كتاب الأرواح) و"الأنياني" (كتاب الأدعية والصلوات)، وحفظ قسمًا كبيرًا منهما. وبعد أن تجرى له الرسوم الخاصة لهذا التدرج "طراسة" يسمى المرشح للكهانه "الشولية". وبعد إجراءات

---

(١) سليم برنجي، الصابئة المندائيون، ترجمة جابر أحمد، طبعة أولى ١٩٩٧، دار كنوز أدبية، بيروت ص٢١٨.

فحص جسم " الشولية " من قبل الشيخ المشرف على الطراسة - وهو بدرجة أعلى "كنزابرة" - يتم إحضار جميع المستلزمات من أطعمة وأشـربة وأدوات، ويبنـى هيكل من القصب (شبيه بهيكل الزواج) تجرى فيه الطقوس ويـسمى "انـدرونا"، يقابله هيكل ثان يسمى "اشخنته". ثم تبدأ الطقوس، وتستمر لمدة سبعة أيام كاملات، يجب ألا ينام فيها المرشح للكهانه ولا يغمض له جفن خشية أن يحتلم، لأن الاحتلام هو من النجاسات الكبيرة التي تؤدي إلى تأجيل "الطراسة"(١). ولهذا السبب، يضطر الحاضرون إلى إحداث ضجيج مستمر، وذلك بالإكثار من تلاوة الكتـب والأدعيـة وإقامة الولائم والأفراح ودق الطبول والأبواق حتى تنتهي المدة المـذكورة. وفـي هذه الفترة يكون المرشح جالسًا في "الأندرونا" ومعه شيخه "الكنزابرة" لا يبرحـان المكان نهائيًا إلا للحاجات الضرورية، فيقرءان الكتب الدينية ويراجع المرشح مـع شيخه المسائل التي لا يفقهها من الدين. وإذا أتمّ المرشح القراءات بعد الليلة الأولى يخرج مع شيخه من "الأندرونا"، وبعد قراءات طقوسية يدخلان إلى الـ "أشـخنتة"، وبحسب رأي الشيخ عبد الله الشيخ نجم أن انتقال "الشولية" مـن "الأنـدرونا" إلـى "الشخنتة" يعني إنه قد ارتقى من درجة فئة المندائيين العامة إلى درجـة "ترميـذة"، وهي أولى درجات الكهنوت(٢). وعندئذ تُهد الأندرونه وتخرّب، وبعـد أن يجـرى للمرشح عدد كبير من التعميدات والقراءات والإجراءات الطقسية التي تستمر حتى إكمال الأسبوع، يصبح الأخير رجل دين: شيخ بدرجة "ترميذة". ويتم الإعلان عـن ذلك مصحوبًا بعلامات الفرح والابتهاج، تلي ذلك فترة ستين يومًا يجب أن يكـون فيها "الترميذة" بأتم طهارته، ليسمح له بعد ذلك بممارسة واجباته كرجل ديـن تـام الأهلية.

٣. **الكنزابرة:** لا بد للـ "ترميذة" الذي يريد أن يرتقي إلى درجة "كنزابـرة" أن يكون قبل كل شئ فاضلا، محترمًا، لبقًا ومطلعًا علـى الكثيـر مـن التفاسـير والشروح الدينية، وأن يكون حافظًا لكتاب "الكنزا" وقادرًا على فهمه وشـرحـه،

---

(١) عبد الرزاق الحسني، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ط ٥، بغداد ١٩٧٩، ص١٢٤.

(٢) الليدي دراوور، مصدر سابق، هامش المترجمان، ص٢٢٧.

(إذ إن معنى هذه الدرجة مفسر الكنزا)، وأن يكون متزوجًا وغير عقيم، ولا يمكن للـ "ترميذة" مهما كان علمه أن يرقى إلى درجة "كنزابرة" إلا إذا كان متزوجًا ومنجبًا، كما ويشترط أن يكون قد عقد مهرًا لـ "ترميذة" من قبل. ويقوم بعملية تكريس أو "طراسة" المرشح لدرجة الـ "كنزابرة"، كاهن بدرجة "كنزابرة" وكاهنان بدرجة "ترميذة" واثنان بين المساعدين أو الشهود "اشكندة"، ولا يتم التكريس إلا حينما تقترب المنية من شخص تقي من أفراد الطائفة، ويجب أن يكون - المحتضر- متزوجًا ومنجبًا[1]، فحالما يعرف أن ذلك الشخص قد اقترب من نهايته، يبلغ "الكنزابرة" والكهّان، وتتخذ الإجراءات للاحتفال الديني المسمى "انكرتا" أو الرسالة التي ستحملها روح المتوفي إلى عالم الأنوار، ففي هذه الرسالة يطلب الـ "ترميذة" الترشيح إلى الدرجة الدينية الجديدة. وبعد إجراءات وطقوس وحوار بين المرشح والمحتضر، إذا كان قادرا على الكلام، أو وكيله إذا لم يكن كذلك (وهو شيخ عادةً)، يقومون بترسيم المحتضر، فإذا توفى فأن الرسالة ستصل.

وعندها يجب على المرشح أن يقوم بإجراءات طقسية منها إعداد وجبات طقسية "لوفاني" لمدة (٤٥) يوم على روح المتوفي، وإذا - لسبب ما - لم يتوفَ المحتضر، فإن الإجراءات تُلغى، ولا يحق للمرشح أن يأخذ الدرجة إلى بعد أعادتها مرة أخرى مع حالة جديدة من الاحتضار. أما الرسالة المرسلة مع روح المتوفي فتتكون من (زيت سمسم) مقدس تمت قراءة الأدعية والصلوات الخاصة عليه ووضع في قنينة صغيرة مغلقة بقطعة طين توضع في جيب خاص في الـ "قماشة" (ملابس المتوفي)[2]. وبعد الدفن والرجوع إلى بيت المرشح، تبدأ الأفراح والولائم، ولا يمكن للمرشح أن ينام لثلاثة أيام كاملات لئلا يتلوث بالاحتلام، لأنه يجب أن يكون على طهارة تامة. وبعد إجراءات طقسية مشابهة تقريبًا لنيل الدرجة الأولى "الترميذة" يعود المرشح إلى بيتة ويبقى في فترة عزلة وطهارة طقسية لمدة (٤٥) يومًا. وبعد انتهاء هذه الفترة، لا بد أن يعقد لشيخ

---

(١) الليدي دراوور، مصدر سابق، ص٢٤٥.

(٢) الليدي دراوور، مصدر سابق، ص٢٥٠، الهوامش الخاصة بالمترجمين.

بدرجة "ترميذة" يرغب في الزواج، وإذا لم يجد يبقى معلقًا لا ينال الدرجة وهي حالة نادرة الحدوث، لأن تعدد الزوجات مباح، لذلك يقوم بعض الشيوخ في هذه الحالات بالزواج مرة ثانية لإتمام الطقوس. وحالما ينتهي المرشح من إجراء مراسيم ذلك الزواج يتحرر من عزلته ويمارس حقه في درجته الجديدة بصورة كاملة.

٤. **الريش أمه**: وهي درجة أخرى في الكهنوتية وتعني (رئيس الأمة)، وظلت هذه الدرجة على مدى قرن من الزمان تقريبًا دون أن يبلغها أحد، لأن "الكنزابرة" لا يحصل على درجة "ريش أمه" إلا بعد قيامه بتكريس سبعة شيوخ بدرجة "ترميذة"، ولكن مع نهاية القرن العشرين كان الشيخ "ريش أمه" عبد الله الشيخ نجم قد حصل على هذه الدرجة، وهو اليوم مقيم في المملكة المتحدة لظروف خاصة به. ويعد من يصل إلى هذه الدرجة مرجعًا في الأمور الدينية والدنيوية لطائفته، عالمًا جليلاً فيها، ويعد شخصًا ذا أهلية وكفاءة ممتازتين تجعلانه جديرًا بهذا المنصب.

المبحث الثالث

الملابس الدينية والأعياد المندائية

١. الملابس الدينية:

يعير المندائيون (الملابس الدينية) اهتمامًا خاصًا كما سنلاحظ في أكثر من مكان في هذه الدراسة، مما يتحتم توضيح ماهية هذه الملابس لأهميتها في الدين المندائي، فهي تُرتدى في التعميد والزواج والذبح وحمل الجنازة وفي كل الطقوس تقريبًا.

وتختلف "رستة" المندائي العادي قليلاً عن "رستة" رجل الدين، لكنها على العموم، تخاط من قماش أبيض يجب أن لا يحوي خيوطًا صناعيةً (إكليرك أو نايلون أو فسكوس)، أي أنها تخاط من نسيج قطني أو صوفي، وقد سمعت من بعض المندائيين عدم جواز خياطة الملابس الدينية بواسطة ماكنة الخياطة، وعندما تحريت عن الأمر من المثقفين دينيًا، ظهر عدم الدقة في ذلك، فالمهم هو نوع الخيط المستعمل في الخياطة، إذ يجب أن لا يكون فيه مكونات صناعية، وهذا يعني وجوب كون الخيط قطنيًا أو صوفيًا، ونظرًا لصعوبة استعمال هذه الخيوط في ماكنية الخياطة، فقد كانت تتم خياطة الملابس الدينية يدويًا. أما كلفة عمل الملابس الدينية – خلال فترة الدراسة – فهي حوالي (١٥) ألف دينار.

ويجب أن يكون لكل مندائي "رستته" الخاصة به، علمًا أنها تستعمل أيضًا في حالة الوفاة ككفن مع بعض التعديلات البسيطة التي سنذكرها في مبحث طقوس الوفاة، ويجب أن يكون لون الملابس الدينية أبيضًا، ولكن في حالات كثيرة يكون لونها قد تغير بسبب مياه النهر وما تحمله من غرين. ويتم غسل هذه الملابس بطريقة عادية وبالمنظفات المتوفرة. أما طريقة تفصيلها فهي خاصة أيضًا، إذ يجب أن يخاط القميص مثلاً على عرض القماش دون أن يقص من عرضه، والعمامة يجب أن تحوي في أحد طرفيها على بداية (طول القماش). وتتكون "رستة" الرجل

والمرأة من نفس الأجزاء مع بعض الفروقات الطفيفة في تفصيلها من حيث الطول أو الحجم.

وأجزاء الملابس الدينية هي:

1. "سدرة": قميص طويل، يشبه الزي الهندي تقريبًا.
2. "دشة": قطعة قماش صغيرة تخاط على الجهة اليمنى من فتحة القميص وتشبه الجيب.
3. "شروالا": سراويل (بنطال) ويكون طويل بحيث يصل إلى القدم.
4. "تكة": الخيط الذي يشد السراويل على البطن ويعده البعض جزءًا من السراويل.
5. "برزينقا": العمامة، قطعة قماش مستطيلة، طولها غير محدد، إحدى حافتيها يجب أن تكون من بداية القماش المختومة، تلف حول الرأس عكس عقرب الساعة عدد من اللفات بحيث تبقى قطعة منها مدلاة على الصدغ الأيسر.
6. "تصيفة": وهي قطعة قماش عرضها بحدود (١٥) ملم، توضع حول الرقبة مثل الوشاح وتتدلى على جانبي الصدر وتثبت بالحزام، وتكون "تصيفة" المندائي العادي مختلفة عن "تصيفة" رجل الدين، إذ تكون الأولى أقل عرضًا بكثير (رأيت البعض يضع "تصيفة" حول رقبته كأنها خيط غليظ)، وهي مهمة جدًا بالنسبة لرجل الدين إذ يمسك بها المتعمد في بعض الطقوس، بينما لا دور محدد لـ "تصيفة" المندائي العادي.
7. "هميانة": حزام صوفي، ينسج من صوف نظيف يجب أن يكون قد جز من خروف ذكر حي، إذ يصنع من هذا الصوف بعد تنظيفه وتطهيره دينيًا (٦٤) خيطًا، ينسج من هذه الخيوط حزام أشبه بالحبل وبحساب غرز محدد (لأن للأرقام معان رمزية دينية)، وتكون نهايتها ذات (شراشيب)، ويكون ربطها حول الوسط فوق القميص بطريقة يعرفها المتدينون، ولا تترك نهايتيها بعد الربط سائبة إنما تدخل في الجانبين. ومن الجدير بالذكر، إن كلفة الـ "هميانة "اليوم تتراوح بين (٣) إلى (٥) آلاف دينار.

بالإضافة إلى ذلك يلزم رجل الدين (الشيخ) ما يلي:

٨. "تاغة": وهي تاج الكاهن ورمز سلطته الدينية، وهي سفيف من الحرير الابيض يضعه الكاهن فوق رأسه تحت العمامة، ويمنح للشيخ وقت تكريسه.

٩. "شوم ياور": خاتم الكهنوت، وهو من الذهب، يلبسه الكاهن في خنصر يده اليمنى وقد نقش عليه "شوم ياور زيوا".

١٠. "مركنة": صولجان الكاهن، وهي عصا من شجرة الزيتون رمز السلام. علمًا أن كل هذه الأشياء الإضافية (الخاتم والتاج والصولجان) يجب أن تدفن مع الكاهن عند وفاته.

أما الملابس الدينية التي تلبَّس للمحتضر فإنها متكونة من نفس الأجزاء ولكنها عادة تكون أعرض لكي تسهل عملية الباسه، ولا تسمى في هذه الحالة "رسته" وإنما "قماشه". ومن يتوفى في حادث مثلاً دون أن يهيء ويلبس "قماشه" تكون هناك عراقيل في عروج روحه إلى عالم الأنوار "آلمه آد نهورا"، لذا يسعى أهله إلى عمل طقس "قماشه" له حتى لو كان بعد وفاته، ويتم ذلك عادة في المناسبات الدينية مثل عيد الخليفة "بروانايا".

٢. الأعياد المندائية:

إن لطائفة الصابئة المندائية مجموعة أعياد، لعبت وتلعب دورًا مهمًا في تجميع أبناء الطائفة وتعارفهم والقيام بطقوسهم وتعريف الشباب بتقاليد الطائفة. وعلى الرغم من أن التزامات بعض الأعياد تمثل عبئًا على شباب الطائفة في بعض تفاصيلها، كما هو الحال في العيد الكبير وما يصاحبه من عدم خروج من البيت (الكرصة) وعدم التقرب من "يردنا" إذ يتم تخزين المياه للاستعمال في هذه الفترة، بل وكان كبار السن يمنعون أهلهم حتى عن استعمال الماء من أنابيب الإسالة في البيت، إلا أن بعض التخفف من هذه الطقوس طرأ على الأعياد، ويبقى

العيد مهمًا من الناحية الاجتماعية كونه سلوكًا جمعيًا تتوضح فيه حدود المقدس بالنسبة للجماعة.

والأعياد المندائية هي:

١. **العيد الكبير:** وهو عيد رأس السنة المندائية، ويصادف (٢٧-٢٨) تموز ويسبق بما يسمى "كنشي وزهلي" أي التنظيف والتهيؤ، وذلك لأن على كل مندائي أن يلزم داره لمدة (٣٦) ساعة اعتبارًا من مساء يوم (٢٧) تموز، ولا يجوز له في الفترة مس أي شيء غير طاهر، كما أنه لا يشرب ولا يأكل إلا مما اختزنه في داره قبل مساء اليوم المذكور. وتقول الميثولوجيا الدينية أن (الحي العظيم) "هي ربي" يسمح لملائكته الأطهار أن يزوروا عالم النور ثم يعودوا إلى أماكنهم، وأن هذه الرحلة مدتها (٣٦) ساعة، تخلو معها الأرض من قوى الخير وتكون مرتعًا لقوى الشر، لذلك يحرص المندائي على عدم لمس أي شيء غير متأكد من طهارته. كما يقرأ في هذا العيد طالع السنة القادمة من كتاب "اسفر ملواشة" وهو كتاب البروج، ولبعض الباحثين رأي مهم في تفسير أمر هذا العيد، مفاده أن أيام هذا العيد ترمز إلى محنة أو كارثة أصابت المندائيين فلبدوا (كرصوا) في دورهم خوفًا من البطش والقتل، وبعد مرور سبعة أيام يكون لديهم عيد يسمى عيد "شيشلام" أي عيد السلام، وفيه يعلق كل مندائي إكليلاً من الاس على باب داره، وحتى على أبواب الغرف في الدار وهذا دليل على فرحة عيد السلام.(١) وهو رأي مهم، إلا أنه تحليل ضني لا يعتمد على مادة تاريخية أو آثارية تسنده.

٢. **العيد الصغير:** ومدته يوم واحد، وهو يرمز إلى نزول أكبر الملائكة "هيبل زيوا" لقمع قوى الشر وكبح جماح شرها عن العالم، ويصادف في (١١/١٠) من كل عام، ومن شروطه إقامة كل عائلة مندائية وليمة طعام في دارها.

---

(١) غضبان رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص١٩١.

٣. عيد الخليقة "بروانايا": ومدته خمسة أيام، ومن هنا جاء اسمه المتداول (بنجه الفارسية) وهو إشارة إلى خلق العالم في أيامه الخمسة. ولهذه الأيام قدسية خاصة، فمن يتوفى خلالها لا يمر بالمطهر، وإنما يذهب مباشرة إلى عالم الأنوار "المة اد نهورا"، ويطلق عليه البعض (اليوم الأبيض)، باعتبار أن الأيام الخمسة هي أيام نور مستمرة، وتخصص أيام هذا العيد للتعميد الجماعي وإطعام الفقراء والترحم على أرواح الموتى وقراءة الأدعية ونحر الخراف ويصادف (٢٤) آذار، ومن الجدير بالذكر أن هذه الأيام الخمسة تسقط من حسابات السنة المندائية، إذ إن التقويم المندائي يتكون من سنة شمسية مكونة من (١٢) شهرًا وكل شهر فيه (٣٠) يومًا، وبذلك تكون السنة المندائية (٣٦٠) يومًا فقط، وهي مطابقة للتقويم البابلي، وعند إضافة أيام "البرونايا" الخمسة يكون الفرق قليلاً بين السنة المندائية والسنة الشمسية الميلادية !!

٤. عيد "دهب اد ايمانه": وهو عيد مولد النبي يحيى (ع)، ويسمى أيضًا عيد التعميد الذهبي، إذ أن كل تعميد في هذا اليوم يعادل (٦٠) تعميدًا في الأيام الأخرى ويقع في (٢٨) مايس.

وهناك يوم أواخر كانون الثاني من كل عام يطلق عليه (العاشورية)، وفيه يتوجب على كل عائلة مندائية أن تطبخ كمية من الهريس، تقرأ عليه الأدعية والترحم على أرواح شهداء المندائية الذين غرقوا في البحر الأحمر بعد تعقبهم لبني إسرائيل (قوم موسى) وقت هروبهم من مصر، وفي ذلك إشارة إلى جند ملك مصر(فرعون) المندائيين الذين ماتوا غرقًا.

الفصل الرابع

النسق الديني ـ الطقوس

المبحث الأول: دور الكواكب، دور الماء، دور الملائكة في الطقوس

المبحث الثاني: الصوم والصلاة

المبحث الثالث: التعميد

المبحث الرابع: طقوس الزواج

المبحث الخامس: طقوس الموت ومصير الإنسان

إن لكل شعب من الشعوب مفهومه الخاص عن القوى العلوية التي يرتبط بها الإنسان بشكل أو بآخر. وتختلف أنواع القوى العلوية من مجتمع لآخر، وتتباين بالقدر نفسه طرائق التعاقد والتأثير والتحكم والتقرب والتضرع لهذه القوى. وتشكل الطقوس والاحتفالات أهم الوسائل التي يتوسل بها الإنسان للتقرب من القوى العليا لكي يحقق علاقة جيدة، ومن تلك الطقوس نجد الصلوات والتقدمات والأضاحي، وكذلك ترديد الترانيم المقدسة وإجراء بعض الحركات بالجسم التي تبدأ بالاهتزاز البسيط عند القراءة وتنتهي بالرقصات أو الآداء التمثيلي لبعض الطقوس. ويجب أن نذكر في بداية هذا المبحث أن العقائد الدينية – وعلى الأخص تفاصيل الطقوس والإحتفالات – تحفظ عادة وتسرد في الأساطير والحكايات الدينية. ونجد أن في الدين المندائي سردًا للطقس عن طريق القص الميثولوجي في الكتب المقدسة، بل هنالك كتب خاصة فيها الترانيم أو التراتيل الخاصة بذلك الطقس، مثال ذلك طقس الزواج إذ يعتبر كتاب "القلستا" مخصصًا لترانيم الزواج المندائية حيث تختلط الميثيولوجيا الدينية مع إجراءات الطقس الحركية مع ما يصاحب ذلك من شروط والتزامات، كما سنلاحظ في مبحث خاص بذلك ويمكن إن نقرأ هذه النقطة بوضوح في "بوثه" إصحاح "فراش العريس"(١).

وربما كان أفضل تعريف للطقوس هو أنها طرق مرسومة لآداء تصرفات دينية، مثل الصلوات والترانيم المقدسة وحركات الجسم وتقديم الأضحيات أو إعداد التقدمات. ومن جهة أخرى، فإن الاحتفال يتضمن عددًا من الطقوس المتصلة بعضها ببعض، والمترابطة والمؤداة في وقت معين ومحدد. بيد أن تمييزًا أكثر فائدة يمكن أن يعمل في ضوء الوظائف التي تؤديها الشعائر والاحتفالات، فهناك شعائر أو طقوس تتمركز حول أزمات الحياة المختلفة، وهي احتفالات تسم مناسبات معينة مثل الميلاد، الزواج، الموت، التسمية، وغالبا ما تعتبر طقوس انتقال من حالة إلى أخرى. وهناك نوع آخر يسمى طقوس التشديد أو التقوية، وهي الطقوس والاحتفالات التي تسم مناسبات أو أزمات في حياة المجتمع المحلي

---

(١) القلستا، ترانيم الزواج المندائية، ترجمة امين فعيل حطاب، بغداد ٢٠٠٣م ص٣٠ وما بعدها

ككل[١]، ومثال ذلك ما نراه في أعياد الطائفة مثل طقوس "البنجــه" أو "الكرصــة". وقد تكون هناك طقوس تخدم الغرضين، مثل إقامة الوجبات الطقــسية علــى روح الميت في عيد "البروانايا – البنجة" أو "القماشة"... إلخ وسنلاحظ ذلك في تفاصــيل الطقوس.

(١) رالف بليز، هاري هويجز، الأنثربولوجيا العامة – ترجمة محمد الجوهري وآخرون، الجــزء الثــاني- مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة – نيويورك، ١٩٧٧، ص٦١٥-٦١٦.

المبحث الأول

دور الكواكب، دور الماء، دور الملائكة في الطقوس:

١ - دور الكواكب:

كما لاحظنا في مبحث: (المقدسون) السابق، أن "الكنزا ربا" الكتاب المقدس يعتبر أن الكواكب مخلوقات شريرة بالنسبة للجنس البشري، إلا أن هناك أفكار معقدة ومختلطة في هذا الموضوع، إذ أن كل كوكب من الكواكب موكل به عدد من "الإثري" يركبون فلكه ويحدون من شروره، وبالتالي، إذا كان هناك مظاهر تقديس فهي للكائنات النورانية الموجودة على الكواكب. ولربما نجد بعض التجاوزات على هذه الفكرة، أو بعض التجريدات التي تبدو غير واضحة، عندما لا يتم تأمل الموضوع بدقة، فمثلا يمكن أن نلاحظ أن "شامش" الشمس يسير كسائر الأرواح الفلكية في دورته عبر فلك حدده له "هيبل زيوا" بعد القضاء على تمرد قوى الظلام كما مر بنا، واوكل أمره لبعض "الإثري"، وبالتالي يمكن أن نجد بعض التطابقات بين "شامش" و"ياور زيوا" الملاك الموكل بأمر الشمس(١). إلا أن هناك فكرة عالية التجريد لاختلاط الخير والشر، إذ يركب مع "شامش" في فلكه ثلاثة شخصيات؛ إثنان من قوى النور هما "سام مانا" و"سميرا"، ويمثل ثالثهما قوة من قوى الظلام هو "أدوناي". و"أدوناي " هذا - الذي يركب فلك الشمس - هو المسؤول عن الضرر الذي تحدثه أشعتها أحيانًا، ويروى أن من عينيه تندلع أشعة تلفح وتحرق، ومن نظراته تنطلق الزوابع والأعاصير، إلا أن المشع في "شامش" هو العلم أو الراية "درفش" التي يحملها ملاكا الخير، والتي ترسل أشعة نافعة وتهب النور والحياة، وقد يفلح ملك الظلام أحيانًا بوضع شيء أمام العلم وهذا ما يسبب الكسوف، ويعمل "سام مانا" و"سميرا" على دفع النتائج الضارة لملك الظلام.

وكذلك الحال بالنسبة للقمر "سين"، إذ تنتقل إليه الأرواح النورانية بالتدريج إلى إن يكتمل عددهم عند اكتمال القمر ويكون بدرًا، ثم يبدأون بالتناقص حتى

---

(١) الليدي دراوور، مصدر سابق، ص١٣٧.

يغادره آخرهم، ويكون آخرهم هذا هو ملك الظلام "ملكة دهشوخا". وعندما سألت "يلوفا" (وهو مثقف ديني من غير سلك الكهنوت) عن الموضوع قال إن الخوف من القمر يتجلى عندما يكون في تمام بدره، لأن قواه الشريرة تكون في أقصى قوتها، ومن المفضل أن لا يقترب الرجل من زوجته في الأيام التي يكون فيها القمر بدرًا خوفا من أن يحدث حمل في هذه الساعات، لأن قوى الشر تكون في أقصاها وبالتالي فإنها ساعات (شيطانية) لا (رحمانية). ويذكر في ديوان "أباثر" أن القمر يعتبر مسؤولا عن الإجهاض والعاهات(١).

ويروى أن الزورق الفلكي الصغير خلف زورق "شامش" مباشرة في تصاوير "ديوان أباثر" يعود إلى "ليبات" (الزهرة)، حيث يمكن أن نقرأ تحت أحد الشخوص (هذه شبيهة ليبات وهي جالسة فوق جبل "شامش" ولها سبعة أسماء)، وكثيرًا ما تذكر "ليبات" في عمل الرُقى، ووظيفتها الخاصة أن تساعد في شؤون الحب والتناسل وتتبئ عن المجهول(٢). أما مارس "نيرغ" فهو رب السحاب والرعد الذي يضع المطر ويسحب - بالاشتراك مع "شامش" - الماء من الأرض إلى السماء. وينظر المندائيون إلى "نيرغ" على أن صفته الحرب وحب الخصام، أما "أوبيل" (المشتري) فنادرا ما يذكر ما عدا في التعاويذ من الشياطين التي تسبب المرض أمثال حسد العين "بشرة آد اينه"، ومن المحتمل أن واجباته قد تولاها "ياور زيوا" و "هيبل زيوا" و "ملكا زيوا".

ويعتبر عطارد "أنبو" رب الكتابة والكتب ورب الحكمة والمعرفة، ولا يظهر زحل "كيوان" إلا قليلاً في الرقى ما عدا الدواوين الطلسمية، إذ تكتب "القماهة" (التميمة) باسمه لتشفي من الجنون.

---

(١) DROWER, E. S. DIWAN ABATUR, OR PRATUR, OR PROGRESS THROUGH THE PURGATORIES, CITTA DEL VATICANO, 1950, P. 40.

(٢) E. S. DROWER, DIWAN ABATUR, OR PRATUR, OR PROGRESS THROUGH THE PURGATORIES, CITTA DEL VATICANO, 1950, P. 42

ويجب أن نمر على مسالة مهمة جدًا، وهي أن لكل صابئي مندائي اسمان، اسَم دنيوي متعارف عليه، واسم ديني هو "اسم الملواشة"، واسم الملواشة قائم على حسابات فلكية دقيقة، ويعتبره المندائيون الاسم الحقيقي للشخص، كما ويستعملونه في جميع المناسبات الدينية والطقسية، وينسب الشخص المندائي في الاسم الديني إلى الأم بدل الأب، و يعزوا بعض الباحثين هذه المسالة إلى فترة كانت السيادة فيها للام.

وتوجد في أحد الكتب المقدسة، التي أُشير إليها في مبحث سابق، وهو "اسفر ملواشة" حسابات فلكية لحساب واختيار اسم الطفل المندائي، إذ أن لكل "ملواشة" قيمة عددية عرفية، وليس للحروف المندائية قيمة عددية كما هو الحال في الحروف العبرية و السريانية والعربية. ويحتفظ رجال الدين بقوائم لهذه الاسماء، ويقترحون من بينها واحدًا على الوالدين بعد أن يقوموا بحساباتهم. ولا تكون الأسماء "الملواشة" ذات مصدر ديني دائمًا، وإنما هناك الكثير من الأسماء لشخصيات مقدسة مثل (آدم، يهيايهانا، هرمز... إلخ) وهناك أسماء ليست ذات صبغة دينية مثل اسم "ياسمن".

ومن ذلك نلاحظ أن الكواكب دينيًا هي كائنات محسوبة على قوى الشر، ولكن توجد عليها كائنات نورانية هي المقدسة، وقد حدث بسبب قدم الدين دخول بعض الخلط لدى العامة أو غير المتفقهين في الدين، ومن ذلك يأتي اتهام البعض، بأنهم عبدة الكواكب وواقع الحال غير ذلك تمامًا.

٢. دور الماء:

يكاد أن يكون الماء عنصرًا حاضرًا في كل مقدس وفي كل ديانة، وهذا يرجع إلى ما للماء من أهمية كونية وما له من ارتباط وثيق بحياة البشر، سواء أكانوا أفرادا أو جماعات أو شعوبًا.

فيأخذنا هذا العنصر موغلاً في التاريخ الميثولوجي للحضارات القديمة ومنها الحضارة الرافدينية، وقد أشرنا سابقًا إلى التشابه في الجذر المائي للديانة السومرية ومن بعدها البابلية وبين الديانة المندائية.

ويتجلى الماء في فلسفة الأديان في أكثر من مبدأ فلسفي. فقطرات الماء الساقطة من السماء على شكل مطر يسبب إنماء وآرواء الأرض، كان لها مغزى كبير وعميق في التفكير الإنساني، فهذه القطرات في الأساطير الدينية تمثل المني الذي يطلقه الذكر (المتمثل في السماء الواهبة) لتخصيب الأنثى (المتمثلة في الأرض)(١). كذلك كون الماء عنصرا رمزيا للتنظيف والطهارة وغسل الذنوب عند البشر، فأن الماء الحي "ميا هيي" يمثل شعارًا وصفة ملازمة، من الناحية الفكرية والطقسية، للديانة المندائية. وللماء قدسية عظيمة وواضحة في الديانة المندائية، ولكن ليس كل ماء هو مقدس، وإنما فقط الماء الجاري الحي الذي يطلق عليه "يردنا"، وهناك الماء الراكد أو الميت الذي ترفضه الديانة المندائية. وقد سألت "يلوفا" (مثقف ديني) عن طقوس تعميد "المندي"، وهل ما زالت تجرى بالطريقة القديمة نفسها، فبدأ يشرح لي قائلاً: نحن نعتقد أن "ميا هيي"هو جزء واحد من المياه الموجودة على الأرض الفانية "ارا اد تيبل" والأجزاء الثمانية الباقية من المياه هي "ميا سياوى" الماء الميت.

وفي الفكر الديني المندائي نجد أن "اليردنا" أو الماء الحي كان سببًا في إنعاش الحياة على الأرض، فهو بمثابة مادة الحياة، لأن الأرض عند خلقها لم تكن روح الحياة فيها متيسرة، فكانت مليئة بالماء الآسن الأسود الذي خرجت منه الأرواح الشريرة والشر. وبامتزاج "يردنا" (السماوي) بمياه الأرض غير الحية إزدهرت الأرض وانتشرت رائحة الحياة عليها. نقرأ في الكاتب المقدس "كنزاربا- يمين"؛

---

(١) الترميذا علاء النشمي، أسطورة الماء في الأديان، فكرًا وطقسًا، مقال منشور على موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر بتاريخ ٢٠٠٥/١/٣، WWW. MANDAANUNION. ORG.

من بيت هيي جيء بالماء الحي، دفقة من الماء الحي، جيء بها من بيت الحي، و ألقيت في العالم، حزن الماء الحي و شكا... وتألم وبكى[١] .

وقد عيّن اثنان من الإثريين المهمين لحراسة "اليردنا" هما "شلماي"و "ندباي"، وعندما نقرأ الأدب الديني المندائي نجد كينونة الماء الحي، فهو (ذات) مستقلة تتحدث وتتالم وتفرح وتبارك:

قال لشلماي وندباي من سحب يدي؟ وقطعني عن بلدي؟ من أبعدني عن المعرفة التي هي أزكى؟ من أقصاني عن الكشطا؟ وعن الكنا واللوفا، من فصل بيني وبين الإثريين في بلد النور؟ مظلمة هيئة البلد الذي أنا ذاهب إليه، مشفق أنا منه، ومشفق عليه، موجع أنا. . ساهم مفتكر[٢].

وليس كل ماء جار هو "يردنا"، وإنما يعتبر جزء منه "يردنا" سماوي ينبع من عوالم النور العليا السماوية "آلمة اد نهورا"، وعملية امتزاج "يردنا" السماوية الجارية في عوالم النور المحملة بالحياة والنور بـ "يردنا" الأرضي، تعطي للأخيرة صفة الحياة والقوة على البعث والإخصاب، ولذلك فإن وجود "يردنا" السماوية في "يردنا" الأرضية يثبت وجود العلاقة الحياتية بين عالم النور "آلمة اد نهورا" وعالم الظلام "آلمة اد هشوخا" التي من ضمنها الأرض البالية (ارا آد تيبل)[٣]. وهذا يعني أن روح الحياة متيسرة في هذا العالم.

وبحسب الفكر المندائي أن هذا الاتصال مهم جدًا بين الماء الجاري الحي العلوي والماء الجاري الأرضي. وإن لم تصب المياه العلوية في المياه الأرضية ستبقى الأخيرة سوداء غير حية كما كانت قبل الخلق. وتجدر الإشارة هنا إلى أن فكرة الأنهار النابعة من السماء موجودة في كثير من الميثولوجيا الدينية، فهي موجودة في الدين اليهودي[٤] وفي الأحاديث المروية عن النبي محمد (ص). ومن

---

(١) كنزا ربا- يمين، طبعة بغداد، مصدر سابق، الكاتب السابع عشر، التسبيح الثالث، ص٢٧٤.
(٢) كنزا ربا- يمين، طبعة بغداد، مصدر سابق، ص ٢٧٢-٢٧٥.
(٣) الترميذا علاء النشمي، مصدر سابق ص٣.
(٤) الكتاب المقدس -العهد القديم- سفر التكوين ٢:١٣.

أهم الأنهار التي كانت تعتبر أنها تنبع من منبع سماوي هو (نهر الفرات)، وهذه الفكرة موجودة في الأدب الديني المندائي أيضًا اذ يطلق عليه "فرات زيوا"، أو الفرات النوراني.

الخلاصة إذن أن "يردنا" الأرضية تغذيها "يردنا" السماوية وتعطيها صفة الحياة والديمومة، و"يردنا " السماوية هي عبارة عن نور الله المتجسد في الماء، كما أن "يردنا" هي المادة أو المصدر الذي تزوّد منه الكائنات الأثيرية والأرضية على حد سواء بالقوة والحياة.

وأن الماء الحي "ميا هيي – يردنا" هو جوهر طقس التعميد المندائي "المصبتا – الصباغة" الذي سنبحثه في مبحث منفرد خاص به. و"يردنا" عمومًا يرمز إلى صفة الأب وعنصر الحياة (السائل الحيوي للحياة والتكوين) في الفكر والممارسة الطقسية المندائية، فـ "يردنا" هي نفسها التي سيولد بها الإنسان "المصطبغ "(المتعمد) مرة أخرى تاركًا خطاياه بعيدة، فالماء إذن مغذ ومنعش ومطهر دائمًا.

٣. دور الملائكة:

عند قراءة الأدب الديني المندائي، وهو غزير ومتنوع كما لاحظنا سابقًا، سنصل إلى التصور التالي المتأتي من الطبيعة الغنوصية للدين المندائي؛ إذ يميز المندائيون بين الخلق في العالم السماوي، عالم الأنوار، وعملية الخلق في العالم السفلي، العالم المادي. ففي العالم الأول تتم سلسلة من عمليات الخلق القائمة على أساس (الكلمة) أو المناداة، يتكون نتيجتها من يسكن عالم السماوات الروحاني من ملائكة مطهرين "إثري"، مهمتهم تنفيذ ما يأمر به الإله الأعلى، ويُرمز له عادة بـ(الحي العظيم) "هيي ربي". وفي العالم الثاني ينتج عن عملية الخلق عالم مادي يضم الأرض والكواكب والنجوم، أي يضم الكون – كما يصطلح على تسميته – ومن يوجد فيه من كائنات حية وغير حية.

وعالم النور العلوي مكوّن من ثلاث طبقات، العليا والوسطى والسفلى "آلمه دنهورا ايلايا" و"المة دنهورا ميصايا" و"المة دنهورا تيتايا"، ويوجد في أقصاها الإله الأعلى (الحي العظيم)، إذ لا يراه أحد، ولا يعرف عنه أحد سوى من يختاره هـو. وفي الأدب المندائي نلاحظ أن: لا أحد يعرف (الحي العظيم) سوى "منداد هيي" أي (عارف الحي)(١)، وأن هذا العالم لا يحدد له موقع أو زمـان، وتقطنـه الكائنـات الروحانية كما أسلفنا.

وتلعب الكائنات الروحانية "الإثري" دوراً كبيراً في كل طقس مـن طقـوس الدين المندائي، فمن الطقوس البسيطة واليومية والمتكررة، إلى الطقوس الخاصـة أو، - إذا جاز التعبير- (الاحتفالية)، نجد ذكر عدد كبير من الملائكة الإثريين. ففي أبسط الطقوس (الوضوء مثلاً "الرشامة") نجد ذكر الملاك "برياويس"، أبـو المـاء الجاري "اليردنا"، ثم يُذكر "منداد هيي" عارف الحي و "بهرام ربا". أمـا الـصلاة "البراخا" التي تقام ثلاث مرات في اليوم، فإنها تبدأ بذكر (الحي العظيم) و"عـارف الحي" وتسبيحات وتبريكات، ثم يبدا ذكر السلام والنزاهة للملائكة، ويتجاوز عـدد المذكورين بالاسم من الملائكة أكثر من خمسين ملاكاً(٢)، وكذلك يذكر الملائكة في المعمودية، إذ يقال: (تعمدت بعماد بهرام ربا)، وكذلك يذكر اسم (الحـي العظـيم) وعارف الحي، ثم تأتي خطوة طقسية أخرى تسمى سلام الحياة أو "فرة الطريانا"، وهي جزء من التعميد يدور فيه المتعمد حول المبخرة ثلاث دورات باتجاه عقـرب الساعة، فيقول المتعمد (السلام والنزاهة إليكم أيها الملائكة والإثريـون والمـساكن "مشاكن"، الملائكة والإثريين الموجودين في عالم الأنوار والمياه الجارية والجداول الجارية وعلى ساكني عالم الأنوار جميعًا)(٣). وكذلك يذكر عدد كبير من الملائكـة في طقوس الزواج والوفاة والوجبات الطقسية "اللوفاني"، وفي ذبح الحيوانات وفـي كل طقس مندائي كما سنرى تفصيلاً.

---

(١) عزيز سباهي، مصدر سابق، ص ١٥٥.

(٢) الشيخ رافد الشيخ عبد الله نجم، تأليف واعداد وترجمة، الصلاة المندائية وبعض الطقوس الدينيـة، ط١، بغداد ١٩٨٨، شركة التايمس بغداد، ص١٨ وما بعدها.

(٣) الشيخ رافد الشيخ عبد الله، مصدر سابق، ص٤٢.

المبحث الثاني

الصوم والصلاة

الصـــوم "صوما":

إن الصيام الأكبر "صوما" بالنسبة للصابئي المندائي هو الكف عـــن الأذى إذ جاء في التعاليم:

يا أحبائي

أيها المؤمنون بي:

صوموا الصوم الكبير، صوم القلب والعقـــل والـــضمير، لتَـــصُم عيـــونكم وأفواهكم وأيديكم. . لا تغمزُ ولا تلمزُ، لا تنظروا إلى الشر ولا تفعلوه، والباطل لا تسمعـــوه، ولا تنصتوا خـــلف الأبـــواب، ونزهوا أفواهكم عن الكذب، والزيف لا تقربوه، أمسكوا قلوبكم عن الضغينة والحسد والتفرقة. أمـــسكوا أيـــديكم عـــن القتل والسرقة، أمسكوا أجسادكم عن معاشرة أزواج غيركم، فتلـــك هـــي النـــار المحرقة، امسكوا ركبكم عن السجود للشيطان والأصنام الزيف.

أمسكوا أرجلكم عن السير إلى ما ليس لكم. إنه الصوم الكبير فلا تكسروه، حتى تفارقوا هذه الدنيا، من أخطأ ثم تاب، ثم إلى رشده ثـــاب، فـــإن الله غفـــور رحيم، هو ملك النور الحنّان التوّاب الكريم[(١)].

أما الصوم عن الطعام والشراب فهو يقتصر على الامتناع عن تناول اللحوم فقط، وذلك في أيام معينة من السنة يبلغ مجموعها ثلاثة وثلاثين يومًا، وهي عـــادة تسبق الأعياد الدينية أو تلحقها، وذلك لأن الأعياد تمثل لدى المنـــدائيين انعطافـــات هامة في مجرى حياة الناس، لذلك نجدهم يستقبلونها أو يودّعونها بما يستوجب من

---

(١) كنزاربا – اليمين، مصدر سابق، الكتاب الأول، التسبيح االثاني (الوصايا) ص١٤.

إحترام أو حذر أو هيبة، ويظهرون شعورهم هذا بالحد من شهواتهم الدنيويه وذلك بتركهم أكل اللحوم بأنواعها.

وأيام الصيام هي "المبطلات"، إذ يبطل فيها النحر[١]. ويجب أن نذكر هـذه المواعيد لأيام الصيام وكما يلي:

١. شباط: من (١-١٤)، أربعة عشر يومًا بعد العيد الكبير، ويوم (٢٢) منه.
٢. آذار: ٢٥
٣. نيسان: ....
٤. آيار: ١، ٢، ٣، ٤ قبل العيد الصغير
٥. سيوان (حزيران): ....
٦. تموز: ٩، ١٥، ٢٣
٧. آب: . . . .
٨. ايلول: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠
٩. تشرين أول: ١، يوم واحد بعد العيد
١٠. تشروان (تشرين الثاني):. . . . . . .
١١. كانون الأول: ٢، يوم واحد بعد العيد "اد هيا اد مانا "
١٢. طابيت (كانون الثاني): ٢٨، ٢٩ يومان قبل العيد الكبير[٢].

الصلاة المندائية "البراخا":

تعتبر الصلاة عند المندائيين ركنًا أساسيًا من الدين، وقد فرضها "منداد هيي" (عارف الحي) على كل صابئي مندائي، وجعلها خمس مرات يوميًا، بأمر من

---

(١) ناجيه مراني، مصدر سابق، ص١٢٥

(٢) Drower ,Trans The Thousand and Twelve Questions, p 199 -200 .
نقلا عن ناجية مراني، مفاهيم مندائية، مصدر سابق، ص١٢٥.

الخالق، فبعد إكمال الوضوء "الرشامة" يتجه المصلي نحو "بيت هيي" أي القبلة باتجاه الشمال، الذي يمثل باعتقادهم وجود عالم النور "آلمه اد نهورا"، ويكون الدليل إلى الشمال الجغرافي هو النجم القطبي، أو جعل اليد اليمنى باتجاه شروق الشمس(١).

وعندما تُقرأ التراتيل الخاصة بالصلاة يجب أن يكون المصلي واقفًا، إذ لا يوجد في الصلاة المندائية ركوع وسجود مثل الصلاة الإسلامية، وإنما هناك انحناء كلما ذكرت أسماء الله أو صفاته. ويجب على المصلي أن يرتدي غطاءً على رأسه رمزًا للاحترام، والصلاة هي عبارة عن تراتيل وذكر لصفات الله الخالق والملائكة النورانيين.

وللصلاة نواقض أو موانع مثل الحيض وفترة النفاس عند المرأة، والجنابة عند الرجل، والأيام المحرمة "المبطلات" التي مر ذكرها في مبحث الصيام، كما وتوجد مبطلات للصلاة مثل الكلام أثناء الصلاة والبكاء والأكل والشرب والضحك وكل ما يخل بقدسية الصلاة أو يخالف الآداب، فإذا حدث ذلك بطلت الصلاة وتحتم إعادتها.

ويجب أن نشير إلى أن عدد الصلوات اليومية تم انقاصها في عهد النبي يحيى "يهيا يهيانا" من خمس إلى ثلاث، الصلاة الأولى في الصباح الباكر بعد بزوغ الشمس مباشرة، والثانية عند الظهيرة (في منتصف النهار)، والثالثة عند العصر قبيل غروب آخر ضياء(٣).

ويتحتم على الفرد المندائي أن يترسم بالماء (الوضوء "الرشامة") قبل إجراء أي طقس ومنها الصلاة كما بينا. ومن الجدير بالذكر أنه في بداية القرن المنصرم كان يتوجب الوضوء بالماء الجاري "اليردنا" من الأنهار أو الينابيع، أما اليوم

---

(١) الشيخ رافد الشيخ عبد الله الشيخ نجم، عضو المجلس الروحاني الأعلى لطائفة الصابئة المندائيين، الصلاة المندائية وبعض الطقوس الدينية شركة التايمس الطبعة الأولى، بغداد ١٩٨٨، ص١٨.

(٣) أمين فعيل حطاب، (الرشامة والبراخة)، إعداد لجنه النور المندائية، بغداد ٢٠٠٣ ص١ – ما بعدها

فيمكن أن تتم "الرشامه" بمياه الإسالة في الأنابيب، ويعتبرهذا التغيير من ضمن التغيرات التي طرأت على الطائفة بعد أن تغير سكناها من مناطق الجنوب إلى المدن الكبرى مثل بغداد والبصرة(١). إن "الرشامة" تقتصر على الجلوس فقط، ومدّ اليد فوق الماء دون لمسه لأخذ الرخصة للشروع بالوضوء، ورفع اليد اليمنى للأعلى والقول(٢) **(تبارك الماء العظيم ماء الحياة مسبح الرب، بالعهد مصان باسم الحي العظيم السلام والتزكية لك يا أب الآباء الملاك برياويس، ملك الماء الجاري العظيم ماء الحياة).**

ثم تغسل اليدين إلى المرفقين مع القول **(باسم الحي العظيم طهرت يدي بالحق وشفتي بالإيمان لينطقا بكلام النور، وأفكاري تدخل في عقيدة النور)**

ثم يغسل الوجه مع القول **(مبارك اسمك ومسبح اسمك سيدي "منداد هيي" عارف الحي، مبارك ومسبح ذلك الجلال العظيم الموقر الذي انبعث من ذاته)**، ثم تغمس أصابع اليد اليمنى بالماء وتمسح بها الجبهة ذهابًا من اليمين إلى اليسار، وفي كل مرة (ثلاث مرات) يعاد المقطع الآتي **(أنا "الاسم الديني – الملواشه" ارتسم برسم الحي، اسم الحي واسم عارف الحي مذكور علي)**

ثم تغسل الأذنين إذ تغمس السبابتان بالماء وتنظف بهما الأذنين ثلاث مرات مع القول **(أُذناي تسمعان أقوال الحي)**

ثم يغسل الأنف بأخذ قليل من الماء براحة اليد اليمنى، ويُستنشق ويُرمى إلى جهة اليسار ويكرر ذلك ثلاث مرات، وفي كل مرة يقال **(أنفي يستنشق رائحة الحياة)** ثم يثبت الارتسام إذ يصار إلى غسل الأعضاء التناسلية والشرج بطريقة تمثيلية لأنها تكون قد غسلت قبل الشروع بالرشامة، لذا يرش الشخص الماء من يده اليمنى إلى يده اليسرى وبها يرمي قليلاً من الماء إلى مقعده وفي هذه الأثناء يتلو المقطع الآتي(**رسمي العالي لا يجري بالنار، ولا يجري بالزيت ولا يجري**

---

(١) غضبان رومي، الصابئة، مطبعة الامة، بغداد، ١٩٨٣، ص١٣٩ –١٤٠.

(٢) كل النصوص الوارد ذكرها في الوضوء أخذت من، (الرشامة والبراخه) (الوضوء والصلاة)، إعداد لجنة النور المندائية) ترجمة أمين فعيل حطاب، بغداد، ٢٠٠٣

بالمسح، رسمي مرسوم بالماء الجاري العظيم، ماء الحياة، الذي لا يدرك الإنسان قدرته، اسم الحي العظيم واسم عارف الحي مذكور على)

ثم تجري عملية طرد النجاسة إذ يلقى المتبقي من الماء الذي في اليدين إلى جهة اليسار، ويقرأ المقطع الآتي مرة واحدة (**ابتعد أيها الظلام، واثبت أيها النور، اسم الحي واسم عارف الحي مذكور علي**).

ثم يغسل الفم، إذ يؤخذ قليل من الماء براحة اليد اليمنى، ويمضمض به ويرمى إلى جهة اليسار ثلاث مرات، ويعاد المقطع الآتي في كل مرة بعد رمي الماء من الفم (**فمي امتلئ آيات وتسبيحًا**)، ثم يؤخذ قليل من الماء في أصابع اليدين ويمسح بهما على الركبتين وتعاد ثلاث مرات وفي كل مرة يعاد (**ركبتاي تنثنيان وتسجدان للحي العظيم**)، ثم يؤخذ قليل من الماء في أصابع اليدين ويمسح بهما على الساقين من الأعلى إلى الأسفل، ويُعاد ذلك ثلاث مرات وفي كل مرة يقال (**رجلاي سالكتان طريق الحق والإيمان**)، ثم يضع الراشم أطراف أصابع يديه في الماء ويتلو المقطع، وعند وصوله إلى البسملة يرش الماء على الرأس ويعيد ذلك ثلاث مرات مع إعادة المقطع الآتي (**باسم الحي العظيم، أنا "الاسم الديني" اصطبغت بصباغة الملاك بهرام الكبير ابن العظمة، صباغتي تحرسني وترفعني إلى العلا، اسم الحي واسم عارف الحي مذكور علي**)، ثم يقف الراشم بعد أن كان جالسًا، ويمد قدمه اليمنى ويغمسها في الماء وبعدها يغمس قدمه اليسرى ومن ثم اليمنى. . ثلاث مرات ويقول في كل مرة (**ليرفع عن رجلي ويدي تسلط السبعة، والإثنى عشر[1]، اسم الحي واسم عارف الحي مذكور علي**).

ونلاحظ في كل اجراءات الوضوء "الرشامه"، وفي كل خطوة ثمة تأكيد على ذكر (الحي العظيم – هيي ربي) واسم عارف الحي "منداد هيي"، وتأكيد على طهارة وقدسية اليمين مقارنة باليسار، فكل طقس يبدأ باليمين وينتهي باليسار

---

(١) الإشارة في القول (السبعة) إلى الكواكب السبعة و(الإثنى عشر) إلى الأبراج وكما رأينا في مباحث سابقة أنها من قوى عالم الظلام وقوى الشر، وأن الحي العظيم قرر وضع ملائكة عليها لتحد من تسلطها على البشر، وأن على كل كوكب وضع (هيبل زيوا) الملاك المهم، أثريين للقيام بذلك.

الملوث، فغسل الأنف يتم إلى جهة اليسار، وكذلك مضمضة الفم إذ يلقى الماء إلى جهة اليسار ... إلخ.

أما أداء الصلاة فتبدأ بالتبريكات، وهي ترتيل يقرأ قبل كل صلاة بعد إكمال الوضوء الذي يعتبر مدخلا لأداء الصلوات، وتقرأ كل الصلوات والتبريكات بصوت مسموع.

وفيما يلي التبريكات بالنص العربي[1]:

ا. موجود الحي، موجود الله، موجود مندادهيي

ب. بعالم الأنوار بشهادة الحي وبشهادة ملك عالم الأنوارالعظيم الإله الذي من نفسه تكون.

ج. لا باطل ولا مبطل اسمك يا حي ويا الله ويا منداد هيي

١. مسبح ربي، بالعهد مصان.

٢. بأسماء الحي العظيم.

٣. السلام والنزاهة لك يا أبانا العضيم في منزل الرحمة الموقر.

٤. السلام والنزاهة إليكم آباءنا الأولين الموقرين.

٥. السلام والنزاهة لك يا كنز الحياة العظيم الأول الموقر.

٦. السلام والنزاهة لك أيها الملك مارا اد ربوثا إليثا.

٧. السلام والنزاهة لك أيها الملك يوشامن الطاهر ابن التكوين.

٨. السلام والنزاهة لك أيها الملك منداد هيي ابن التكوين.

٩. السلام والنزاهة لك أيها الملك هيبل زيوا.

١٠. السلام والنزاهة لك أيها الملك انش الإثري.

---

(١) الشيخ رافد الشيخ عبد الله الشيخ نجم، الصلاة المندائية، مصدر سابق، ص٢١ وما بعدها

١١. السلام والنزاهة لك يا ملك السلام العظيم.

١٢. السلام والنزاهة لك أيها الملك سهاق زيوا العظيم الأول.

١٣. السلام والنزاهة لك أيها الملك سام زيوا الطاهر المبروك المحب للعظيم الأول.

١٤. السلام والنزاهة إليكم هيبل وشيتل وانش.

١٥. السلام والنزاهة إليكم اد ثان ويد ثان.

١٦. السلام والنزاهة إليكم شلماي ونـدباي الأثريان الحارسان للماء الجاري.

١٧. السلام والنزاهة اليكم الأربعة الإثريون أبناء الضياء.

١٨. السلام والنزاهة إليكم الرجال الأربعة أبناء السلام.

١٩. السلام والنزاهة إليكم أنصاب وانن نصاب.

٢٠. السلام والنزاهة إليكم سار وسروان.

٢١. السلام والنزاهة إليكم زهير وزهرون وبهير وبهرون وتار وتروان.

٢٢. السلام والنزاهة إليكم ارفنييل ومارفييل.

٢٣. السلام والنزاهة إليكم يوفين ويوفافين.

٢٤. السلام والنزاهة إليكم أيام الأحد الصالحة.

٢٥. السلام والنزاهة لك أيها الملك بهرون وكنفنييل.

٢٦. السلام والنزاهة لك يا ملك الرايات العظيمة.

٢٧. السلام والنزاهة لك أيها الملك شهلبون الإثري.

٢٨. السلام والنزاهة لك أيها الملك برباغ الإثري.

٢٩. السلام والنزاهة لك أيها الملك شنكلان.

٣٠. السلام والنزاهة لك أيها الملك لهدايا العظيم الصادق.

٣١. السلام والنزاهة لك أيها الملك اتنصب زيوا.

٣٢. السلام والنزاهة لك أيها الملك اد كاس مانا.

٣٣. السلام والنزاهة لك أيها الملك اد كاس ملالا.

٣٤. السلام والنزاهة لك يا ملك الهواء النقي.

٣٥. السلام والنزاهة لك يا ملك الرياح الواسعة.

٣٦. السلام والنزاهة لك أيها الملك مهزيان مدلالا.

٣٧. السلام والنزاهة لك أيها الملك ياور كبار.

٣٨. السلام والنزاهة لك أيها الملك ياور العظيم.

٣٩. السلام والنزاهة لك أيها الملك يوخابر العظيم.

٤٠. السلام والنزاهة لك أيها الملك يوخاشر كنا.

٤١. السلام والنزاهة لك أيها الملك نباط زيوا العظيم الأول.

٤٢. السلام والنزاهة لك أيها الملك سام مانا سميرا.

٤٣. السلام والنزاهة لك يا آبانا العظيم الموقر.

٤٤. السلام والنزاهة لك يا ملك الجلال العظيم الموقر.

٤٥. السلام والنزاهة لك أيها الملك آدم المزهو بالنور.

٤٦. السلام والنزاهة لك أيها الملك بهرام العظيم.

٤٧. السلام والنزاهة لك أيها الملك يوزاطق منداد هيي.

٤٨. السلام والنزاهة لك أيها الملك ياور كنزئيل الاثري.

٤٩. السلام والنزاهة لك أيها الملك زهرون السر المخفي.

٥٠. السلام والنزاهة لك أيها الملك سماندرئيل الإثري.

٥١. السلام والنزاهة لك أيها الملك صانصئييل الإثري.

٥٢. السلام والنزاهة لك أيها الملك تاروئييل الإثري.

٥٣. السلام والنزاهة لك أيها الملك الرجل الإثري.

٥٤. السلام والنزاهة لك أم الحياة.

٥٥. السلام والنزاهة لك إزلات الكبيرة.

٥٦. السلام والنزاهة لك شارات الأصل.

٥٧. السلام والنزاهة لك بهرات انن.

٥٨. السلام والنزاهة لك أيتها المرجانة النقية.

٥٩. السلام والنزاهة لك أيها الملك أباثر العالي.

٦٠. السلام والنزاهة لك أيها الملك إصطونا العظيم.

٦١. السلام والنزاهة لك أيها الملك أباثر صاحب الميزان.

٦٢. السلام والنزاهة لك أيها الملك بثاهيل ابن زهرائيل.

٦٣. السلام والنزاهة لك أيها الملك يحيى بن زكريا.

٦٤. السلام والنزاهة لك أيها الملك آدم الرجل الأول.

٦٥. السلام والنزاهة لك أيها الملك شيت بن آدم الرجل الأول.

٦٦. السلام والنزاهة إليكم أيها الملائكة والإثريون والمساكن والمياه الجارية والجداول الجارية وعلى ساكني الأنوار جميعًا.

٦٧. السلام والنزاهة وغفران الخطايا تهدى لهذه النفس (الاسم الـديني) "الملواشة" التي ذكرت بهذه الصلاة والرحمة من بيت الغافر للخطايـا المقـصودة علي.

وتأتي بعد "الرشامه والبراخا" الصلاة، وهي على أنواع مثل؛ صلاة الصبح، وهي أداء ترتيل يكون المصلي فيها متوجها نحو الـشمال واقفًـا، مـع الانحنـاء (السجود) كلما ذكرت كلمة السجود في ترتيلة الصلاة، "إنّا سغدنا لا ومشبينا لا" أي (إنّا نسجد ونسبح للخالق)، وكذلك الحال بالنسبة لصلاة الظهر التي تقام بعد سـبع ساعات من صلاة الصبح أي عند انتصاف النهار، وكذلك صلاة المغرب قبل زوال الضياء. وهناك صلوات خاصة بيوم الأحد "الهبشا" وهـو اليـوم المقـدس لـدى المندائيين، إذ تجرى أغلب الطقوس الدينية في هذا اليوم المقدس، لذلك تقام صلوات خاصة في هذا اليوم(١)، وهناك صلوات خاصة بالمناسبات الدينية مثل صلاة "دهوا اد شويشان" وهي صلاة في عيد الأيام الستة أو ليلة القدر، ويـسمى أيـضًا عيـد السلام إذ يعلق كل صابئي إكليلاً من الأغصان على باب داره، وحتى على أبـواب الغرف في الدار وهو دليل على فرحة عيد السلام(٢). والصلاة الخاصة بهذا العيـد تقتصر على الوقوف فقط.

---

(١) الشيخ رافد الشيخ عبد الله نجم، الصلاة المندائية، مصدر سابق، ص٢٨

(٢) غضبان رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص ١٩١

المبحث الثالث

التعميد

إن الطقس الرئيسي في شعائر الصابئيين هو الاغتسال في الماء، الذي لا يعتبر رمزًا (للحياة) فحسب بل ويعتبر إلى درجة معينة، الحياة نفسها. وبذلك يكون الاغتسال في الماء هو اغتسال في سائل الحياة، فهو يمنح الجسم العافية ويقي الإنسان من قوى الموت ويعد بحياة الروح الأبدية، وميزته الثانية هي التطهر، فمثلما يطرد الماء القذارة والتعفن والنجاسة من الجسم، فإنه يطرد الخطيئة والنجاسة من الروح(١).

ومع أهمية الماء الجاري "اليردنا"، إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن: ليست كل المياة الموجودة هي (ماء حي)، لأنني سألت "يلوفا" (متقف ديني) عن الأمر فقال: إن ماء هذا العالم يقسم إلى تسعة أجزاء، جزء واحد منها هو الماء الحي، والثمانية الباقية هي ماء أرضي. وكما ذكرنا في مبحث: (المقدسون) السابق، فإن اليردنا أصلها من السماء، إذ أن "اليردنا" السماوية هي "فرات زيوا" أو الفرات النوراني، وهو يصب في "اليردنا" الأرضي، وهكذا فإن الماء الحي "ميه هيي" هو واحد إلى تسعة، والأجزاء الثمانية الباقية هي الماء الأسود المتاخم "ميه سياوة".

واحتفالات التعميد أو الاغتسال ثلاثة أنواع: تمثل ثلاث درجات من التطهير، فالحد الأدنى من الطهارة يتم بالوضوء "الرشامة" وهي لا تحتاج إلى مساعدة رجل الدين وبإمكان المندائي أن يقوم بها بنفسه، وقد مر ذكر "الرشامة" بالتفصيل في مبحث الصلاة. والنوع الثاني من الطهارة هو ثلاث ارتماسات في النهر، وتجرى أيضًا بدون الحاجة إلى شيخ (رجل دين) وتسمى "طماشة"، وهي تطهر من النجاسات الصغرى ؛ مثل الحيض عند المرأة – ولو أنها يجب ان تُكمّل

(١) الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، مصدر سابق، ص١٦٧

بتعميد كامل – وبعد لمس جثة الميت، وبعد الجنابة في المضاجعة والاحتلام، وبعد أي نجاسة صغيرة أو لمس شخص نجس فالنجاسة معدية[1].

أما النوع الثالث فهو التعميد الكامل "مصبتا" الذي يجرى بمعرفة رجل دين (شيخ) وشاهد "اشكندا"، ويتم بمصاحبة قراءة تراتيل دينية يقرؤها رجل الدين من كتاب الأنفس "سدرا اد نشماثا" الذي يعتبره المندائيون كتابًا منزلاً من الله على آدم (ع)[2].

ويجب أن نصف أولاً الأدوات التي تستعمل في التعميد الكامل "مصبتا"، وهذه الأدوات بسيطة و(بدائية)، وهي عبارة عن بضعة أغصان طرية من الآس، وهذا النبات مزروع بشكل كبير في الحديقة الخاصة بـ "المندي" وعلى أطرافه (وتستعمل أغصان منه لهذه الأغراض، وهذه الأغصان تهيأ لعمل أكاليل الآس "كليلة" التي يستعملها الشيخ والإنسان المندائي العادي).

ويسمى كل متعمد (نفس) "ملواشة"، وإذا كان هنالك راية "درفش" فتستعمل أحد الأكاليل له أيضًا، كذلك يوجد صحن طيني "الطريانه"، وهو عبارة عن طبق دائري من الطين المخلوط بالتبن لتقويته توضع فوقه حلقة طينية "كنكانه"، وفي هذا الصحن الطيني تجويف شبه دائري تحدده حدود تسمى "ميسري" توضع فيه الـ "قوقـه"، وهي عبارة عن مكعب من الطين المجفف في أعلاه انخفاض دائري بسيط فيه شئ من البخور "ريهه". و"البريهي" الذي يحتل معظم "الطريانه" هو عبارة عن وعاء بيضوي للنار مصنوع من طين، يحرق فيه الوقود من حطب أو فحم، وحين توقد النار فهي أما أن تستعمل لحرق البخور أو لخبز "البُهثه" الخبز المقدس[3].

ويجب أن يكون الطحين والملح مجهزين من أجل "البهثـه"، وكذلك يلزم وجود أكواب ذات عمق قليل تشبه فناجين القهوة العربية، إلا أنها مصنوعة من النحاس لشرب الماء المقدس، وقنينة زجاجية من أجل شرب الماء من "اليردنا"

---

(١) المصدر نفسه، ص١٦٩

(٢) الشيخ رافد الشيخ عبد الله، التعميد المندائي، شركة التايمس بغداد ١٩٩٠، ص٧

(٣) انظر الصور الفوتوغرافية لأدوات التعميد في ملحق (٣) الخاص بالأشكال والصور في نهاية الكتاب.

مباشرة، أي من النهر أو الحوض أو العين التي يتم فيها التعميد، وبذلك يكون لدينا "بهثه" (خبز مقدس) و"ممبوهة" شربة الماء المقدس في العماد.

والماء المقدس "ممبوهة" هو ماء صرف، ولا تخلط معه الخمرة أو أي نوع من العصير إلا في احتفال الزواج أو "المسخثة"، وهي وجبة طقسية من أجل روح الميت سنأتي على ذكرها تفصيلاً. وآخر أدوات شعيرة التعميد هو العلم "الدرفش"، ولا يستعمل في جميع حالات التعميد وإنما يستخدم في حالات التعميد الجماعية، فقد رأيته على ضفة نهر دجلة في منطقة القادسية تحت جسر الجادرية في عيد البنجه (عيد الخليقة). ويتكون "الدرفش" من غصنين غليظين متقاطعين من سيقان الأشجار، ويجب أن تكون طاهرة، ويوضع على هذا الصليب قطعة قماش بيضاء مثبتة على الجزء المكون للـ "درفش" (+)، وهي نوع من القماش الحريري، وليس هناك أي علاقة بين "الدرفش" والصليب المسيحي، إذ أن العلم بالنسبة للمندائيين هو رمز للنور، فهم يتصورون أن ضوء الشمس والقمر والنجوم ينبعث من أعلام كهذه[1]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن قماش العلم هو الجزء المقدس منه، بينما الخشبات المتصالبة ليست مقدسة، وتكون قطعة القماش البيضاء مستطيلة الشكل بطول حوالي (٩٠ سم) وعرض (٣٠ سم) تقريبًا، ونهاياتها مرفلة (أي ذات شراشيب) والقماش محاك من حرير أبيض. أما إكليل الآس فيوضع فوق السارية ليستقر عند تقاطع العصاتين. ويكون أسفل العصي (+) مدببا ومغلفا بحديد أو نحاس لكي يغرز في الأرض.

وسأصف فيما يلي عملية تعميد كاملة "مصبتا" شهدتها بنفسي:

بعد تهيئة معدات التعميد التي أشرنا إليها، يرتدي الشيخ والمتعمد والشاهد ملابسهم الدينية الكاملة "رستة"، وبعد أن يتأكد الشيخ من كل جزء من "رستته"، يوقد النار في الوعاء ويضع عليه البخور ويعيده إلى الـ "طريانه"، إذ تكون كل خطوة من الخطوات مصاحبة لترايتل بصوت مسموع، ويكون الشيخ قد جهز مسبقًا "بهثه" (خبزًا مقدسًا)، وإذ لم أشاهد إعداد هذا الخبز المقدس، سألت حلاليًا عنه، هل

---

(١)الليدي دراوور، الصابئة المندائيون، مصدر سابق، ص١٧٦-١٧٧

ثمة اليوم تناول للخبز المقدس؟ فأجابني نعم، ولكنهم اليـوم، ولاختـصار الوقـت، يعدونه ويحضرونه قبل "الصباغة". بعد تلك الاستعدادات يدخل الشيخ إلى حـوض التعميد ويدخل معه المتعمد وهو يكرر تلاوة الدعاء بعد الشيخ، ثم بعد ذلك يغطس تحت الماء ثلاث مرات والشيخ يرش الماء على رأسه، ثم يأخذ الشيخ رأس المتعمد ويغمر جبينه تحت الماء ثلاث مرات، ثم يرسّم الشيخُ المتعمدَ وذلك بـامرار يـده ثلاث مرات عبر جبهة المتعمد من اليمين إلى اليسار، ويلبسه إكليل الآس، ثم يسقيه الماء براحة يده اليمنى ثلاث مرات، ويردد المتعمد بعده: "العهد يحفظـك ويثبتـك" وهو يمسك بيد الشيخ اليمنى، ثم يخرج المتعمد من المـاء ويجلـس إلـى جانـب الحوض (بالإمكان وضع غطاء عليه إذا كان الجو باردًا، فقد حضرت تعميدًا فـي شهر كانون الثاني، وكانت هناك مدفئة نفطية وبطانيات يلتف بها المتعمدون). ثـم يخرج الشيخ ويكون قد حضّر "المشّا" مسبقًا، وهي زيت السمسم الذي صنعه بيـده من عصر بذور السمسم بعد خلطها بقليل من الماء الحي، فيأتي من خلف المتعمـد ويمسح جبينه ثلاث مرات بالزيت المقدس "المشا" من اليمين إلى اليسار، ثم يـذهب المتعمد إلى الحوض وقد شمر عن ساعده الأيمن و يأخذ "البهثه" الخبز المقدس من الشيخ ليأكله، ثم يصب الأخير من القنينه في "الكبثة" ويعطيه للأول ليـشرب، يـتم ذلك بسرعة أول مرة وثاني مرة وفي المرة الثالثة يرمي المتعمد الماء خلفـه مـن جهة الكتف الأيسر، ثم يضع الشيخ يده فوق رأس المتعمد ويبدأ بالتلاوة، ثـم يمـد المتعمد والشيخ ذراعيهما اليمنى باتجاه مكان التعميد (النهـر أو الحـوض) وتبـدأ قراءة الشهادة، ثم بعد ذلك يتصافحان ويأخذ الشيخ من المتعمد العهد للمرة الثالثة.

وبذلك يكون التعميد "الصباغة" عبارة عن: ثـلاث غطـسات فـي المـاء الجاري، وثلاث ارتماسات لجبهة المتعمد في الماء الجاري، وشرب ثلاث جرعات من الماء الجاري تعطى بكف الكاهن اليمنى إلى المتعمد، ويؤخذ العهد منـه، ثـم يتوّج بإكليل مظفور من الآس ويضع الشيخ يده اليمنى على رأس المتعمد ويؤخـذ العهد منه مرة أخرى، ويخرج المتعمد والكاهن إلى ضفة النهر، حيث يـتم مـسح جبهة المتعمد بزيت السمسم المقدس "مشا" ليعبّر عن بركة الخالق، وأخذ العهد منه ثالثة، ثم تقديم الخبز المقدس "بهثا"، وإعطاؤه الماء المقدس "ممبوها" وأخـذ العهـد منه رابعة بالإخلاص وثقته "كشطا"، وبعدها يشهد المتعمد شهادة التعميد، ويعطـي

الكاهن العهد إلى المتعمد وكذلك يعطي الكاهن العهد إلى الشاهد "اشكندا"، وتصاحب كل هذه الطقوس صلوات وأدعية وتراتيل، كما شرحناها سابقًا.

ويتعمد المندائيون في حالات عديدة: أول طفولتهم – أي بعد شهر من ولادتهم – والشيوخ في كل مناسبة دينية، والكبار قبل الزواج، وبعد الزواج بأسبوع، كما وتعمد المرأة بعد شهر من ولادتها، ويكون التعميد عادة يوم الأحد وفي الأعياد والمناسبات الدينية. ولا يختلف التعميد بين الرجال والنساء، ولكن تعميدهم يكون منفصلاً، فالشيخ الذي قام بتعميد رجل لا يحق له أن يعمد امرأة في الوقت نفسه، والعكس صحيح. ولا يجوز للكاهن أن يعمد نفسه، وكذلك لا يجوز له تعميد زوجته لأنها تعد مكملة له حسب الدين المندائي[1]، ولا يجوز للمرأة الحامل أن تتعمد وحدها إذ يجب أن تصاحبها بعض النسوة كي يساعدنها في حالة حدوث أي طارئ، كما لا يجوز للكاهن أن يعمد في الأيام المحرمة "السبطلات" التي عددها (٣٣) يومًا كما سبقت الإشارة.

و"المصبتا" التعميد له عدة أنواع، منه التعميد المنفرد، والتعميد الجماعي، والتعميد الذي يسمى "تلاثا داري"، أي تعميد ثلاثي يقوم به ثلاثة كهان في الوقت نفسه لتعميد شخص واحد لكي يصبح طاهرًا جدًا، مثل تعميد المرشح للتكريس قبل تكريسه، وغير ذلك. والتعميد الذي يسمى "شيتر وهمشا مصبتا" أي خمسة وستون تعميدة، وهو أعلى مما سبقه، إذ يتعمد الشخص المرة بعد الأخرى بواسطة ثلاثة كهان، ويستعمل هذا التعميد للشخص المدنس تدنيسًا كبيرًا جدًا، والتعميد الذي يسمى "تلثما وشتين مصبتا" أي ثلاثمائة وستون تعميدة وهو أعلى من كل التعميدات، إذ يعمد فيه الكاهن المرة بعد الأخرى بواسطة سبعة كهان، وهنا يجب أن نقول إن التطهر من خطأ كبير جدًا قام به رجل دين ولبس مندائي عادي هو الذي يتطلب هذا النوع الشاق من التعميد.

(١) الشيخ رافد الشيخ عبد الله، التعميد المندائي، مصدر سابق، ص٨

المبحث الرابع

طقوس الزواج

يؤكد الدين المندائي بشدة على ضرورة الزواج وأهميته، بل ويعتبر الأعزب الذي يرفض الزواج مقترفًا لذنب كبير دينيًا، ويعتبر الإنجاب جزءًا متممًا للدين، فالأولاد هم الذين يحملون الجنازة، ويقومون بإجراء الطقوس الدينية الواجبة للآباء بعد الوفاة مما يساعد الميت على بلوغ عالم الأنوار في آخرته. والرهبنة في الدين المندائي محرمة غاية التحريم، لأنها ضد الحياة، والحياة في العقيدة المندائية هي محور الدين وجوهر العقيدة، بل إن رجل الدين إذا كُرس في أولى درجات الكهنوت ثم تزوج ولم ينجب فإنه يخرج من السلك الكهنوتي، إذ يجب على الشيخ أن يكون متزوجًا ومنجبًا. أما بالنسبة للمندائي العادي، فلا يصح للأعزب ولا للمتزوج العقيم أن يترأس حمل الجنازة أو أن يكون وكيلاً للعروس في مراسم العرس. والخلاصة هي أن الزوجة في الدين تكمّل الزوج بحسب العقيدة المندائية في الدنيا، وفي الآخرة تعود لزوجها وتسكن معه بعد أن تنهي النفوس مرحلة التطهر في "المطراثا" المطهر(١).

ويؤكد الكتاب المقدس المندائي "كنزا ربا" على الزواج فنقرأ فيه(٢):

باسم الحي العظيم

أيها العزاب، أيتها العذارى ... أيها الرجال العازفون عن النساء، أيتها النساء العازفات عن الرجال، هل وقفتم على ساحل البحر يومًا ؟، هل نظرتم إلى السمك كيف يسبح أزواجًا ؟، هل صعدتم إلى ضفة الفرات العظيم ؟هل تأملتم الأشجار الواقفة تشرب الماء على ضفافه وتثمر؟

فما لكم لا تثمرون ؟

---

(١) غضبان رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص١٦٤

(٢) كنزا ربا، يمين الكتاب الثاني، التسبيح الرابع، الدعوة إلى الزواج، طبعة بغداد، ص٣٨

أفلا نظرتم إلى الأنهار اليابسة كيف تذبل الأشجار على شطآنها وتموت ؟

كذلك العذارى اللاتي لا يذكرن اسم الحي، نفوسهن تموت.

الرجال الزاهدون في النساء والنساء الزاهدات في الرجال، كذلك يموتون، ومصيرهم الظلام حين من أجسادهم يخرجون، أيها الأصفياء الذين اصطفيتهم أقيموا اعراسًا لبناتكم، وآمنوا بربكم. . إن العالم إلى زوال، ولا تكونوا كالذين يكرهون الحياة فيعزفون عن الإنجاب فيها، اثمروا إن أردتم أن تصعدوا حيث النور.

ويفضل في الدين المندائي عدم تعدد الزوجات، إلا أن تعدد الزوجات موجود لديهم حتى عند رجال الدين، وبعضهم يذكر شروطًا معينة لتعدد الزوجات، ومع هذا نرى في بعض الحالات زواجًا ثانيًا بدون أيما سبب أو شرط من هذه الشروط. ومن أهم الأسباب التي تدعو إلى الزواج الثاني والثالث. . . إلخ، هي العقم أو المرض المعدي، ويشترط على الزوج في هذه الحالات أن يعدل بين زوجاته. وفي حالة تعدد الزوجات تكون المرأة الأولى هي ذات الحضوة في كل مناسبة دينية ودنيوية[1].

ويجوز للصابئي الزواج بالمرأة الصابئية إذا لم تكن من المحرمات عليه، والمحرمات هن نفس المحرمات في الدين الإسلامي بالضبط، ويضاف إلى ذلك عدم جواز الزواج من خارج الطائفة المندائية، بل إن ذلك سيؤدي إلى طرد الفرد من الطائفة وعدم السماح له بالعودة حتى إذا انفصل عن الزوج أو الزوجة غير المندائية. ولكنني سمعت من بعض أفراد الطائفة أن حالات رجوع الأزواج بعد انفصالهم عن نساء غير مندائيات بات اليوم مقبولا ولو بصعوبة وفي حالات قليلة، ويشترط على العائد إلى الدين المندائي أن يخضع لتعميد من نوع عال، أما النساء المندائيات فلا يسمح لهن بذلك وسنناقش الأمر في مبحث قادم.

---

(١) غضبان رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص ١٦٤

لقد ذكر بعض الباحثين أنه قد ورد في ديوان "ألف ترسر شـيالة" – وهـو كتاب تعليم رجال الدين الإجراءات والطقوس الدينية – إنه يجوز الزواج من المرأة المسيحية إنما بعد إجراء طقوس خاصة وصعبة عليها[1] ولكنـي عنـدما حاولـت التأكد من الأمر وسألت "يلوفا" (مثقفا دينيا) قال: لا وجود لمثل هذا الأمر، وعنـدما عدت إلى ديوان "الف ترسر شيالة" لم أجد مثل ذلك الأمـر وبالتـالي فـإن زواج المندائي والمندائية من خارج الطائفة يخرجه من الدين المندائي.

وتتم اليوم في عمليات الزواج طقوسًا دينية ثابتة، وإجراءات متغيرة بـسبب التغير الاجتماعي الذي تعرضت له الطائفة. إذ تبدأ عمليـة الـزواج بـإجراءات الخطوبة أولا، وهي ليست ذات خصوصية عند المندائيين فهي تتم كما هـي لـدى غيرهم، ويتم الإتفاق على المهر وتقام الأفراح وتقام وليمة للأقارب والأصدقاء ثـم تبدأ الاستعدادات للزواج.

وهناك نقطة مهمة في الإستعداد للزواج وهي التأكد من بكارة العـروس، إذ يولي المندائيون أهمية كبيرة للعذرية، وتقوم بهذه المهمة امرأة من طـرف الـشيخ الذي سيقوم بعقد الزواج – كأن تكون أخته أو زوجته أو أمه – وتبلغه بالأمر. لأن العروس إذا لم تكن باكرًا لا يقوم بعقد زواجها شيخ بدرجة "كنزفرة" وإنمـا يقـوم بذلك شيخ من مرتبة أوطأ يطلق عليه "ابيسق" هو المختص بعقد الزواج للثيبـات، وفي حالة الخطأ، أي اذا أُبلغ الشيخ بأن المراة باكر وعقد لها "الكنزفرة" على أنهـا باكر، فإنه يكون قد ارتكب خطأ دينيًا جسيمًا، ويوقف عن العمل الديني حتى يتعمد العماد الأكبر الذي تعمد به "هيبل زيوا " بعد رجوعه من عالم الظلام، وهو (٣٦٠) عمادًا خلال سبعة أيام، وقد ذكرت الليدي داروور حادثة مشابهة حدثت مع الـشيخ "الكنزفرة" (دخيل عيدان)، ويكفي أن نذكر أن مثل هذا العماد قد يؤدي إلى الوفـاة خصوصًا إذا أجري في فصل الشتاء[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٥

(٢) عبد الحميد عبادة، مندائي أو الصابئة الاقدمون، تقديم وتعليق رشيد الخيون، مصدر سابق ص٢٥

ومن الجدير بالذكر أن من مظاهر التغير لدى الطائفة فيما يخص أحد طقوس الزواج، أنه في بدايات القرن العشرين، كانت عملية فحص عذرية العروس والتأكد من بكارتها "البهارة" تتم في بيت الشيخ، إذ كانت العروس تبيت مع بعض النسوة من أهلها عنده قبل ليلة العرس، لتقوم امرأة قريبة منه بفحصها، أما اليوم فإن هذه العملية تتم بسرعة أثناء إجراء مراسم الزواج في غرفة في المندي معدة لهذا الغرض، وتكون قريبة من مكان إجراء طقوس الزواج، وما أن تتم عملية الفحص بنجاح (أي حينما تكون المرأة باكرا، تسمع الزغاريد والأهازيج تعبيرا عن الفرح بطهارة العروس).

تبدأ الطقوس الدينية صباح الأحد، إذ يذهب العريس والعروس مع عائلتيهما إلى المعبد (مندي الطائفة المندائية) أو إلى بيت رجل الدين أو أي مكان يمكن إجراء الطقوس فيه، وتبدأ المراسم المقدسة بالتهيئة لتعميد العروسين ومن يرغب من أقاربهم وأصدقائهم، وفي هذه الأثناء تهئ "الأندرونة" وهي هيكل قصبي مغطى بقطعة قماش بيضاء يمثل رمزًا لبيت الزوجية القادم، ولا تتجاوز مساحته الصغيرة الـ (٢م×٢م)، تهئ فيه الموائد لغرض إقامة "زدقه بريخه" (وجبة مقدسة)، فيها أنواع من الطعام مع (٢٦) رغيف خبز وسمك وملح وماء.

وتبدأ إجراءات التعميد، إذ يعمد الزوج والزوجة كل على انفراد من قبل أحد الشيوخ. وعادة يكون التعميد مرتين، ويسمى التعميد الأول "زهريثه" والثاني "تشميثه"، فالأول إذا كان الفرد غير متعمد وهو بالتالي للدخول في الدين، أما إذا كان الفرد متعمدًا سابقًا فلا يحتاج إلى هذا التعميد، والتعميد الثاني إلزامي لإكمال تطهير العروسين من كافة مخالفاتهما الدينية السابقة أو من نجاستهما. وبعد أن تتم الطقوس تستبدل ملابس العروس والعريس المبتلة بملابس دينية أخرى جافة (إذ أن كل الطقوس تجرى وقد ارتدى العروسان ملابسهما الدينية "الرسته")، وبعد التعميد يجب أن تهيأ الأشياء الآتية قبل عقد الزواج[1]:

---

(١) غضبان رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص١٧٣

١. حضور شيخان أحدهما بدرجة "كنزفرة" بملابسهما الدينية "رستـه"، وقد يقوم "الترميذة" بالعقد بدل "الكنزفرة".

٢. يجب حضور شخص متزوج ومنجب ليكون وكيلاً للعروس (ويسمى الأب).

٣. يحضر صبيّان أو شخصان لحمل سلتين مليئتين بملابس العروس والعريس مخلوطة.

٤. يحضر الزوج نفسه ولا يجوز التوكيل عنه في عقد الزواج.

٥. يحضر عدد من الأشخاص كشهود على عملية الزواج.

٦. يعد أحد الكهان "ترميذه" وجبة الطعام المقدسة والمكونة من لب جوز ولوز وزبيب وفواكه وسمك.

٧. يهيأ إبريق معدني مملوء بماء من "اليردنا" ويلف بقطعة قماش أبيض

٨. يهيأ قليل من نقيع التمر في قنينة صغيرة يسمى "همرة"، وهي رمز للخمرة ولكنها غير مخمرة.

٩. يهيأ (٢٦) رغيفًا من الخبز.

١٠. تحضر"سكين دوله" وهي أداة طقسية لدفع الشر سنأتي على ذكرها بالتفصيل في مبحث قادم، على أن تبقىٔ عند العريس مدة أسبوع بعد العرس.

١١. يحضر "إكليلة" إكليل من الآس، وهو يمثل رمزًا للخصب، وكلمة "آسا" في المندائية تعني المُشفي.

وبعد أن تهيأ الأشياء المذكورة آنفًا، يقف الشيخ الذي يقوم بالعقد في باب "الأندرونه" ويقف على يمينه العريس بملابسه الدينية البيضاء ممسكًا بـ "تصيفة" الشيخ (وهي قطعة قماش طويلة وجزء من الرسته يضعها الشيخ حول رقبته) بعد أن يكون قد أكمل "الرهمي" أي طلب الرحمة والغفران، ثم يأتي الصبيان اللذان

يحملان سلتي الملابس (وفيها ملابس للعروس والعريس مخلوطة مع بعضها) ويتقدمان نحو باب "الأندرونه"، يتقدم الصبي الأول رافعًا سلته وهو يقول (باسم الحي واسم عارف الحي، في الزواج السلامة)، ثم يأتي الصبي الثاني ويفعل ما فعل الأول، ثم توضع إحدى السلتين (وتحتوي على وشاح أخضر)، في "الأندرونه" بينما تؤخذ السلة الأخرى إلى غرفة العروس حيث تكون جالسة مع أقاربها في غرفة مجاورة قريبة (وهي الغرفة نفسها التي تم فيها فحص عذرية العروس)، ثم يقول الشيخ الذي يقوم بالعقد للشيخ الذي يساعده (اذهب وتفقد المتطلبات الدينية كالملابس والمفروشات والبس العروس الخاتم ذو الفص الأحمر في اليمين وذو الفص الأخضر في اليسار وطهر يديها واعطها لتأكل وتشرب واقرأ لها سورة "باسم الحي" وسورة "هثيمة بصر هيي" لحفظها من النوائب).

يذهب الشيخ المساعد – حسب ما أمر به – يتفقد ملابس العروس ويوصي بأن تبقى في محلها، وإلا تخلع ملابسها الدينية أثناء فترة العقد، ويسألها أمام الشهود فيما إذا كانت موافقة على الزواج من (فلان بن فلانه)، ثم يلبسها الخاتمين (وهما يعبران عن هدية العريس بمناسبة الزواج)، ويسأل عن عذريتها من الفاحصات، ثم يصب على يدها اليمنى ماءً طاهرًا من الأبريق الذي نوّهنا عنه، ويقدم لها لقمة من لب الجوز والزبيب لتأكلها، ويقرأ عليها – العروس – التراتيل، ثم يتركها ويعود إلى "الأندرونه" حيث يجد الشيخ والعريس واقفان ببابها المتجه باتجاه الشمال، فيسأل الشيخ مساعده، فيجيب المساعد (ذهبت إلى غرفة العروس وتفقدت طهارتها وعفتها وملابسها وطهرت يدها والبستها الخاتم الأحمر في اليمين والأخضر في اليسار وأعطيتها هبة الأكل، فأكلت وشربت وقرأت عليها باسم الحي بدون زيادة ولا نقصان).

بعد ذلك يلتفت الشيخ إلى الحاضرين قرب "الأندرونه" ويعيد عليهم نفس الجمل التي ذكرها للشيخ المساعد الذي ذهب إلى العروس، وكذلك للعريس الممسك بنصيفة الشيخ، ويبدأ بفتح كتاب (القلستا) الخاص بتراتيل الزواج ويقرأ بعض

الأدعية، ثم يؤشر للطفل الواقف عند باب "الأندرونه"، فيقوم الطفل بكسر مشربتين فخاريتين (تنكه)، وهو رمز لذهاب الشر، وتستمر قرأءة التلاوات.

وبعد الانتهاء من قرأءة التراتيل يجلس الشيخ والعريس في "الأندرونه" وتكون وجوههم متجهه نحو الشمال ويجلس وكيل العروس مقابلاً لهم ووجهه للجنوب، ويبدأ الشيخ بترتيب "الطرابين" الصحون الطينية وتُوزع عليها الأرغفة والسمك والخضرة والفاكهة و"الهمرة" نقيع التمر، وبعد التوزيع يطلب الشيخ من مساعده رأيه، فيجيب الشيخ المساعد (ابتهلنا لله لغفر خطاياك) ثم يسأل وكيل العروس (لمن أقيمت هذه المائدة ؟) فيجيب الوكيل (أقيمت هذه المائدة بمناسبة زواج فلانه ابنه فلانه زواجًا شرعيًا بالعهد)، ثم يعيد الشيخ السؤال على وكيل العروس ثلاث مرات ويجيبه الوكيل نفس الإجابة، وتكون الأسئلة والأجوبة لثلاث مرات بصوت مسموع.

ثم يلتفت الشيخ إلى العريس الواقف أمام الوكيل ويقول له: (لقد نصبناك زوجًا على فلانه ابنة فلانه زواجًا شرعيًا بالعهد، بشهادة الله الحق الأزلي وبشهادة ملائكته الأبرار وبشهادة الحاضرين من الشيوخ والمندائيين، على أن لا تنقض عهدك، ولا ترجع عن رأيك ولا تنكل بزوجتك فهي مُسلمة إليك بموجب العهد النازل من الله سبحانه وتعالى) ثم يلتفت إلى وكيل الزوجة ويلقنه بإعادة الألفاظ وراءه: (إني أسلمك إياها بالعهد الذي أمرنا به الله)، وهنا يتصافح العريس والوكيل ويقبل كل منهم يده ثلاث مرات.

بعد الموافقة يقول الشيخ للعريس (قبلت الزواج من فلانه بنت فلانه بمهر قدره كذا بشهادة هؤلاء الكهان والمندائيين الحاضرين في المجلس) ويردد العريس هذه الصيغة وراء الشيخ، ثم يمد الشيخ يده إلى سلة الملابس الموجودة في "الأندرونه" ويأخذ منها الشال الأخضر الذي تكون الفتاة قد استعملته في بداية الطقوس كبرقع لها، ويعطيه إلى الزوج ليلفه حول خصره كهدية من الزوجة في إشارة إلى الخير والصلاح والإنجاب، عندها يتقدم الجالسون فيأخذون الخبز الموجود ويأكلونه، ويجلس العريس ووكيل العروس ويصب أحد الشيوخ الماء من

الإبريق على أيدي الشيخ الذي يعقد والعريس، ثم يُكشف الغطاء عن الطعام الموجود على "الطريانه" الصحن الطيني الذي كان مغطى بقطعة قماش بيضاء، ويأخذ الشيخ منها بعض الجوز واللوز والزبيب، ويكسر رغيف خبز مناصفة ويعطي الزوج لقمة ويرسل لقمة إلى الزوجة بعد أن يضع قليلاً من التمر في يد الزوج وهذه العملية تدل على المشاركة في الحياة القادمة.

ثم يرفع الطعام المتبقي وتعاود التلاوة من تراتيل "القلستا"، وفي هذه الأثناء يسقى العريس سبع مرات من "الهمرة" عصير التمر، وتهدى إلى أم العروس قطع فضية وقطع صابون وغيرها من العريس ويقول لها الشيخ (تستحقين يا أم العروس هديتك على تلك التربية وحفظ الطهارة)، بعد ذلك يذهب الشيخ والعريس إلى غرفة العروس، وقبل الدخول تكسر مشربتين فخاريتين (تنكه) عند الباب لطرد الشرور، وإعلانًا بقرب نهاية العقد، ثم يدخل الشيخ والعريس مع عدد من الحاضرين، ويجلس العريس على فراش العروس على أن يكون ظهره ملاصقًا لظهرها، وتقرأ عليهم بعض الأدعية، ثم يقوم الشيخ بعملية (طك الروس) إذ يضرب رأس أحدهما بالآخر ضربًا خفيفًا سبع مرات تنبيهًا للزوجين بفرحة سبع أيام الزواج وتذكيرًا لهم بوجوب التطهر بعد هذه الأيام السبعة.

ثم يعود الشيخ والعريس إلى "الأندرونه" ويبدأ بقراءة الأدعية والوصايا ثم يدوّر حول العريس "المركنة" (صولجان الشيخ)، وهي عصا يستعملها في طقوسه تصنع عادة من شجر الزيتون، يقوم الشيخ بتدويرها حول العريس ثلاث مرات دليلاً على أن طقوس عقد الزواج قد انتهت وأن العروسين قد دخلا في مرحلة نجاسة، و يكون على العريس أن يبقى محتفظًا بالـ"سكين دولة" ذات الختم الطلسمي ليحميه من قوى الظلام. وعندما يذهب العريس إلى عروسه ويحلّ لها الزنار، يقوم كل من لبس ملابس دينية من العرسان والأهل والأصدقاء بتغيرها ولبس ملابسهم الاعتيادية والتهيؤ للمغادرة.

ويجب أن نشير هنا إلى بعض النقاط وهي :

١. كان الشيوخ يتقبلون بعض الهدايا مقابل عقد الزواج، بقصد مساعدة الشيوخ في معيشتهم لأن الكثير منهم يكون متفرغًا للعمل الديني، رغم أن البعض منهم يعمل في مهن معينة. إلا أن هذه العملية صارت تنظم اليوم بشكل آخر عن طريق إدارة المندي. وآخر عقد زواج حضرته كانت أجور العقد وفق الوصل الذي أصدر من الإدارة (٧٥ الف دينار).

٢. يمثل عقد الزواج الديني العقد الأساسي في جعل الزواج شرعيًا، بينما يسعى المندائيون إلى محاكم الأحوال المدنية بعد ذلك لإثبات الزواج لأسباب قانونية وتنظيمية، فإذا تم عقد الزواج في المحكمة فقط، فإن ذلك يعني إنه زواج غير شرعي ويجب أن تجرى طقوس الزواج المذكورة آنفًا.

٣. تعتبر العروس بعد عقد الزواج الديني ثيبًا سواء دخل بها الزوج أم لم يدخل.

٤. يجب أن يعيد الزوج والزوجة عمادهما بعد اليوم السابع، للتطهر من النجاسة.

وحري بنا أن نذكر أخيرًا، إنه رغم كل التغيرات التي طرأت على حياة المندائيين، فإن هذه الطقوس ما زالت تعامل حتى اليوم باحترام وتقديس، وتزينها علامات الفرح والابتهاج، ويرى المندائيون إنها ضرورية جدًا لإتمام الزواج الشرعي.

المبحث الخامس

طقوس الموت ومصير الإنسان

يعتقد المندائيون بأن الجسد من تراب وأنه فانٍ، ولا أهمية له بعد خروج النفس منه، وأن الجسد هو وعاء النفس، ومن هنا تأتي أهميته، وأن النفس هي نسمة من ذات الله، وأنها لا بد عائدة إلى عالم الطهر والنقاوة عالم الأنوار(١). ويجب أن يهيأ المندائي المريض وهو على فراش الموت التهيئة اللازمة من تطهر ولبس للملابس الدينية ليكون الجسد جاهزًا لتغادره النفس، فإذا ما وصل المريض إلى المراحل الأخيرة من حياته تبدأ مراسيم تهيئته، إذ يطلب من أحد الشيوخ أن يحضّر إكليلاً من أغصان الآس، ويقوم بإجراء "الرشامه"، ويلبس الإكليل في خنصرة الأيمن، وبعد قراءة بعض الأدعية والتلاوات وطلب الرحمة للمحتضر، يودع الشيخ الإكليل لدى أهل المحتضر ليكون جاهزًا للاستعمال عند الضرورة.

وحين تقترب المنية (في بعض الأحيان يكون المحتضر واعيًا لما يدور حوله وقد يطلب هو أن تعمل له الإجراءات اللاحقة)، يُجلب ماء حي "يردنا" من الماء الجاري، وتخلع عن المحتضر ملابسه ويُغسل ثلاث مرات من رأسه إلى أخمص قدميه، وإذا كان الطقس باردًا يمكن أن يسخن قسم من الماء ويخلط بالباقي، يرفع المحتضر بعد ذلك ويوضع فوق فراش نظيف ورأسه متجه إلى الجنوب، بحيث يكون مواجهًا للشمال في حالة نهوضه، ويلبس "رسته" جديدة بدون عقد الزنار، وحين يدرك من حوله أنه يموت فعلاً (يطبقون جفنيه دلالة على ذلك)، ويعقدون عقدة الزنار ويضعون "الإكليلة" في مكانها تحت العمامة وأوراقها الخضراء تتدلى فوق الصدغ الأيسر، ويثبتونها بخياطتها في العمامة لكي لا تتزحزح من مكانها، كذلك ترتب "الرسته" وهي مشابهة للـ "الرسته" العادية، إلا أن "النصيفه" التي توضع حول الرقبة تكون أطول كثيرًا حتى تلف بها الأقدام، كما تثبت قطعة

---

(١) ناجية مراني، مفاهيم صابئية، مصدر سابق، ص١٣٥.

ذهبيــة أو خيــط ذهــبي علــى الصدر في الجهة اليمنى، كما تخاط قطعة فضية أو خيوط فضية على جانب الصدر الأيسر. أما إذا كان المحتضر رجل دين فــإن "رستته تدفن معه" كامله وبضمنها "المركنه" العصا أو الصولجان، و"التاغه" التــاج الحريري والـــ "شوم ياور" خاتمه الذهبي. وبعد هذه الإجراءات كلهــا إذا عــاش المريض فإن هذه الملابس لا تصــلح للاستعمــال مــرة أخرى من قبل الــشخص لا لأمور طقسية ولا حتى لحالة وفاة أخرى.

وقد سمعت من كثير من الناس البسطاء ممن لا يعرفون المندائيين معرفــة جيدة، بأن (الصُبة) يقومون بخنق المحتضر عند إجراء طقوس الوفاة، وأعتقــد أن ذلك متأتٍ من الفهم الخاطئ، إذ ربما رأى أحدهم إجراءات الطقــوس التــي تقــام للمحتضر من غسل وتكفين وهو يحتضر، فذهب إلى الاعتقاد بأن عملية شد الزنار مثلاً أو التأكد من أجزاء "الرسته" هي عملية خنق، وهم القوم المسالمون الــذين إذا قام أحدهم بذبح طير للأكل يؤدي بعد ذلك صلاة استغفار وطلب رحمة، لأنــه لــم يقتل ذلك الحيوان إلا بما أحله الله للأكل.

وحين تتم وفاة الشخص المحتضر، يقوم بعض الحاضرين بعقد "زناره"عقدة أخيرة، ودس طرفيه في الجانبين. وتهيأ أعواد من القصب والبردي وسعف النخيل والحبال وتغسل طقسيًا، ليقوم بعد ذلك شيخ أوحلالي باستخدامها لبناء الـــ "مندلتا"، وهي هيكل ثلاثي بارتفاع (٤٠سم) يقام في ساحة دار المتوفي. ويلي نصب الهيكل صقس ديني كامل من قراءات وأدعية وتراتيل، ولا ترفع الـــ "مندلتا" إلا بعد مرور ثلاثة أيام على الوفاة.

أما الدفن، فإنه لا يتم إلا بعد الوفاة بفترة ساعات للتأكد من حصول الوفــاة، وإذا كان حدوث الوفاة في ساعات الغروب فإن الدفن لا يتم في الليل، وإنما يؤجــل حتى الصباح. وعندما تتم الوفاة فإن الواجب الديني يمنع النــواح والبكــاء وشــق الملابس، إذ أن الكتاب المقدس "الكنزاربا" يذكر(١):

(١) الكنزاربا، اليمين، الكتاب الأول، التسبيح الثاني الوصايا، ص١٧

لا تبكوا موتاكم، ولا تقيموا عليهم الأحزان، إن من مزّق ثيابه على ميت فقد دنسه، ومن قلع شعرة على ميت فسيربط بجبل الظلام بحبل لا يبيد.

كلما طالت أعماركم زادت خطاياكم فلا تحزنوا على نشماثا إذا فارقت الحياة فمن الحزن تولد الأرواح الشريرة، فتسبق نشماثا في عروجها وتضايقها في دار الحساب. من أحب موتاه فليطلب لأنفسهم الرحمة، وأقيموا عليها الصلاة والتسبيح واقرأوا الابتهالات وأقيموا مسقثا الرحمة من أجلها، عندئذ يسير الضياء أمامها ويأتي النور وراءها ورسل الحي عن يمينها وملائكة النور عن شمالها فتنجوا من مطراثا ومن مراجل النار.

ولكن واقع الحال وتأثر المندائيين بمن حولهم جعلهم يبكون ويلطمون على موتاهم رغم معرفتهم بحرمة ذلك.

أما الذين يقومون بحمل جنازة الميت فيجب أن يكونوا طاهرين طقسيًا "حلاليه"، ومرتدين لملابسهم الدينية "الرسته"، وأن يكون رئيس الموكب متزوجًا ومنجبًا، ويحمل معه السكين الطقسية "سكين دولة"، وهي سكين صغيرة بدون مقبض مثبته بسلسلة، في نهاية السلسلة ختم طلسمي دائري يمكن أن يلبس بالأصبع ويختم به، يحوي على رسوم حيوانية ترمز لقوى الشر، وهذه الرسوم هي الأسد والعقرب والدبور، تحيط بهم جميعًا الأفعى.

وعندما تبدأ حركة الموكب الجنائزي يكون وجه المتوفي - إذا نهض - باتجاه الشمال دائمًا، ويتم وضع الميت في سيارة نقل الموتى التابعة للطائفة لتتجه به إلى المقبرة، (وتقع المقبرة المخصصة للطائفة اليوم في ضاحية (أبو غريب) من ضواحي بغداد /الكرخ)، عندما يصل الموكب الجنائزي إلى المقبرة يكون القبر قد تم تجهيزه، وهو عبارة عن حفرة مستطيلة ليس للعمق تحديدًا معينًا فيها، وعند الرأس تعمل حفرة تترك خاليه تسمى لحدًا وتوضع الجثة في القبر وهي متجهة دائمًا إلى الشمال وتوضع بعض الأحجار فوق "رستة" المتوفي كما توضع حجرة على فمه.

وتقول أسطورة شعبية إنه حدث أن توفى أحدهم، فداهم الموت عائلته فردًا تلو الآخر بعد وفاته، وحين أخبروا الشيخ بذلك، قال لهم: أحفروا قبر ميتكم ولنفحص جثته، وعندما حفروا القبر وجدوا أن قطعة القماش التي توضع حول الرقبة قد اندست في فمه أي أن هناك خطأ طقسي قد ارتكب في مراسيم الدفن. كما أن البعض يقول إن نفس الميت تبقى معلقه بأهله، وبهذه الطريقة (أي بوضع الحجر على فمه) تنقطع نفسه عن أهله.

وبعد أن يهال التراب على الجثة من كل الجهات، يتم عمل تل صغير يكاد ألا يميّز عن باقي الأرض ويرش بالماء، ويحدد رئيس الموكب الجنائزي القبر بالـ "سكين دولة" ويختمه من زواياه الأربع بالختم الطلسمي لحبس قوى الظلام عنه، وبعد اليوم الثالث يمسح عن القبر هذا الختم، فقد انتهى دوره. ومن المهم الإشارة هنا إلى إن قبور المندائيين هي من الدوارس، لأن الجسد الفاني لا قيمة له بعد مغادرة النفس، لذلك فلم يكونوا في السابق يبنون أضرحة أو شواهد على قبورهم، إلا أن تأثرهم بمن حولهم جعلهم اليوم يبنون قبورًا متواضعة عليها شواهد.

عند الانتهاء من عملية الدفن، تبدأ إجراءات الوجبة الطقسية على روح المتوفي "لوفاني" وتدعى "لوفاني سامرايي" أي الوجبة الطقسية لحملة الجنازة، إذ تفرش قطعة قماش أو حصيرة نظيفة وتوضع عليها أرغفة الخبز والسمك أو قطع من اللحم المشوي أو الطيور المشوية بالإضافة إلى الخضروات والفواكه، وقبل البدء بالأكل تقرأ تراتيل الترحم والصلوات الخاصة على روح المتوفي، وبعد أن يأكل الحاضرون ما بدا لهم، يتم التصدق بالباقي حتى لا يتبقى من الأكل شيئًا. ويتم عمل "لوفاني" أيضًا في اليوم الثالث وفي اليوم السابع وفي اليوم الخامس والأربعين، لأن المعتقد المندائي يفيد أن رحلة الروح في (المطهر) تستغرق (٤٥) يومًا في صعودها من العالم الأرضي إلى عالم المطهر "المطراثا"، إذ يقوم الملاك المقدس صاحب الميزان "أباثر" بوزن أعمال الإنسان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن المحك الذي تقارن بـه الأرواح البـشرية هـو "شيتل" بن آدم، إذ يعتبر أنقى وأصفى روح في البشرية، لذا تستعمل روحه كمعيار أو محك لوزن أرواح البشر. ويعتبر اليوم الأول والثالث والسابع والخامس والأربعين محطات مهمة في رحلة الروح في المطهر، لذا يفضل إقامة الوجبات الطقسية "لوفانيات" في هذه الأيام لزيادة الترحم على الميت وقراءة الأدعية والتراتيل له لتساعده، بل لتكون مثل الضياء الذي ينير له الطريق. ويجب أن نشير أن هناك أكثر من مطهر في الأدب الديني المندائي، فقوى الخير لها مطاهر، وعدد من قوى الشر لها مطاهر "مطراثا" أيضًا، مثل "مطراثا آد نيرغ" و"مطراثا آد بيل" وأن تحديد المطهر يتبع نوع الخطايا التي ارتكبتها هذه النفس في الحياة. أما أنواع التعذيب في الميثولوجيا الدينية، فهي الأخرى بحسب خطايا النفس، وتتراوح من الكي، إلى الإلقاء في ثلج، إلى الربط بسلاسل حديدية إلى إطلاق الوحوش...إلخ. وبعد التطهر تأخذ قوى النور النفس إلى عالم الأنوار، بعد أن تعمد في "إليردنا" السماويه "فرات زيوا"، إذ تستقر مع أرواح الأسلاف المقدسين في عالم الأنوار إلا مرتكبي بعض الخطايا الكبيرة، فأنهم يذهبون إلى عالم الظلام، ويقف على رأس هؤلاء الخارج من الدين المندائي. وجدير بالذكر أن فترة البقاء في المطهر تعتمد على حجم الخطايا والذنوب فإذا كانت النفس لإنسان تقي فإنها لن تبقى في المطهر طويلاً، أما إذا كانت النفس لمرتكبي ذنوب كبيرة فإنها تبقى في المطهر حتى تتطهر من خطاياها.

الفصل الخامس

النـظـام الاجتمـاعـي

المبحث الأول: طبيعة الكيان الاجتماعي

المبحث الثاني: نسق القرابـــة

١ - نظام العلاقات القرابية

٢ - نظام الزواج

٣ - نظام الأسرة

المبحث الثالث: نسق الضبط الاجتماعي

١ - الجانب السياسي

٢ - الضوابط الاجتماعية

المبحث الأول

طبيعة الكيان الاجتماعي

إن مفهوم البناء الاجتماعي أخذ يفرض نفسه بشكل واضح على معظم الدراسات الحديثة، بعد أن كان مجرد فكرة غامضة تراود عقول بعض الكتاب في القرن الثامن عشر. وإن شيوع استخدام هذا المفهوم إنما يرجع في المحل الأول إلى بعض التغيرات التي طرات على اهتمامات ونزعات وأساليب دراسة المجتمع(١).

فهل دراسة البناء الاجتماعي ستنصب على ثقافة المجتمع المندائي؟ أم أنها ستركزعلى دراسة النظم والعلاقات الاجتماعية؟ إن التداخل بين الاثنين كبير جداً، والتمييز الذي يحدده ايفانز بريجارد بين دراسة الثقافة والنظم الاجتماعية غير واضح المعالم في دراسة طائفة الصابئة المندائيين(٢).

إن الثقافة المندائية هي ثقافة فرعية (sub-culture) من الثقافة العراقية العربية، وكذلك البناء الاجتماعي للطائفة، فإنه يتشابه بشكل يكاد يكون متطابقاً مع المجتمع المحيط بالطائفة.

وهذا لا يعني أنه ليس هناك خصوصية في البناء الاجتماعي للطائفة، إذ أن الطائفة هي أقلية دينية، وبالتالي فإن انعكاس ذلك على البناء الاجتماعي أمر مفروغ منه، وكذلك انعكاسه على علاقة الطائفة بمحيطها، فهو أمر لا يكاد يخفى على أحد.

---

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي مدخل لدراسة المجتمع، الجزء الأول المفهومات الطبعة الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦ القاهرة، ص١٠.

(٢) ايفانز بريجارد، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة د. أحمد أبو زيد، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٦٠، ص٤٠.

ومن الواضح أنه لابد من وجود درجة معينة من الاطراد والاتساق في الحياة الاجتماعية وتوفر نوع ما من التنسيق في المجتمع، وإلا استحال على أعضائه العيش معًا. فالناس لا يستطيعون في الواقع الانصراف إلى شؤونهم، إلا لأنهم يعرفون نوع السلوك الذي يتوقعه الآخرون منهم، وكذلك نوع التصرفات التي يتوقعونها هم أنفسهم من الآخرين في مختلف مواقف الحياة الاجتماعية، كما أنهم ينظمون نشاطهم تبعا لقواعد مرسومة، وحسب قيم متعارف عليها. فهم يستطيعون التنبؤ والتكهن بالأحداث، وبذلك يمكنهم ترتيب حياتهم بما يتفق ويتماشى مع حياة الآخرين. ولكل مجتمع نسق أو بناء يعيش فيه أفراده وينزلون عند مستلزماته، واستخدام كلمة (بناء) بهذا المعنى يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين أجزائه، إلى الحد الذي يمكن معه تجنب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف، وإنه يتمتع بدرجة من الديمومة والبقاء أكبر مما تحضى به معظم الأشياء العابرة السريعة في الحياة الإنسانية. وقد لا يفطن أفراد المجتمع نفسه إلى أن لمجتمعهم بناءًا متميزًا [١] .

إن طائفة الصابئة المندائيين عاشت ضمن وحدات قرابية كبيرة هي (العشيرة)، والعشيرة المندائية تختلف اختلافًا بنيويًا – وظيفيًا عن العشيرة العربية المجاورة لها في عدة وجوه ؛ أولها عدم امتلاك العشيرة أراضي أو مكان خاص بها (ديرة أو ربع)، ومع ان الصابئة كانوا يعيشون في احياء خاصة بهم في الناصرية وسوق الشيوخ والعمارة وغيرها، إلا أنها لم تكن أحياء مغلقة، ولم تمثل (غيتوات) خاصة بهم. وحين سألت شخصًا كان يسكن في الناصرية عن محلات الصابئة قديمًا، وهل هي مغلقة، أجابني: كلا أبدا إن محلاتنا كانت تسمى (محلة الصبة والبطاط) والبطاط هم من عشائر الأهوار التي توصف بالسادة أي المتحدرين من نسل الرسول الكريم (ص).

إن النقطة الجوهرية في البناء الاجتماعي للعسائر المندائية هي أنها عشائر تسكن المدن أو القصبات فهي تتواجد على الأغلب في مراكز الأقضية والنواحي،

---

(١) ايفانز بريتشارد، الانثروبولوجيا الاحتماعية، مصدر سابق، ص٤٢.

ولذا يعتبر الصابئة (مدينيون)، وحتى من سكن منهم في القرى البعيدة في عمق الهور، فأنه يسكنها مؤقتا لأسباب اقتصادية، أي بسبب ظروف العمل، إذ يتطلب عملهم كحرفيين (حدادين أو نجارين أو صانعي قوارب) الذهاب إلى القرى والبقاء لفترة هناك للاسترزاق.

ونستطيع القول إن أهم ما يبلور شكل البناء الاجتماعي من الأنساق، هو النسق الديني أولا، ثم يليه النسق الاقتصادي، بحكم كونهم حرفيين ولا يعملون في الزراعة أو الرعي أو حياكة الحصر أو المنسوجات، ولذلك تأثيراته الواضحة التي سنبينها لاحقاً.

إن العوائل المندائية معروفة ومحددة ويمكن أن نعددها مع مناطق تواجدها الأصلية وكما يلي: (١)

١.	المندوية	ومناطقهم الأصلية في العمارة والناصرية
٢.	الخميسية	ومناطقهم الأصلية قلعة صالح وسوق الشيوخ
٣.	المسودنية	ومناطقهم على ضفاف المجرى الكبير
٤.	البو زهرون	ومناطقهم بين عشائر ميسان والكحلاء والمشرح
٥.	البو كلمش	ومناطقهم في الكحلاء
٦.	الخفاجية	وهم موزعون بين الأحواز ومناطق الأهوار العراقية شرق دجلة
٧.	الكياليين	ومناطقهم الأصلية البصرة ونواحيها الشمالية
٨.	الدهيسية	ومناطقهم في الناصرية ونواحيها
٩.	البو سبتي	ومناطقهم في سوق الشيوخ
١٠.	المهناويين	ومناطقهم في سوق الشيوخ
١١.	الفريجات	ويستوطنون العمارة
١٢.	الجيازنة	ومناطقهم في البصرة وسوق الشيوخ
١٣.	الجحيلية	ومناطقهم في البصرة

---

(١) غضبان رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص١٣٦-١٣٧.

١٤. السهيلية	ويسكنون في سوق الشيوخ
١٥. البريجية	ويسكنون في قضاء الجبايش
١٦. السيفية	وموطنهم الأول سوق الشيوخ ثم العمارة وقلعة صالح
١٧. البنكانية	وموطنهم في البصرة

وهذا لا يعني أن كل أفراد العائلة أو العشيرة المندائية تتواجد في المكان المحدد أعلاه، إذ قد ينتقل أفراد من العشيرة وراء أعمالهم أو رزقهم، ولكن الغالب أن يعود الأفراد للسكن قرب أعمامهم، وهي إشارة أو كنية عن (العشيرة)، وحتى الذين يسافرون إلى القرى البعيدة في عمق الأهوار فإنهم يعودون إلى مناطقهم الأصلية في الأعياد والمناسبات الدينية.

والمندائيون – ولأسباب دينية – مسالمون، فهم أقلية صغيرة، وقد اضطرتهم الظروف إلى العيش في وسط إسلامي عشائري، الوحدة السياسية والاجتماعية فيه هي العشيرة، مما اضطرهم بالتالي إلى أتباع نظام اجتماعي تكافلي معروف في الوسط العشائري يسمى (ذب جرش)، وهو يعني الدخول في حمى قبيلة مقابل الاتفاق مع شيخها على دفع بدل مالي.

وهذا النظام يوجب على العشيرة المحتضنة أن تدافع عن العشيرة المندائية، وتمنع الاعتداء عليها وعلى أموال أفرادها من غزو العشائر الأخرى، ووفق هذا العرف يصبح الفرد المندائي كأنه منتمٍ إلى العشيرة العربية: مع عدم مشاركته في الأمور الحربية، وإنما تكون المشاركة مالية فقط مثل المشاركة في الدية (الفصل)، أو بناء مضيف أو تجهيز حملة عسكرية. . إلخ.

لكن هذه المشاركة لم تؤدِ إلى المساواة أو العدالة الاجتماعية، بل بقي أبناء الطائفة يعانون من عزل اجتماعي وتصنيف يضعهم في أدنى سلم الطبقات الاجتماعية في المجتمع العشائري. ففي تصنيف د. شاكر مصطفى سليم في دراسته الرائدة (الجبايش)، يقسم مجتمع الجبايش إلى ست طبقات، يأتي (الصبة) في آخر طبقة منها بعد (العبيد)، ويتعامل معهم مساكينهم على أنهم (أنجاس) أي غير طاهرين دينيًا. ومع كل ذلك فقد كان عددهم كبيرًا في منطقة دراسة الدكتور شاكر

مصطفى سليم، ثم رحلوا بسبب الاضطرابات السياسية بين (١٩١٤-١٩٢٤) المصاحبة للاحتلال الإنكليزي وتأسيس المملكة العراقية. فقد تعرض أبناء الـ (١٢٠) عائلة التي كانت تسكن في الجبايش إلى الاعتداء والسلب والنهب رغم أنهم (ذبّابة جرش) مع شيوخ المنطقة (آل خيون)، مما دفعهم إلى الهجرة إلى سوق الشيوخ والقرنة، ولم يبقَ في الجبايش مطلع الخمسينات وقت إجراء الدراسة سوى ثلاث عوائل نفوسها لا تتجاوز الـ (١٣) نسمة فقط[1].

وعلى الرغم من أن الصابئة يدخلون في حلف أو (يذبون جرش) مع عشيرة أو فخذ أو حمولة قوية، إلا أنهم لا يلجاون إليها عادة في حل مشاكلهم، بل يسعون إلى اللجوء إلى الحكومة الممثلة بمديرية الناحية أو مركز الشرطة للشكوى والمطالبة بحقوقهم. وهذا اختلاف مهم وأساسي بين العشيرة المندائية وما يحيط بها من عشائر عربية مسلمة، لأن الوسط العشائري يعتبر الشكوى للحكومة (طريق الضعيف)، والرجل الحقيقي هو الذي يأخذ حقه بيده. وهناك عدة أسباب وراء سلوك الصابئة ذاك، الأول هو أنهم قوم مدينيون يؤمنون بسلطة القانون، والثاني أنهم أقلية صغيرة، فحتى لو لجأوا إلى حلفائهم لأخذ حقوقهم فلن يأمنوا من انتقام الطرف الآخر، بينما الحكومة لا يستطيع أحد الانتقام منها، والأمر الثالث هو عدم اهتمامهم بنعتهم بالجبن وعدم القتال لأخذ حقوقهم، لأن ذلك موجود أصلاً في التعامل معهم من الطرف الآخر. بينما ينظر الصابئة من طرفهم إلى الموضوع من وجهة النظر الدينية الوادعة المُحبة للسلام ومحاولة العيش بسلام وبساطة، مع وجود هامش من حرية أداء الطقوس الدينية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا التعامل (العزل الاجتماعي) والإيذاء من قبل العشائر المحيطة بالصابئة بقي قائمًا مع العوائل التي خرجت من الديانة ودخلت الإسلام، ففي حالات طلب الزواج من إحدى العوائل المسلمة يقابل الطلب بالرفض

---

(١) د. شاكر مصطفى سليم، الجبايش، دراسة انثروبولوجية لقرية في اهوار العراق، مطبعة الرابطة بغداد، ١٩٥٦، ص١٦٨ وما بعدها.

والازدراء أو تفرض فيه شروط مبالغ فيها مثل المهر العالي[1]، وعندما سألت أحد رؤساء الأفخاذ من عشيرة السواعد عن حالات مماثلة، قال لي أن في عشيرته أحد البيوت (وهي بدنه أصغر من الفخذ) التي كان جدهم صابئيًا، وهم معزولون اجتماعيًا حتى الآن، فلا يتزوجون من بقية أفراد العشيرة ولا أحد يتزوج منهم، بل ويعيرون في الكثير من الحالات بأنهم (صبة) رغم مرور حوالي القرن على إسلامهم.

وهناك عشائر مسلمة عربية كبيرة ذات أصول مندائية فالزهيرات في الجنوب وديالى أصلهم من البوزهرون، وكذلك هناك عشائر مثل الخميسية والسيفية وبعض أفخاذ السواعد من أصول مندائية، لكن التغير في التعامل مع هذه الوحدات العشائرية يستغرق وقتًا طويلاً عادة.

يمثل كل ما تطرقنا إليه سابقًا مرحلة تاريخية تمتد حتى منتصف القرن العشرين تقريبًا، إذ كان أبناء الطائفة يعيشون في بيئاتهم التقليدية، في كنف عوائلهم أو عشائرهم التقليدية، يدير أمورهم رجال دين عارفين بحاجات مجتمعهم التقليدي البسيط، وقادرين على ذلك من خلال الأعراف والتقاليد وبعض المواعظ الدينية، لكن التغيرات ابتدأت في الفترة الواقعة بين الحربين مع بدء هجرة أبناء الطائفة إلى المدن الكبرى، وهذا ما سنناقشه بتفصيل أكثر في الفصل التاسع.

عند استقرار الطائفة المندائية في بغداد (وفيها الثقل الأكبر للطائفة اليوم)، عاشوا حياتهم وفق النمط الحديث. وهذا لم يكن يعني انقطاع الصلة مع عشائرهم، بل لقد حدث تحول في نمط التعامل مع البدنة العشائرية، إذ أنها لم تعد تمثل القشرة الواقية للفرد ضمن حي أو سلف محدود، بل تحولت إلى انتماء إلى عائلة كبيرة أكبر من العائلة البايولوجية، وتم التعامل معها بتكافل في الأفراح والأحزان لكن دون فرض سطوة على الأفراد. ومع ذلك نلاحظ أن أبناء الطائفة تجمعوا في سكنهم مثلاً في جانب الكرخ أكثر من جانب الرصافة، لأن رجال دينهم

---

(١) د. شاكر مصطفى سليم، الجبايش، مصدر سابق، ص ١٠٧

والمهاجرين الأوائل سكنوا هناك وكونوا نواة لأقاربهم المهاجرين، إذ يسكن في قضاء الكرخ (٥٤%) من سكان بغداد من الطائفة، بينما يسكن (٢٢%) منهم في قضاء الرصافة، وفي مدينة الثورة (١٦%)، ولا يسكن في الأقضية الأخرى من بغداد مثل الأعظمية والكاظمية والمدائن والمحمودية سوى (٨%) فقط[١].

يعود أول تعامل رسمي مع وجود الطائفة في العراق إلى أيام الاحتلال البريطاني، إذ أصدرت وثيقة صدقها الميجر براون حاكم القرنة والميجر مارك حاكم العمارة والميجر دكسن حاكم الناصرية جاء فيها: (صدر أمر بتنظيم وترتيب عمل رؤساء الدين، وتعيين الشيخ دخيل عيدان رئيسًا على ملة الصابئة وهو بدرجة "كنزفرة"، وبمساعدة "الترميذي" الشيخ زهرون والشيخ عبد، مع كيفية تنظيم رواتب لرجال الدين ومساعدتهم ماديًا لقاء تقديم الخدمات الدينية لأفراد الطائفة في كل مكان، والطلب من رجال الدين إقامة "مندي" معبد في كل مكان يتواجد فيه الصابئة... هذا أمر)[٢].

وبعد تأسيس الحكم الوطني في العراق وتتويج الملك فيصل الأول عام (١٩٢١)م ملكًا على العراق، بعث الشيخ دخيل الشيخ عيدان برسالة تهنئة وتعريف ومطالبة بحقوق طائفته وجاء في نهايتها (واجتمع رؤساء الأمور في هذه الملة، وقدموا عرائض للحكومة الإنكليزية منذ احتلال العراق، وطلبوا منهم المصادقة على ترشيحي رئيسًا دينيًا لهذه الملة، أرجو وألتمس من مراحمكم السامية أن يصدر أمركم بتصديق رئاستي لأحظى بذلك، هذا والأمر كله منوط بجلالة مليكنا أطال الله عمره وتعالى نصره ١٨ شباط ١٩٢٢)[٣].

ومع تزايد الهجرة من الجنوب إلى المدن الكبرى مثل بغداد والبصرة وحدوث التغيرات السياسية والاجتماعية في العراق، انخرط أبناء الطائفة في

---

(١) التوزيع الديني للسكان العراقيين، تقرير مديرية الأمن العامة، مركز الاعداد والتطوير، مكتب العلوم النفسية والاجتماعية صدر كملحق في كتاب رشيد خيون الاديان والمذاهب في العراق، دار الجمل، المانيا، ٢٠٠٣.

(٢) مجلة آفاق مندائية، العدد الثالث عشر، مايس (ايار) ٢٠٠٠.

(٣) مجلة آفاق مندائية، العدد١٣، مايس ٢٠٠٠.

الأحزاب السياسية وابتعدوا بشكل واضح عن محور الهوية الدينية، واستمر هذا الحال حتى منتصف السبعينات تقريبًا، إذ بدأ التفكير بين مثقفيهم بشكل جدي لإيجاد هيكلة تنظيمية اجتماعية تبلور هوية المندائيين، فشكلت أول هيئة مندائية تحت اسم (هيئة التولية)، وكان مركزها بغداد. وقد اشترك فيها رجال الدين والأفراد المندائيين المدنيين وترأسها رئيس الطائفة انذاك "الكنزابرة" الشيخ عبد الله الشيخ سام، وبعد وفاته ترأسها "الكنزابرة" الشيخ عبد الله الشيخ نجم[1]. وبالنظر لعدم قيام هذه الهيئة بما كان متوقعًا منها عند إنشائها، فقد تم حلها، ويقال أن السبب وراء ذلك كان محاولة تقليص دور رجال الدين، إذ توسعت اتجاهات العمل المندائي الاجتماعية والثقافية، وبرز دور المثقفين المندائيين في الطائفة وتم تأسيس مجلس عوضًا عن الهيئة ترأسه الشيخ "كنزابرة" عبد الله الشيخ نجم تحت اسم (المجلس الروحاني الأعلى لطائفة الصابئة المندائيين) وقد كان مقره في بغداد وتشكلت عضويته بمشاركة رجال الدين والنخبة المثقفة من المندائيين.

استمرت هذه المنظمة تقود الطائفة على مدى عشرين سنة تقريبًا، وكان عملها يتسم ببعض التوتر بين رجال الدين والمثقفين المندائيين، وكانت هذه الحالة تمر بفترات شد وفترات وئام. ومن قرارات المجلس الروحاني المهمة في بلورة صورة الطائفة عدم السماح بنشر أي معلومة أو مطبوع أو دورية عن الطائفة في العراق بدون موافقة المجلس الروحاني، باعتباره المرجعية الدينية والمدنية للطائفة. فعندما أصدر الأستاذ غضبان رومي كتابه (الصابئة) خُتم بختم على أكثر من صفحة من صفحات الكتاب بعبارة تقول (تنبيه هام... إن المجلس الروحاني الأعلى لطائفة الصابئة لا علاقة له بهذا الكتاب ولا يتحمل مسؤولية ما يحتويه. . كما أنه لا يتفق والمؤلف في كثير مما ورد فيه. . "المجلس الروحاني الأعلى")، مع العلم أن الأستاذ غضبان رومي من المثقفين المتميزين في الطائفة، وكان يشغل في فترة صدور كتابه منصب نائب رئيس المجلس الروحاني الأعلى[2]. ومن الجدير بالذكر

(١) حكمت السليم، كيف بنى المندائيون جمعياتهم؟، مقال منشور في (بحزاني) صحيفة يومية الكترونية تعنى بالعلمانية والأقليات www.bahzani.org بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٢٠.
(٢) غضابن رومي، الصابئة، مصدر سابق، ص١٩٣-١٩٩.

أن الأستاذ غضبان رومي كان أول مندائي يتخرج من المعاهد العليا في بداية العشرينات، وأول مندائي يتوظف في الحكومة في سلك التدريس، وهذا يشير إلى مدى الصراع الموجود داخل المجلس الروحاني الأعلى بين المدنيين والشيوخ.

وحينما اشتد الخلاف بين القيادة الدينية والمدنيين حول تسيير شؤون الطائفة ومصالحها تم الاتفاق على فصل المؤسسات، على أن يصار إلى تكوين مؤسسة خاصة برجال الدين أطلق عليها (المجلس الروحاني) تهتم بشؤون الدين، بالإضافة إلى مؤسسات أخرى تدار من المدنيين، وتم الاتفاق على كتابة نظام داخلي للطائفة تحدد فيه المسؤوليات، وذلك في عام ١٩٩٦ وقد أجيز من قبل وزارة الأوقاف.

لقد واجه هذا النظام الداخلي الكثير من الاعتراضات مما أدى إلى تعديله مرتين، وآل اليوم إلى تشكيل ثلاثة مجالس سنناقشها بالتفصيل في مبحث لاحق وهي:

١. **مجلس عموم الطائفة:** ويتكون من (١٨٠) عضواً، ينتخب أعضاؤه من العوائل أو العشائر المندائية بنسب متناسبة مع الحجم السكاني لهذه العوائل، وهو يمثل برلمان الطائفة.

٢. **مجلس شؤون الطائفة:** وهو الجهة المسؤولة عن متابعة شؤون الطائفة ورعاية افرادها في المجالات الثقافية والاجتماعية والتربوية والمالية بالاضافة إلى مراجعة الجهات الحكومية، ويشرف هذا المجلس على عدد من اللجان الفرعية.

٣. **المجلس الروحاني:** ويضم رجال الدين ومهمته إدارة الشؤون الدينية والطقسية للطائفة، مع إيجاد صيغة للتعاون والتشاور بين المجالس الثلاثة.

وبعد عقد التسعينات من القرن العشرين، ونتيجة للضغوط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، هاجرت أعداد كبيرة من أبناء الطائفة إلى المهاجر في أنحاء العالم، مما دفعهم إلى تشكيل أكثر من (٢٠) جمعية مندائية في أنحاء العالم تهتم بشؤون الجاليات المندائية وتنسق تعاونها مع مركز رئاسة الطائفة في العراق.

إن جميع التشكيلات والمؤسسات الاجتماعية والثقافية والدينية المشار اليهـا سابقًا، تؤكد على الهوية العراقية لأبناء طائفة الصابئة المندائيين، كما وتؤكد علـى الخصوصية الدينية الثقافية لهذه الشريحة من أبناء العراق. وهـي ترفـع شـعار (الصابئة المندائيون عائلة واحدة)، وتحاول أن تنسق جهودها على تعميق العلاقـة بين جميع مكونات أبناء الطيف العراقي، هـذه العلاقـة القائمـة علـى احتـرام خصوصية الآخر، ورفض التهميش والتذويب في ثقافة الكل، وإشاعة مفهوم (القوة في التنوع)، كما أن كل الجمعيات والمؤسسات المندائية اليوم تحاول أن تفتح أبوابًا للحوار مع ثقافات وأديان العالم، وذلك من خلال المؤتمرات والنـدوات والمراكـز البحثية، وتسعى لتعريف الآخر بخصوصيتها من خلال الجهود المبذولة في استثمار كافة وسائل الاتصال الحديثة.

المبحث الثاني
نسق القرابة

أولا: نظام العلاقات القرابية

إن النسق القرابي لطائفة الصابئة المندائيين مشابه أو يكاد يكون مطابق للنسق القرابي في عشائر جنوب العراق العربية، فالقرابة مبنية على أساس خط النسب الأبوي (Patrilineal Kinship)، بالرغم من أن النسب الحقيقي أو الأصلي بالنسبة للمندائي هو الانتساب إلى الأم. فـ "ملواشة" المندائي – وهو الاسم الديني المصاحب للإنسان المندائي من ولادته حتى وفاته – تتكون من الاسم واسم الأم، وربما يشير ذلك إلى أن الأم التي ولدت الطفل تكون بالتأكيد أمه، بينما قد يكون هناك شك في نسبه لأبيه، وهي حالة معروفة في بقية الأديان، ولكن بعض الباحثين يرون في النسب إلى الأم إشارة إلى مرحلة قديمة كان فيها النسب الأمومي (Matrilineal) هو السائد.

إن مكانة المرأة دينيًا لدى المندائيين جيدة، ففي ميثولوجيا الخلق لم تخلق من ضلع آدم وإنما خلقت من نفس الطينة التي خلق منها آدم. وعلى صورة آدم الذي خلق بدوره على صورة "بثاهيل" الملاك الذي قام بعملية الخلق بتكليف من الحي العظيم، ومع هذا فثمة بعض الإشارات الدينية لتدني مكانة المرأة (١).

ينتمي الفرد المندائي إلى واحدة من العشائر المندائية السبع عشرة التي تم الإشارة إليها سابقًا، ولكن هذا الانتماء مختلف عن الانتماء العشائري السائد في أماكن سكنى المندائيين، لأن العشيرة المندائية فاقدة للكثير من وظائف العشيرة في الحياة القبلية، فهي لا تملك (ربع أو ديرة) أي أراضي خاصة بها للزراعة أو الرعي، وذلك لعدم ممارسة المندائيين مثل هذه المهن، وهي ليست وحدة دفاعية أو قتالية لأنها لا تملك هذه القدرة، وبالتالي تصبح العشيرة الصابئية المندائية

---

(١) كورت رودولف، النشوء والخلق في النصوص المندائية، مصدر سابق، ص١٦١

وظيفيًا أقرب إلى العوائل المدينية، إذ تؤدي وظائف التكافل الاجتماعي والتواصل والمساعدة في أوقات الفرح والحزن. ورغم الإشارة إلى المناطق الأصلية لتواجد هذه العشائر، إلا أن ذلك لا يمنع من تواجد خليط من العشائر في المناطق ذات التواجد الصابئي الكثيف. فقد كانت محلة الصابئة في سوق الشيوخ تحوي أزقة، وكانت كل عشيرة تسكن في زقاق ذو بيوت متلاصقة، مثل زقاق السبتية وزقاق السهيلية وزقاق السيفية. . إلخ، ولكن هذا التقسيم لا يعني الانعزال أو التفريق الدقيق، وإنما وجد هذا النمط من السكنى حتى يكون الفرد قريبا من الأخوة أو أبناء العمومة.

إن المكانة الاجتماعية (Social Status) في المجتمع المندائي تكونها عدة عوامل لا يدخل ضمنها الانتماء إلى عشيرة معينة، أي ليس هناك عوائل أشراف أو عشائر مختصة أو محتكرة للكهنوت. ورغم أن سلك الكهنوت مفتوح لكل مندائي تتوفر فيه الشروط اللازمة مثل سلامة الجسد وسلامة النسب من كون أي من الأسلاف ليس ابناً من زواج ثان، إلا أن الواقع العملي الذي رأيته هو انحصار الكهنوت في عوائل معينة من خلال انتقال المعلومات والدروس الكهنوتية من الأب إلى الابن، ولكن ذلك لايعني بحال أن تمتلك عشيرة معينة حق دخول أفرادها إلى سلك الكهنوت وبالتالي تحضى بمكانة اجتماعية متميزة على أساس الانتماء القرابي.

ورغم أن نسق القرابة لدى المندائيين يتبع النمط الأبوي، إلا أن أقارب الأم وخاصة الأخوال لهم مكانة جيدة أيضًا، وذلك يعود لنمط الزواج الداخلي، وعلى هذا الأساس فغالبًا ما يكون الأخوال هم أبناء عمومة، وكذلك يعود لصغر حجم العشائر المندائية، فإن هناك تداخل كبير بين علاقات المصاهرة والقرابة. كما وأننا لا نرى في العشيرة المندائية ظاهرة إعطاء نساء أو أخذ نساء كعقوبات على جرائم (فصلية)، لأنهم نادرًا ما يتعرضون لمثل هذه المشاكل، وفي حالات حصول مشاكل كبيرة مثل القتل نراهم يلجأون إلى سلطة القانون وأجهزة الدولة التي تنفذ هذا القانون.

لكننا قد نرى نمط زواج المقابلة، أي تزوج فردين كل منهما بأخت الآخر أو ما يسمى (كصة بكصة) رغم أن هذه الحالات قليلة أيضًا.

لقد تعرض انتماء الفرد المندائي إلى عشيرته إلى تغيرات تبعًا لتغير نمط حياته وخصوصًا بعد الهجرة من مدن وقرى الجنوب إلى المدن الكبرى مثل بغداد والبصرة. اذ رأينا في منتصف عقد السبعينات عندما حاول المندائيون بلورة هوية عصرية لجأوا إلى إقامة مؤسسات عصرية، وهي مجالس الطائفة. وفي إنشائهم لهذه المجالس تم الاعتماد على العشائر أو العوائل المندائية.

إن مجلس عموم الطائفة هو الهيئة العليا للطائفة والممثلة فيه جميع (العوائل- العشائر) المندائية المقيمة في بغداد، بالإضافة إلى ممثلي المجالس الفرعية في المحافظات[1]. وتجدر الإشارة إلى طريقة تشكيل مجلس عموم الطائفة، إذ يتكون من ممثلي جميع (العوائل /العشائر) المقيمة في بغداد والمجالس الفرعية في المحافظات وكما يلي:

١. خمسة أعضاء لكل عائلة يزيد عدد أسرها على (٥٠) أسرة، وخمسة أعضاء احتياط.

٢. عضو واحد لكل عائلة يقل عددها عن (٥٠) اسرة، وعضوان احتياط.

٣. عضو واحد من كل مجلس فرعي في المحافظات، إضافة إلى رئيس المجلس الفرعي أو من ينوب عنه من أعضاء المجلس ويكون بصفة مراقب.

إن الأعضاء الذين يمثلون (عوائلهم / عشائرهم) يتم انتخابهم بطريقة الانتخاب الحر المباشر من قبل هذه العوائل، ويتم ذلك قبل شهر من انتهاء دورة مجلس عموم الطائفة أو حله. إن انتخاب الفرد ليمثل عائلته يعتمد ويجلب في الوقت نفسه المكانة الاجتماعية (Social Status)، إذ لا يتقاضى الفرد عن عمله في هذا المجلس دخلاً، ولا يمكنه أن ينفذ أمرًا دون موافقة (عائلته / عشيرته)، ومن الشروط والمواصفات الخاصة بعضو مجلس العموم:

---

(١) النظام الداخلي المعدل لطائفة الصابئة المندائيين، بغداد، سنة ٢٠٠٠م مادة (١)

١ – أن لا يقل عمره عن (٢٥) سنة.

٢ – أن يكون صابئيًا مؤمنًا بالدين المندائي.

٣ – أن يكون حسن السيرة والسلوك وغير محكوم عليه بجناية أو جنحة مخلة بالشرف.

٤ – أن يضع مصلحة الطائفة فوق مصلحته الشخصية والعائلية.

٥ – أن يجيد القراءة والكتابة وعلى قدر مقبول من الثقافة والاطلاع.

٦ – أن يلتزم بتنفيذ مواد النظام الداخلي وقرارات مجلس العموم(١).

إن لهذا المجلس المكون من ممثلين للعوائل، واجبات وسلطة عليا في الوقت نفسه، إذ يقوم بانتخاب رئيس الطائفة من بين المرشحين من رجال الدين حصرًا، والذين يرغبون بترشيح أنفسهم، والمتوفرة فيهم الشروط لهذا المنصب. ومن سلطات مجلس العموم سحب الثقة من رئيس الطائفة في الحالات الآتية:

١ – خروجه من الديانه المندائية.

٢ – عدم التزامه بواجباته الدينية ومسؤولياته تجاه الطائفة بموجب هذا النظام.

٣ – عند فقدانه أحد الشروط المخله بكونه رجل دين مندائي وهي محددة في النظام الداخلي تفصيليًا.

إن مدة دورة مجلس العموم هي ثلاث سنوات، ويمكن تمديدها عند الضرورة باقتراح من المجلس الروحاني أو من مجلس شؤون الطائفة، علمًا أن مجلس عموم الطائفة ينتخب من بين أعضاءه سكرتيرًا أو مقررًا بالانتخاب الحر المباشر وبالأغلبية(٢).

---

(١) النظام الداخلي المعدل لطائفة الصابئة المندائيين، بغداد، سنة ٢٠٠٠ مادة (٣) ص٣

(٢) المصدر نفسه، المادة (١١)

وتتجلى سلطة الجماعة الاجتماعية في النظام الداخلي الذي ينص على عـــدم النظر بأي مقترح يقدم إليه من أي فرد مندائي، إذا لم يقدم عـــن طريـــق مجلـــس (عائلته) أو من خلال المجلس الروحاني أو مجلس الشؤون[١].

لذا فالفرد غير موجود، بل هو جزء من عائلته التي من خلالها فقط يمكـــن أن يسمع صوته، وتظهر غلبة مصلحة المجموعة على مصلحة الفرد، إذ يتجلى ذلك في آلية الانتخاب الديمقراطي، وهي آلية انتخاب ممزوجة بسلطة الكتل الاجتماعية.

وبما أن مجلس العموم هو السلطة العليا للطائفـــة، فإن على رئيس الطائفـــة المنتخب – لفترة انتخابية مدتها (٣) ثلاث سنوات قابلة للتجديد – تأدية اليمين أمام مجلس العموم، وهذا مؤشر وأضح على تحولٍ في ميزان القوة الاجتماعيـــة مـــن الكهنوت في الفترة التقليدية إلى التجمع العائلي الاجتماعي – وهي الكتلـــة الممثلـــة بالانتخاب الحر – في الفترة المعاصرة. ويتضح من ذلك عمل الطائفة على بلـــورة حقيقية لهوية الطائفة المندائية العصرية المبنية على أسس دينية.

وإن هذا لا يعني تهميش رجال الكهنوت، فالمجلس الروحاني هو أعلى جهة دينية لطائفة الصابئة المندائيين في العراق والعالم، ويـــضم جميـــع رجـــال الـــدين المعتمدين رسميًا في العراق، ويقوم بإجراء المراسيم والشعائر الدينية لأبناء الطائفة والمساهمة في تسييرها وتطويرها بما يتلائم وروح العصر شرط عـــدم المـــساس بجوهر الديانة المندائية، ويتولى الإشراف والتوجيه والإرشاد والتوعية الدينية[٢].

ثانيا: نظام الزواج

يحتل موضوع الزواج والأسرة مركزًا رئيسيًا في الدراســـات الاجتماعيـــة وخاصة الأنثروبولوجيا التي تهتم في المحل الأول بدراسة المجتمعـــات التقليديـــة.

(١) المصدر السابق، المادة (٢٢)

(٢) المصدر نفسه، المادة (٥٧)

وربما كان السبب الرئيسي وراء هذا الاهتمام هو ذلك الدور الذي تلعبه علاقات وروابط الأسرة والقرابة في حياتنا اليومية، بالإضافة إلى طرافة الموضوع ذاته وعلى الأخص ما يتعلق بعادات الزواج المختلفة وأشكال العائلة في مختلف المجتمعات، مما يجعل موضوع الزواج والأسرة والقرابة من أكثر موضوعات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا جذبًا ولفتًا لانتباه العلماء واهتمامهم[1].

وهذا ما لاحظناه من اهتمام الكثيرين بطقوس الزواج المندائية، لما فيها من غرابة وجمال ورمزية عالية، فالناظر غير المختص يشير إلى أن (الصبة) يتزوجون في الماء، وهو الأمر المثير في عقد الزواج، بينما الباحث المدقق في الأمر، يرى أن طقوس الزواج هي عقد وشهود وإشهار يسبقة تطهر للعروسين بعملية تعميد يمكن إجراءها لأي فرد مندائي وفي أي وقت.

إن أول سمة من سمات نسق الزواج المندائي هي كونه (زواجًا داخليًا) (Indogamy). فهو أولاً يجب أن يكون محصورا داخل الطائفة، إذ لا يجوز زواج المندائي أو المندائية من خارج الطائفة، وكذلك يعتبر الزواج داخل العائلة أو العشيرة هو المفضل في الفترة التقليدية، عندما كان أبناء الطائفة يسكنون مدن الجنوب. والمحرمات والمحارم (Incest) في الدين المندائي قريبة جدًا من الدين الإسلامي، إذ تحدد المحرمات بالأم وأم الأم والأخت وذريتها وابنة الأخ وذريتها والعمة والخالة أو الجمع بين الأختين، كما ويسمح بزواج الرجل من أخت الزوجة بعد وفاتها بالرغم من أنها حالة مكروهة، ولا يسمح بزواج الأرملة من أخ زوجها لأن الأخ لا يجوز أن يطأ فراش أخيه.

أما ما يخص تعدد الزوجات فإنه غير مسموح به دينيًا عند المندائيين، لكن الواقع الاجتماعي فرض تغيراته، وسمح بتعدد الزوجات، إذ نجد اليوم مندائيين متزوجين بأكثر من زوجة ومنهم شيوخ. ويعزى ذلك إلى الكثير من الكوارث التي تعرضت لها الطائفة والتي كانت تودي بحياة الرجال، وعندما سألت عدد من أبناء الطائفة بينهم مثقفين دينيًا عن موضوع تعدد الزوجات، أجابوني بأنه غير جائز

---

(١) د. أحمد ابو زيد، البناء الاجتماعي، الجزء الثاني، الأنساق، مصدر سابق، ص٢٧٤

دينيًا، بل أن بعض رجال الدين يشير إلى أن المندائية أكثر تشددًا حتى من المسيحية في هذا الموضوع، فالزواج هو علاقة شرعية بين رجل وامرأه وما يربطه الله لا يحله إنسان إلا بالوفاة، هذا بحسب وجهة النظر المسيحية، بينما لدى المندائيين حتى الوفاة لا تحل هذه الرابطة لأنها علاقة بين نفسين والنفس خالدة تنتقل من طور إلى طور بعد الوفاة. ويشير بعض رجال الدين إلى أن الطائفة المندائية مرت بفترات كان محرمًا فيها الزواج الثاني حتى بالنسبة للأرامل(١) .

ويمكن أن نرى بقايا هذا التشدد، في عقد الزواج للثيبات والصعوبات التي تكتنفه، إذ لا يجوز لـ "ترميذة" أو "كنزافرة" يضع على رأسه "تاغه" (تاج النور) أن يعقد زواجًا لامرأه ثيب، لأن تاجه سيلوث – بحسب الميثولوجيا الدينية – ولذلك فقد استحدثت درجة دينية خاصة، تعتبر – دينيًا – أوطأ من "ترميذة" يطلق عليها "ابيسق"، وهو أصلاً "ترميذة" يقوم بعقد قران لامرأه ثيب فتنزل مرتبته الدينية، ويسمى بعد ذلك "ابيسق" ويختص عندها بعقد قران النساء غير العذراوات، ولا يجوز له عقد زواج لفتاة عذراء. ويذكر أن آخر من كان بهذه الدرجة المرحوم الشيخ آدم، الذي اختار إنزال درجته الدينية خدمة لأبناء الطائفة لعدم وجود رجل دين يعقد للثيبات، واليوم وبعد وفاة الشيخ آدم وعدم وجود رجل دين برتبة "ابيسق" لجأ رجال الدين إلى تغيير في الطقس، وهو أن رجل الدين – غير النازل – (أي المحتفظ بدرجته) يعقد زواجًا للمرأة الثيب دون أن يضع تاجه على رأسه أثناء طقوس عقد القران !!

كذلك نرى التشدد حيال موضوع الزواج الثاني، في عدم جواز دخول ابن المرأة الثيب إلى سلك الكهنوت، بل أن "الحلالي" يجب أن يكون سالمًا من هذه المسأله – أي أن لا يكون ابنا لثيب سبق لها الزواج قبل أبيه – حتى في سلسلة نسبه إلى الجد السابع، أي إذا تزوجت امرأة أرملة أو مطلقة وأنجبت من زوجها الثاني فإن أولاد هذا الزواج يعتبرون غير مؤهلين طقسيًا حتى أحفاد أحفادهم.

---

(١) الترميذا يوحنا النشمي، الزواج المندائي بين الشكل والمضمون، موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر ٢٠٠٥/٣/١٩

ثالثا: نظام الأسرة

إن نمط العائلة المندائية التقليدي مشابه لنمط العائلة العراقية بشكل عام. فهي عائلة أبويه (Patrilineal Family)، يمثل الأب فيها السلطة المركزية، ثم يأتي دور الذكور من الأولاد ثم بعد ذلك الأم والبنات، وهذه السيادة الذكورية في العائلة تعزى لأسباب اجتماعية واقتصادية، بالرغم من المكانة المتميزة للمرأة في الأدب الديني المندائي، ولكن واقع الحال يشير إلى تأثر المندائيين بالبيئة الاجتماعية المحيطة بهم، ومع ذلك فالمرأة المندائية في المجتمعات التقليدية كانت أقل معاناة من جارتاها المسلمات، لأن جارتها المسلمة كانت تعمل في الزراعة والرعي بالإضافة إلى مسؤليات المنزل، ومع ذلك فمكانتها الاجتماعية واطئة، بينما كانت المرأة المندائية تكاد تكون متفرغة لإدارة أعمال المنزل.

ومثلها مثل حال العائلة العراقية، تأثرت العائلة المندائية بالتغيرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي حدثت في المجتمع نتيجة شيوع النمط الحديث من الحياة، ونتيجة لانتشار التعليم وزيادة وسائل الاتصال من صحف ومجلات وتلفزيون وغيرها، كل ذلك جعل العائلة المندائية عائلة عصرية، ولكن على الرغم من ازدياد الحرية في علاقات الأبناء بالآباء مثلاً، إلا أن نمط العلاقة البطريركية مازال قائمًا.

ورغم وجود حالات تعدد الزوجات لدى أبناء الطائفة اليوم، إلا أنها لا تمثل حالة شائعة، وإن خصوبة الأسر المندائية – أي عدد الأبناء فيها – رغم انخفاضه عما سبق بسبب متطلبات الحياة العصرية، إلا أن العائلة المندائية ما تزال تعتبر ذات خصوبة عالية. إذ تنجب المندائية (٤) أطفال أو أكثر، وهذه الخصوبة جزء من حالة (الدفاع عن الوجود) لدى الأقليات، في محاولة منها لمقاومة الاندثار. كما أن الدين المندائي يشجع بل ويدفع نحو الزواج والإنجاب، لأن الرجل غير المنجب يعتبر ناقصًا طقسيًا ودينيًا، كما مر بنا في فصل الطقوس الدينية. إن مشاكل التحول من النمط التقليدي إلى النمط العصري تظهر أيضًا في حالات الطلاق في العائلة

المندائية. إذ أن الطلاق غير مباح دينيًا إلا في حالات محددة مثل الخروج من الدين المندائي أو الزنا أو الإصابة ببعض الأمراض التي تصبح معها المعاشرة الزوجية متعذرة، مثل الأمراض المعدية أو الجنون أو العقم. لكن ضغوط مشاكل الحياة العصرية أدت إلى ازدياد معدلات الطلاق[1].

ونتيجة للتغيرات التي شهدتها حياة أبناء الطائفة، حاولت قيادتها الدينية والمدنية أن ترسخ نمط تعامل عصري مع المشكلات التي تعترض حياة المندائيين، فلقد أُسست (المحكمة الشرعية المندائية) في ١٩٩٦/١١/١١، وتم تشكيلها وفق التنظيم الآتي:

١ - **رئيس المحكمة:** شخصية مدنية معروفة بنزاهتها ومركزها في مجالس الطائفة.

٢ - **رجل دين:** عضو المحكمة، يساعد الرئيس في البت في الشؤون الدينية.

٣ - **رجل قانون:** عضوًا مدنيًا، مستشارًا قانونيًا للبت في المسائل القانونية

٤ - **رجل إدارة:** عضوًا مدنيًا، مديرًا للإدارة ومتوليًا للشؤون الإدارية في المحكمة.

٥ - **باحثة اجتماعية:** عضوة مدنية، وظيفتها دراسة الحالة الاجتماعية للمشكلة المقدمة.

وقد قدمت المحكمة خدمات كبيرة لأبناء الطائفة عبر تنسيقها مع الجهات الحكومية وشبه الحكومية في المجتمع، كما أنها قدمت خدمات لأبناء الجاليات المندائية في المهاجر، وذلك في تسهيل الزواج بينهم وبين أبناء الطائفة في الوطن الأم، عن طريق إرسال الوكالات الرسمية المصدقة بشكل رسمي ومعتمد من السفارات والقنصليات العراقية في الخارج.

---

١ حمودي الهلالي. رئيس المحكمة الشرعية المندائية، المحكمة الشرعية المندائية، مجلة افاق مندائية، العدد (١٧) السنة السادسة تموز ٢٠٠١، ص١٥

إن وجود محكمة شرعية عصرية لدى الطائفة يمنحها القدرة على مواجهة العديد من مشكلات الأسرة والزواج، وذلك بدراسة هذه المشكلات والتحرك باتجاه حلها. وتمثل هذه المحكمة تغيرًا في نمط التعامل مع مشكلات حياة الأسرة من كونه نمطا تقليديا يتم فيه الرجوع إلى رجال الدين أو وجوه الطائفة ذوي المكانة الاجتماعية في حل المشاكل، فتحوله إلى نمط عصري يتم عبر مؤسسة عصرية تتوفر فيها إمكانات قانونية واجتماعية ودينية لدراسة المشكلة ومحاولة وضع الحلول لها.

ويعتبر تغير وضع المرأة جزءًا لا يتجزأ من تغيرات نسق الأسرة والزواج لدى المندائيين. فالمرأة بعد أن درست واشتغلت وحققت استقلالها الاقتصادي، تغيرت مكانتها الاجتماعية وتعددت الأدوار التي تؤديها في حياة الأسرة. ولكن لا يخفى علينا أن هناك جانب آخر في هذه المعادلة، فخروج المرأة للدراسة ومن ثم العمل، أخّر سن زواجها، وأدى إلى ازدياد حالات العنوسة في المجتمع المندائي، بل إن بعض أبناء الطائفة ممن سألتهم عن الموضوع أجابني: إن تغير مكانة المرأة وتنافسها مع الرجل في الدراسة والعمل هو الذي أدى إلى غرورها واعتزازها بأمكاناتها، وولّد لديها حالات رفض واختيار وانتقاء في عملية الزواج، وهذا كله يؤدي إلى تأخر سن الزواج أو عنوسة الفتاة.

إن الأسرة المندائية مثل أي أسرة عراقية تراوح بين التقليدية والحداثة، فقد تغيرت مكانة المرأة في هذه الأسرة وأصبح لها دور فعال فيها. إلا أن مقياس الشرف مازال مقياسًا بايولوجيًا، إذ يتعلق شرف وسمعة الأسرة كلها رجالها ونسائها بعذرية ابنتهم، فالبنت التي تفقد عذريتها قبل الزواج تعرض سمعتها وسمعة عائلتها إلى تهديد حقيقي.

فالعلاقات الجنسية قبل الزواج محضورة نهائيًا في المجتمع المندائي، بل وهناك شروط وفحص للتأكد من "بهارة" (عذرية) الفتاة قبل عقد الزواج لها، كما مر بنا في مبحث طقوس الزواج، وهي ما يسمى (الكشافة). وقد حاول بعض الجريئين من رجال الدين تخفيف أو إلغاء هذا الجزء من عقد الزواج مقدمين حججًا

بأن ليس هنالك نص ديني على ذلك، وإنما (الكشافة) جاءت من تقاليد اجتماعية. وإن مثل هذه الآراء الجريئة تأتي من رجال دين يعيشون في المهاجر، ويستشعرون معاناة أبناء جاليتهم جراء ضغوط الحياة والثقافة المهجرية على هويتهم الثقافية، ويحاولون أن يجدوا مخارج دينية عقلانية لذلك[1].

إن نمط الأسرة المندائية أخذ بالتحول من الأسرة الممتدة (Extended Family) إلى نمط الأسرة النووية (Nuclear Family)، وذلك ضمن سياقات التغير من التقليدية إلى المعاصرة. فقد كانت الأسرة المندائية التقليدية الممتدة تتكون من الأب وزوجاته وأبنائه المتزوجين متحدين في وحدة اجتماعية واقتصادية، يرأسها الأب وفي بعض الحالات – عند وفاة الأب – الأخ الأكبر، أما اليوم فنجد أن العائلة المندائية مكونة من الزوج والزوجة والأولاد. ورغم أن الظروف الاقتصادية السيئة التي مر بها البلد خلال العقدين الآخرين دفعت ببعض الأبناء إلى الزواج والاستقرار مع عائلته الأصلية، إلا أن الزوجين الشابين يعتبران ذلك حالة مؤقتة ريثما تتوفر لهم فرصة مناسبة للاستقلال بسكن منفصل.

إن سطوة الأب في العائلة المندائية، اليوم على أفراد أسرته أقل بالتأكيد مما سبق، إلا أن علاقات الأبناء بالآباء ما تزال تتسم بالاحترام الشديد والتعامل وفق سلوكيات فيها حفظ لأدوار كل فرد من الأفراد في العائلة، مع هامشٍ للحرية ازداد بالتأكيد بالنسبة للأولاد في اختيار مستقبلهم ودراستهم وعملهم وإلى حد ما شركاء حياتهم.

---

(١) الترميذا يوحنا النشمي، الزواج المندائي بين الشكل والمضمون، مصدر سابق ويلاحظ بالذات الموضوعات التي طرحها الشيخ في مقاله للدراسة مثل الزواج من خارج الديانه وحالات الطلاق وتعدد الزوجات و"البهارة" (العذرية) وزواج الأرملة والمطلقة.

المبحث الثالث

نسق الضبط الاجتماعي

بوسعنا العثور على العشرات من التعريفات التي وضعت لتشرح الضبط الاجتماعي (Social control) ، لأن كل علم تناول المفهوم من زاوية معينة، لكننا نستطيع أن نستخلص من التعاريف العديدة فكرة مجملة عن الضبط الاجتماعي بأنه: (تلك العملية التي يستطيع المجتمع بواسطتها السيطرة على الأفراد وتنظيم سلوكهم بالشكل الذي يؤدي إلى اتساق هذا السلوك مع التوقعات الاجتماعية، كما أنها تعمل على المحافظة على استمرارية الكيان الاجتماعي في الأوضاع الاعتيادية، وتعالج تخلف بعض المؤسسات خلال التطور التدريجي والتغير المفاجئ)[(١)].

عند دراستنا لنسق الضبط الاجتماعي في البناء الاجتماعي لطائفة الصابئة المندائيين، وجدنا إنه يعمل على وجهين محددين ؛ الأول هو ضبط نمط السلوك المتوقع داخل الطائفة وهذا مبني على عدد من وسائل الضبط مثل المعتقدات والطقوس والعادات الاجتماعية وحسابات المكانة الاجتماعية والدور الاجتماعي، أما الوجه الآخر فهو ضبط السلوك المتوقع بين الطائفة ومحيطها الاجتماعي، وهو قائم أيضًا على التقاليد الاجتماعية والعادات بالإضافة إلى القوانين الوضعية. ويمكن أن نميز بين الاثنين في نقطة جوهرية هي تعرض نسق الضبط الاجتماعي الذي يعمل على ضبط علاقة الطائفة مع محيطها إلى تغير اجتماعي واضح، ويتمثل هذا التغير في تحول واضح من وسائل الضبط شبه الرسمية – الداخلية – (المعتقدات، العادات، الضمير، الأعراف. . إلخ) إلى عوامل الضبط الرسمية – الخارجية – مثل (القانون، المحاكم، الشرطة. . إلخ)، بينما في الوجه الأول من نسق الضبط

---

(١) د. خالد الجابري، الضبط الاجتماعي، محاضرات منهجية للمرحلة الثالثة في قسم الاجتماع، بغداد، بدون تاريخ، ص٤.

الاجتماعي الذي يشتغل على ضبط سلوك الأفراد داخل الطائفة نلاحظ استمرار وسائل الضبط غير الرسمية أو الداخلية تعمل حتى الآن، والسبب في ذلك يعود إلى تعامل أبناء الطائفة فيما بينهم بروح العائلة الواحدة وهم يطلقون على طائفتهم (العائلة المندائية)، لذا وفي حالات النزاعات بين أفراد الطائفة نراهم يلجأون إلى الطائفة والاعتماد على العادات والأعراف قبل اللجوء إلى القانون والشرطة والمحاكم في بعض الحالات النادرة، بينما في حالات حدوث مشاكل في تعاملهم مع أفراد من خارج الطائفة نراهم يسعون إلى القانون، وذلك متأت من تراكم الاضطهادات التي تعرضوا لها فهم يلوذون بقوة الدولة لحمايتهم ومنع تعرضهم لاضطهاد جديد.

١ - الجانب السياسي:

في بدايات القرن العشرين، بدأ تحول الطائفة من الانعزال إلى الفعالية والاشتراك في الحياة العامة في العراق. وإن تعامل الدولة العراقية التي تكونت في عشرينات القرن الماضي مع مختلف الطوائف كان تعاملاً يمكن أن يوصف بأنه علماني، في محاولة لإعطاء الأقليات الدينية والعرقية حقوقها في دستور مدني لدولة حديثة. إلا أن طائفة الصابئة المندائيين لم تكن قد بلورت وجودًا مجتمعيًا أو سياسيًا متميزًا، وإنما كانت أقلية دينية تعيش على هامش المجتمع وتهتم بأمورها الدينية، وتعيش في هامش التسامح الممنوح لها من مراكز القوة في المجتمع. ومع التغيرات التي طرأت على أبناء الطائفة نتيجة دخولهم المدارس الحديثة وشيوع الثقافة الحديثة بينهم - وكان ذلك في اوضح صوره في أربعينات وخمسينات وستينات القرن العشرين- انخرط أبناء الطائفة في التيارات الأيديولوجية الموجودة في الساحة العراقية في ذلك الوقت، ولم يكن ذلك ليبلور هوية أو وجودا للطائفة، وإنما كان يمثل حلولاً فردية، ولا يتبين منه ضغط متأت من هوية دينية لأقلية عراقية، وبذلك لم نجد في تلك الفترة إلا مطالبات بسيطة بالاعتراف بأيام أعياد الطائفة كأيام عطل أسوة ببقية الطوائف الدينية في العراق. أما اليوم فإن هوية

الطائفة متبلورة وقائمة على أسس المواطنة، فالمندائيون أدركوا أنهم عراقيون ويجب أن يتمتعوا بنفس الحقوق طالما هم يؤدون نفس الواجبات تجاه مجتمعهم، وقد تجلى ذلك في أوضح صورة بالمطالبة الشجاعة لأبناء الطائفة بوجود من يمثلهم في البرلمان العراقي الجديد الذي تم انتخابه في كانون الثاني ٢٠٠٥م، ورفضهم تغييب المندائيين من المعادلة العراقية، لأنهم عنصر فاعل في المجتمع العراقي. ويتمثل الجانب السياسي من الضبط الاجتماعي كذلك بسلطة الدولة على أفراد المجتمع من خلال أجهزة الدولة، مثل المحاكم والأجهزة الأمنية والسجون. . إلخ، فكل ذلك يحمي الأقليات من الحيف الذي قد يقع عليها من الأغلبية، وهذا جانب يصب في مصلحة الأقليات التي تسعى باستمرار للمطالبة والتمسك به. ولكن في الفترة التي غابت فيها سلطة الدولة – بعد سقوط النظام – رأينا تحرك قيادات الطائفة نحو القوى المجتمعية من أحزاب وحركات ومرجعيات وقيادات دينية في محاولة لدرء الخطر عن أبناء طائفتهم.

٢ – الضوابط الاجتماعية:

إن المنبع الأساس للضوابط الاجتماعية في طائفة الصابئة المندائيين هو المعتقد الديني، وهذا أمر مفروغ منه بالنسبة لأقلية دينية. ويمكننا أن نقرأ في محرمات الديانة المندائية الكثير من الضوابط الاجتماعية ومن هذه المحرمات مثلا: القتل، السرقة، الخداع، الكذب، شهادة الزور، خيانة الأمانة، الزنا (وهو من الكبائر العظمى المؤدية إلى النار في الآخرة والنبذ في الدنيا)، الربا، الإجهاض، الانتحار. . إلخ[١]. ولكل تلك المحرمات جانبها الاجتماعي، ويلعب التحريم الديني دورًا وظيفيًا مهمًا في منعها مجتمعيًا.

---

(١) الشيخ الترميذة علاء النشمي، اسئلة واجوبة عن الديانه المندائية، مقال منشور في موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر، www.mandaeanunion.org، ٢٠٠٥/٣/٧

بالإضافة إلى ذلك فإن وسائل الضبط الاجتماعي في المجتمع العراقي ككل تفرض نفسها على أبناء الطائفة باعتبارهم جزءًا من هذا المجتمع. وإن عوامل الضبط الاجتماعي بنوعيها الرسمية وغير الرسمية تفرض نفسها على المندائيين، ففي بعض الحالات يخضع المندائيون لقوانين وضعية مشتقة من الدين الإسلامي لأن قضاياهم تنظر أمام المحاكم العراقية التي تعتبر الدين الإسلامي دين الدولة الرسمي، وعلى سبيل المثال، ليس هناك تقسيم ديني للميراث في الدين المندائي وبالتالي هم يخضعون للقوانين الوضعية للبلد الذي يعيشون فيه للبت في هذا الموضوع.

إن تحولاً مهمًا حدث في وسائل الضبط الاجتماعي، وقد تمثل ذلك في التحول من أجواء المجتمع المحلي البسيط إلى فضاء مجتمع المدينة الكبيرة، إذ تلائم النوع الأول وسائل الضبط غير الرسمية بينما تلائم وسائل الضبط الرسمية المجتمع الثاني. وقد كانت خطوة إنشاء المحكمة الشرعية المندائية معلما واضحا في هذا المضمار. وكما أشرنا سابقًا فإن هذه المحكمة تنظر في حل الإشكالات الشرعية في نزاعات الأحوال المدنية، وإذا أطلعنا على الفصل السابع من النظام الداخلي المعدل للطائفة، نجد تحديدًا يقترب من إصدار القوانين في مواضيع مثل الخطوبة والزواج والمهر ونفقة الزوجة والتفريق والعدة والحضانة والرضاعة وحق مشاهدة الأطفال وحضانتهم في حالات التفريق والوصية والميراث... إلخ. وفي كل ذلك تتحول الأعراف أو القيم الدينية إلى قوانين وضعية تنظر على أساسها المحكمة في دعاوى الخصومات بين المندائيين.

وعلى العموم، يمكن أن نشير إلى أن الفرد المندائي غير ميال للخصومات وقليل المشاكل، يتغاضى عن الإساءة إليه، ملتزم بالقوانين والأعراف. وتكاد تكون الجريمة في أوطأ معدلاتها في مجتمع الطائفة المندائية، وذلك دليل على قوة التزام الفرد المندائي بالضوابط الاجتماعية.

الفصل السادس

النسق الاقتصادي

المبحث الأول: النشاط الاقتصادي في البيئات التقليدية

المبحث الثاني: المهن في البيئات التقليدية

١ - الصناعات المعدنية

٢ - النجارة

٣ - الصياغة

المبحث الثالث: الواقع الاقتصادي في المدن الكبرى

تتفاعل الأنساق (systems) المكونة للبناء الاجتماعي (Social structure) فيما بينها لتكون الصورة النهائية لذلك البناء. وقد يكون أحد الأنساق أكثر تاثيرًا أو أكثر وضوحًا في التفاعل تبعًا لمجموعة من الظروف، فالنسق الأيكولوجي يكون أكثر تاثيرًا في البيئات قليلة التكنولوجيا، بينما يقل تأثيره كلما تطور المجتمع تكنولوجيًا. والنسق القرابي مهم جدًا في المجتمعات القروية والبدوية. لأن القبيلة أو العشيرة أو البدنة تمثل الوحدة الأساسية التي يعيش الأفراد في كنفها، بينما يقل تأثير النسق القرابي في مجتمعات المدن نظرًا لطبيعة العلاقات الاجتماعية في المدينة، تلك العلاقات المبنية على أساس العلاقات الرسمية.

وفي مجتمعنا قيد البحث (طائفة الصابئة المندائيين)، نستطيع أن نؤشر نسقين أساسيين لعبا دورا جوهريًا في بلورة شكل البناء الاجتماعي لهذا المجتمع، وهذان النسقان هما: النسق الديني لأنه يمثل الأساس في تشكيل مجتمع الأقلية الدينية، ومن ثم النسق الاقتصادي وهو ما سنناقشه في هذا المبحث.

ويشير النسق الاقتصادي في أبسط معانيه إلى توفير السلع المادية اللازمة لإشباع الحاجات البايولوجية والاجتماعية. وهذه أمور عامة تشترك فيها جميع المجتمعات ومن مختلف المستويات الثقافية، كما أن تحقيقها يتطلب توفير درجة معينة من التعاون المنهجي المنظم من أفراد المجتمع لاستغلال موارد الطبيعة، وذلك باستخدام بعض الأساليب والوسائل الفنية والآلات والأدوات التي تكفل تحقيق نتائج اقتصادية معينة بالذات، سواء أكانت هذه النتائج هي جمع الثمار أو صيد الحيوانات أو زراعة الحبوب أو الصناعة اليدوية أو الآلية، ثم يأتي بعد ذلك توزيع السلع المنتجة (١).

---

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعي، الجزء الثاني (الانساق)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر الإسكندرية، ١٩٦٧، ص٩٢.

فكل العمليات الاقتصادية التي تتم داخل نطاق معين تتطلب بالضرورة قيام درجة معينة من التعاون والاعتماد المتبادل بين أفراد ذلك المجتمع، وذلك بحسب نمط معين من الحقوق والالتزامات(١).

وكما أشرنا في مباحث سابقة فإن الصابئة لم يمثلوا مجتمعًا معزولاً خاصًا بهم وإنما كانوا جزءًا من مجتمع كبير يعيشون فيه ويتفاعلون معه، وبالتالي فإن النسق الاقتصادي لبنائهم الاجتماعي قد مثل جزءًا من النسق الاجتماعي لمجتمع قرى ومدن الجنوب في الفترة التقليدية، ثم جزءًا من النسق الاقتصادي في المدن العراقية الكبرى.

(١) dalton, G. Economic Theory and primitive Society, American Anthropologist, LXIII, 1961, P. 6.

المبحث الأول

النشاط الاقتصادي في البيئات التقليدية

لقد كان نمط الحياة في قرى ومدن جنوب العراق في بدايات القرن العشرين أقرب ما يكون إلى البدائية، فالمجتمعات المحلية مجتمعات ذات مستوى تكنولوجي واطئ وذات اقتصادات في أولى خطوات تحولها من اقتصاد الاكتفاء الذاتي إلى اقتصاد السوق المرتبط بالأسواق العالمية بالنسبة للمحاصيل الرئيسية مثل الحبوب والتمور. وإن التحولات الاجتماعية المبنية على أسس اقتصادية لم تكن واضحة المعالم بعد، أذ نرى أن المجتمع يراوح بين قيمه القبلية البدوية التي تمثل جذرًا للقبائل الساكنة في مدن الجنوب، وبين التحول نحو مجتمع حداثي يتعامل وفق منطق السوق.

إن مصدر الحياة الأساسي كان الزراعة التي مرت في هذه الفترة بتحولات خطيرة غيرتها من زراعة قبيلة همها الاكتفاء الذاتي إلى زراعة تمول السوق المحلي والعالمي بمحاصيل استراتيجية مثل الحنطة والشعير والذرة والرز. وقد كان ذلك مصاحبًا لتغير في البناء الاجتماعي والثقافي للسكان القبليين، إذ تغير نمط العلاقة بين الفلاح والأرض من جهة، وبين الفلاح وشيخه القبلي من الجهة الأخرى. فقد كانت الأرض قبل ذلك مشاعًا أو(ديرة) للعشيرة يزرعها أبناؤها للاكتفاء من محاصيلها، ولكن إيجاد نظام التملك العقاري (الطابو) أو الإيجارات طويلة المدى (اللزمة) – الذي احتُكر تقريبًا من قبل شيوخ العشائر– جعل نمط العلاقة بين الشيخ وأفراد عشيرته يتغير إلى نمط اقطاعي فيه جانب كبير من الاستغلال، وتعامل يقترب من القنانة.

أما ما يخص المحاصيل الزراعية التي كانت تنتج في هذه المنطقة، فتتلخص أهمها في ؛ (الحنطة، الشعير، الرز، الذرة، بالإضافة إلى النخيل، وبعض

الخضراوات)، وقد كانت هذه المحاصيل تكفي لسد حاجة السوق المحلي. وبالتأكيد كانت الزراعة تتم بوسائل بدائية في عمليات حرث التربة وتنعيمها وبـذر البـذور وسقيها وحصاد المحصول وتهيئته.

ومن المعروف أن منطقة جنوب العراق ذات الوفرة المائية - حيث مجاري الأنهار ومسطحات الأهوار الدائمية والمؤقتة - تمثل موطنًا شتويًا لهجرات أنـواع عديدة من الطيور بالإضافة إلى الوفرة في الثروة السمكية، مما جعل الصيد موردًا ثانيًا للمعيشة، فالطيور والأسماك تعد مصدرًا أساسيًا لغذاء سكان المنطقة.

كما أن غابات القصب والبردي جعلت سكان المنطقة يعتمدون علـى هـذا النبات في الصناعات البسيطة مثل حياكة الحصر وصناعة بعض الآثـاث البـسيط منه. وقد مثلت هذه الصناعات مصدرًا معيشيًا لا بأس به للسكان، وخصوصًا فـي فترة ما بين الحربين، إذ تصنع الحصر من القصب، وتعد من المنتجات الرئيـسية التي تتم المتاجرة بها مع مدن العراق الرئيسية مثل بغداد والبصرة[1].

وبما أن أصل الكثير من قبائل هذه المنطقة متحدر مـن صـحراء شـمال الجزيرة العربية، فقد مثلت مهنة رعي الإبل مهنة أساسية بالنسبة لهم. بيد أنهم مـا لبثوا أن تخلوا عنها تاقلمًا مع الواقع الأيكولوجي الجديد، أو أنهم استبدلوها برعـي الأغنام والأبقار. أما سكان الأهوار الأصليين (المعدان) فقد كـانوا علـى الـدوام مربين للجاموس، لأن بيئة الأهوار بيئة مثالية لتربية هـذا الحيـوان الـضخم ذو الإنتاج الوفير من الحليب، فغذاؤه من غابات القـصب والبـردي، والميـاه التـي يحتاجها متوفرة جدًا، ورعيه بسيط حتى أن بعض الأطفال يقومون بذلك.

ولم يبقَ في هذا العرض إلا هامش صغير يتمثل في الـصناعات الحرفيـة البسيطة التي تجهز هذا المجتمع بما يحتاج إليه من أدوات للزراعة وآلات للـصيد، بالإضافة إلى وسائل النقل البدائية وبعض كماليات الحيـاة مثـل الآثـاث البـسيط والحلي، وقد شكل هذا الهامش النشاط الرئيسي لطائفة الصابئة المندائيين، الذين لـم

(١) شاكر مصطفى سليم، الجبايش، مصدر سابق، ص٣٤٠.

يكونوا يمتهنون الزراعة أو الرعي، لأسباب سبق الإشارة إليها تتعلق بعدم قـدرتهم على القتال والنزاع، إذ تكون هذه المهن مصحوبة عادة بصراعات قبلية على المياه أو الأرض أو حق الرعي في مراعي معينه، وهم كأقلية صغيرة مسالمة لا تملـك من القوة ما يؤهلها للدخول في النزاعات القبلية.

إن المهن الحرفية التي امتهنها الصابئة وفرت لهم وضعًا لا بأس بـه فـي المجتمع الزراعي الرعوي العشائري. إذ أنهم يقومون بتوفير المستلزمات البسيطة لهذا المجتمع ويدفعون بسخاء من أموالهم للشيوخ ومراكز القوة في هذا المجتمـع، لقاء الحفاظ على أمنهم وعدم الاعتداء عليهم، ناهيك عن ترك هامش بسيط للحرية لهم لأداء طقوسهم الدينية. لكنهم مع ذلك كانوا يعانون من عزل اجتماعي وتعامل بفوقية من قبل الآخرين مبني على أساس كونهم غيـر مـسلمين، وبالتـالي فهـم (أنجاس)، ولا يسمح بمشاركتهم الطعام أو الشراب، أما الزواج فهو شبه مـستحيل بين المندائيين ومجاوريهم، إذ لا يكون إلا في حالات خطف العروس مـن أهليـا (النهيبة).

إن المكانة الاجتماعية في هذه المجتمعات لا تعتمد فقط على مستوى الملكية، بل تدخل فيها الكثير من العوامل مثل الكرم والشجاعة والنـسب القبلـي الـشريف والتمسك بالأعراف العشائرية. لذا فإن المكانة الاجتماعية للصابئة لم تكن لترتفـع مهما تحسنت أحوالهم الاقتصادية لأنهم أولا غير مـسلمين، وثانيًـا لأن أيًـا مـن العوامل التي ذكرناها لا تنطبق عليهم، وهم بدورهم لم يكونوا من الباحثين، بل إننا لا نبالغ إذا وصفناهم بالزهد والتمسك بالتعاليم الدينية التي تحض الإنـسان علـى الاجتهاد والعمل، ولكنها – التعاليم الدينية – دائمة التذكير بأن الحياة علـى الأرض هي جزء بسيط من دورة الحياة، إذ أن النفس محبوسة في جسدها الأرضي الفـاني والحياة الحقيقية الكريمة هي حياة الصادقين الخيرين في عالم الأنوار.

المبحث الثاني
المهن في البيئات التقليدية

لقد امتهن الصابئة المندائيين بعض المهن الحرفية في بيئاتهم التقليدية مثل الحدادة والنجارة والصياغة البسيطة. وقد عكست هذه المهن على بساطتها صفات المندائي التي تتمثل في كونه دؤوبا مجدا محبا للعزلة ومتطلعا دائما إلى التميز، وذلك كتعبير عن خصوصيته في انتمائه لطائفته الدينية.

ويمكننا أن نحدد أهم المهن التي امتهنها – وأجادها وتميز فيها – الصابئة فيما يلي:

١ – الصناعات المعدنية:

تمثل الصناعات المعدنية حرفة أساسية امتهنها الصابئة المندائيين، وفي بعض الأماكن كانت تكاد أن تكون حكرًا عليهم.

فكانت حرفة الحدادة تجهز المجتمع الزراعي البسيط بما يحتاجه إليه من عُدد، وكان الحداد الصابئي يصنع رماح الصيد (الفالة) ويصنع أدوات الزراعة مثل (المسحاة والمنجل وسكينة تفشيق القصب "المشك" التي يفلق بها حائك الحصر القصب في عملية تهيئته للحياكة). كما يقوم الحدادون بصناعة منتجات وسيطة لحرف أخرى مثل صناعة المسامير المستخدمة في صناعة وإصلاح الزوارق.

كما ويقوم بعض الحرفيين المهرة من الصابئة بإصلاح الأسلحة النارية من البنادق والمسدسات المستعملة كأسلحة شخصية في النزاعات التي تنشب بين القبائل، وكذلك في قتل الحيوانات التي تهاجم مزارع الفلاحين مثل الخنازير البرية، وقد كانت هذه الأسلحة على الأغلب من الأنواع القديمة كثيرة العطلات.

إن امتهان هذه الحرفة كان يتيح لممتهنها الاتصال بالمدن الكبيرة القريبة وخصوصًا البصرة، إذ يجلب الحديد المستعمل من هناك[1]. وهذا يعني رحلات منتظمة إلى هذه المدن وتعامل مع تجارها مما يولد بذرة حراك اجتماعي كان له إن يصبح أحد الأسباب المهمة في الهجرة التي حدثت بعد ذلك بحثًا عن رزق أوفر ومجتمعٍ أكثر انفتاحًا، وهذا ما تمثله المدن الكبيرة.

وقد كانت أعمال الحدادة شاقة ومرهقة لأنها بدائية ويدوية وذات عُدد بسيطة جدًا، فالوقود المستخدم في عمليات تسخين المعادن وتشكيلها هو عبارة عن قطع من القصب يشتريها الحداد ويحولها إلى فحم في (كورة) بدائية يقوم هو بعملها، إذ أن توفر الوقود النفطي كان نادرًا ومكلفًا. ومع ذلك فقد كانت تلك الأعمال البدائية توفر دخلاً معقولاً لممارسيها، إذ قُدّر دخل الحداد في منتصف القرن العشرين (٧) دنانير شهريًا[2]، وهو دخل جيد يعادل ضعف دخل الفلاح من أعمال الزراعة مثلا، كما أن هذا الدخل يكاد يكون منتظما ومستمرا وغير متذبذب مع مواسم الزراعة ومشاكلها من فيضانات وآفات زراعية قد تؤدي في كثير من الأحيان إلى خسارة الفلاح.

وبالرغم من أن نمط العمل الحرفي قائم على أسس أولية بسيطة في تقسيم العمل الاجتماعي في المجتمع، إلا أن هذا النمط يمثل عادة حرفة ذكور العائلة أجمعهم. فيكون المعلم أو (الأسطة) هو رأس العائلة ممثلا بالأب أو الأخ الكبير، يساعده في عمله أولاده الذكور وأخوته وأبناء أخوته. وتكون هذه الحرف حكرًا على الرجال لأسباب بايولوجية واجتماعية، فمهنة الحدادة تحتاج إلى قوة عضلية كبيرة، كما أن من المعيب اجتماعيًا أن تختلط نساء الصابئة مع الأغراب في التعاملات التجارية في السوق، ولا يقوم بذلك إلا نساء المعدان، وهذا ما يولد نظرة احتقار من قبل سكان مدن وقصبات الجنوب للمعدان الذين يسمحون لنسائهم بالقيام ببيع المنتجات في الأسواق مثل الحليب ومشتقاته والطيور والأسماك وغيرها.

---

(١) شاكر مصطفى سليم، الجبايش، مصدر سابق، ص٤١٨.

(٢) شاكر مصطفى سليم، الجبايش، مصدر سابق، ص٤١٩.

وقد أشرنا إلى أن التعامل مع الصابئة كان يتم على أساس مكانتهم الاجتماعية الواطئة بسبب الاختلاف الديني، إلا أن مهنهم لم تكن من المهن المحتقرة في ذلك المجتمع، فلم يمارسوا حياكة الأقمشة أو زراعة الخضراوات (الحساوية)، أو مهن المعدان مثل صيد السمك بالشباك أو الجاروف (البربرة)، ولم يشتغلوا في بيع الأسماك أو الطيور أو الحليب ومشتقاته، وكل تلك الأعمال محتقرة اجتماعيًا، وذات مكانة واطئة ولا يمكن التزاوج مع من يقوم بها مثلاً، بينما نرى أن أعمال الصابئة هي حرفية بحتة يحتاجها المجتمع الذي يعيشون فيه، بل وقد منحتهم شيئا من الأهمية في بعض الأحيان.

٢ - أعمال النجارة:

أما النوع الثاني من المهن الحرفية التي مارسها الصابئة فهي أعمال النجارة. ويمكن أن تنقسم هذه الأعمال إلى قسمين رئيسيين ؛ يتمثل الأول في صناعة وإصلاح الزوارق بأنواعها المختلفة، أما الثاني فإنه يتمثل في صناعة الآثاث المنزلي البسيط الذي يحتاج إليه البيت في مدن وقصبات الجنوب. أن المندائيين أبناء بيئة الأهوار منذ مئات السنين، لذلك فإننا نجد للزوارق وجودا مهما في موروثهم الديني والثقافي. وهذا ما نراه جليا في الرسوم التي تزين المخطوطات الدينية مثل "ديوان اباثر"، إذ يحتوي هذا الكتاب على رسوم لسفن تمثل نوعًا من السفن الفضائية، مهمتها نقل الأرواح بين العالم الأرضي وعوالم "مشوني كشطة" (أرض العهد) و"المة آد نهورا" (عالم النور أو الفردوس المندائي). وإذا أمعنا النظر في هذه التخطيطات نجد أنها رسمت على شكل مقطع عرضي في السفينة أو الزورق، وأن الشخصيات الموجودة في السفن رسمت بطريقة تكعيبية بدائية، وأن مواصفات الزورق المصنوع في جنوب العراق موجودة فيها من حيث استعمال المجاذيف والمردي (قصبة طويلة يتم بها دفع الزورق في المياه قليلة العمق)، وكذلك نلاحظ وجود الصوراي وقد ثبتت عليها أشرعة، وهذه الطريقة موجودة في الزوارق الكبيرة التي تنقل البضائع والحمولات باتجاه الشمال إذ كانت تسيّر بالأشرعة قبل أن يتم التحول إلى استعمال مكائن الدفع (الماطورات).

إن كتاب "دراشة اد يهيا" (مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا (ع))، وهو الكتاب الثاني من حيث الأهمية الدينية لدى الطائفة بعد الكتاب المقدس "كنزاربا"، يحتوي على الكثير من أجواء جنوب العراق المليئة بالزوارق وشباك صيادي الأسماك والصيد بالسم (الزهر) والصيد بالفالة والقصب والبردي وطلاء الزوارق بالقير. ففي النصوص: { النص (٣٣) الصياد، والنص(٣٤) الصياد الملاك، والنص (٣٥) صياد برداء النور، والنص (٣٦) الصياد الطاهر} نقرأ بوضوح أجواء أهوار جنوب العراق. وفي مطلع النص (٣٣) من كتاب تعاليم يحيى بن زكريا (ع) الذي يحمل عنوان الصياد، نقرأ:

أنا أمهر الصيادين وأفضلهم. . رئيس الموانئ أنا... أعرف الأهوار حتى تلك الصغيرة منها والكائنة في الأعماق الداخلية، كما أعرف التلال وأكتشف المصائد والكمائن... أطوف حول الأهوار وأصل إليها وأدخلها. . أعبر المستنقعات بالعبّارات والزوراق وسفينتي لا يعوقها عائق. . أرى السمك في الليالي تحت سطح المياه الطينية وأنا أجتاز طريقي بعبارة ليست من حديد العوائق، أبعدت النباتات التي تسد طريق المياه. . السمك يعاني بين السيقان، الحربة التي بيدي مركنة مختارة. . إنها عطاء الماء الطاهر. . يلمحها الصيادون، فيعتريهم الفزع[1].

إن الصابئة المندائيين أبناء بيئة جنوب العراق هم صناع زوارق منذ القدم، وظلوا يمارسون هذه المهنة حتى وقت قريب، ويشهد لهم بأن الزوارق التي يصنعوها ممتازة ومتينة، فألواح الأخشاب تجلب من البصرة التي تصلها الأخشاب من طرق التجارة مع الشرق الأقصى عبر الخليج العربي، أو يتم الحصول على الأخشاب الجيدة من شمال العراق حيث الغابات الكثيفة التي يتم الاستفادة من أشجارها لهذا الغرض.

---

(١) "دراشة اد يهيا" مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا (ع)، ترجمه عن المندائية أمين فحيل حطاب، الطبعة الأولى، بغداد ٢٠٠١، ص١٠٧ إلى ص١٢٠.

ومن أنواع الزوارق التي تمثل واسطة النقل الرئيسية في بيئة الأهوار والتي يصنعها النجارون المندائيون ما يلي:

١. **الطرادة:** ويبلغ طولها حوالي (٦) أمتار وعرضها متر ونصف، وتكون عادةً عريضة في الوسط وتضيق بالتدريج كلما انتقلنا إلى الجانبين، وتحمل حوالي (٨) أشخاص، وتكون سريعة السير عند الدفع بالمجاذيف أو المردي

٢. **البركش:** ويشبه الطرادة من حيث الطول، إلا إنه أكثر عمقًا وعرضًا ويسير بواسطة المجاذيف والمردي والشراع أو الجر بالحبال في المناطق ذات العمق القليل.

٣. **المشحوف:** وهو زورق رشيق مسلوب الشكل، يبلغ طوله حوالي (٧) أمتار، وعرضه في وسطه متر واحد وهو ذو مقدمة مرتفعة ومؤخرة مرتفعة، يساعد شكله المسلوب في المرور في مضائق الأهوار المليئة بالقصب الكثيف، ويدفع بالمردي أو بالمجاذيف.

٤. **المخيط:** وهو زورق صغير يبلغ طوله حوالي مترين وعرضه متر واحد وارتفاعه ثلاثون سنتمترًا، يصنع من الخشب المنشور والمسامير ويزفت بالقير من الخارج، يحمل شخصًا واحدًا ويستعمل للصيد.

وتطلى كل هذه الأنواع من الخارج بالقار الذي يجلب من هيت أو من القيارة في الموصل، إذ يصهر في أفران تصنع محليًا وتعمل بالفحم المحلي أو بالنفط الأسود.

أما نجارة الآثاث، فقد اشتغل بها الصابئة أيضًا وكانت أهم منتجاتهم فيها هي صناديق حفظ الملابس والأشياء الثمينة. ويكاد لا يخلو بيت في مدن الأهوار من هذه الصناديق، إذ يعتبر القطعة الأساسية من الآثاث، أما الأسرة أو الكراسي أو الطاولات فتعتبر من الكماليات التي لا توجد إلا في بعض بيوت أثرياء المدن في مراكز الأقضية والنواحي.

وتبرز مهارة النجار المندائي في هذه المصنوعات أيضًا، خصوصا في أعمال الحفر اليدوي للنقوش الهندسية والنباتية وتزيين الصناديق بالمسامير النحاسية ذات الشكل المهيب.

٣ - الصياغة:

لقد مثلت المصوغات جزءًا مهمًا من اللقى الأثرية في العراق وذلك يدل على قدم فن الصياغة في حضارة وادي الرافدين من العصر السومري مرورا بالعصر البابلي والكلداني، وحتى الفترة الإسلامية والفترة العثمانية المتأخرة وصولاً إلى التاريخ الحديث.

وقد كان فن الصياغة على مر العهود يحتوي على مضامين دينية وأسطورية، فمثلاً كان الصاغة البابليون والآشوريون يقومون بتزيين تماثيل الآلهة في المعابد والمقابر الملكية، وما آثار المقبرة الملكية في أور إلا نموذج حي لما وصل إليه فن الصياغة من شأن في الإبداع الفني.

وقد ارتبطت مهنة الصياغة في العراق الحديث بأبناء طائفة الصابئة المندائيين، فكان أحد الأسماء التي أطلقت على الطائفة هو (صاغة الفضة العماريين) في عشرينات القرن المنصرم.

ويرجع تاريخ مهنة الصياغة لدى طائفة الصابئة المندائيين في العراق إلى بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، ومن الصاغة الرواد خضر بن بدران بن قاجار آل زهرون(١) الذي تعلم مبادئ الصنعة من عائلته، إلا أنه قام بتطويرها. وبعد وباء الطاعون الذي اجتاح العراق عام ١٨٣١م وحصد أرواح الكثير من العراقيين، منهم نسبة كبيرة من أبناء الطائفة المندائية، انتقل خضر آل زهرون من مدينة البصرة التي كان يقيم فيها إلى مدينة العمارة، وبدأ بتعليم ابن عم له اسمه عوض آل زهرون. وكان الرجلان تقيين ملتزمين دينيًا حتى أطلق عليهما الناس

---

(١) فؤاد ناجي ال زهرون، تاريخ الصياغة عند الصابئة المندائيين، مجلة آفاق مندائية شباط ٢٠٠٣م، العدد (٢٤).

لقب (ملا خضر) و(ملا عوض)، وعند الاستقرار في مدينة العمارة ونتيجة لإتقانهما الصياغة، فتحا أول محل لصائغ صابئي، ثم قاما بتعليم أولاد عائلتهما مثل هرمز آل زهرون وأولاده زهرون ورشيد هذه المهنة. ومن خلال الاحتكاك ببعض الصاغة الآرمن الذين كانوا (أسطوات) في هذه الصنعة، استطاعوا التعرف على كيفية عمل (المينا السوداء) التي تسمى عند عموم الصاغة في العراق بـ (المحرق). وقد سافر الملا خضر في أواسط القرن التاسع عشر إلى مدينة (وان) في أرمينيا لتعلم هذا الفن، وهذه المدينة ماتزال إلى اليوم مدينة الأعمال الفنية المرموقة، وخاصة في فن الصياغة والحفر. أما المينا الملونة فقد أدخلها الصائغ هرمز بن ملا خضر بعد أن جلب له صديقه الأب انستاس ماري الكرملي فرن حراري من فرنسا في عشرينات القرن العشرين(١).

بعد ذلك بدأ عدد الصاغة المندائيين يزداد في بغداد، إذ شهد سوق منتجات الصياغة اقبالاً واضحًا مما إدى إلى هجرة عدد كبير من العمارة والناصرية وسوق الشيوخ إلى بغداد. وقد سألت أكثر من صائغ صابئي عن سبب اشتغال أبناء الطائفة في هذه المهنة، فكانت الإجابات متقاربة إذ قالوا: إن الصاغة الذين كانوا يعملون في بغداد على الأغلب كانوا من اليهود، وإن السوق الرئيسي لهذه المهنة في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كان (خان الذهب) (الذي يقع خلف المتحف البغدادي الحالي في بغداد قرب شارع المتنبي، وما زالت ملكية بنايات هذا السوق إلى الوقت الحالي تعود إلى عوائل يهودية بغدادية). ولم يكن الصاغة اليهود ليسمحوا بدخول المسلمين أو المسيحيين إلى هذه المهنة لعدة أسباب لا مجال لذكرها هنا، وعندما جاء أوائل المهاجرين الصابئة الحرفيين المهرة، تلّمس فيهم الصاغة اليهود روح المثابرة والأمانة والابتعاد عن المشاكل والتصرف بحنكة حسب سلوك الأقليات، وقد جمع هذا السلوك ما بين الإثنين. وعندما حدثت الهجرة

---

(١) موسى الخميسي، تحية إلى الفنان أسمر زهرون في ذكرى وفاته الخامسة، مقال منشور على موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر، ٢٠٠٥/٣/٧ في حقل مبدعون مندائيون (www.mandaeanunion.org).

الواسعة ليهود العراق بعد إنشاء دولة (إسرائيل) في منتصف القرن، حل الكثير من الصاغة المندائيين محل الصاغة اليهود، وقد شكلوا في هذه الفترة أغلبية واضحة في أسواق الصاغة مثل (خان الذهب) وشارع النهر. فقد نشط أبناء الطائفة في تطوير هذه المهنة، والبحث عن كل ما هو جديد في العالم لإدخاله إلى مهنتهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر، قام الصائغ ناجي آل زهرون – وهو أحد أحفاد ملا خضر آل زهرون – بتصميم مكبس يعمل بالرجل لطبع القطع الذهبية والفضية على القوالب الحديدية المنحوتة.

وقد لاقت أعمال الصياغة المندائية شهرة واسعة ليس في العراق وحسب، وإنما في دول المنطقة والعالم. فقد حاز أكثر من صائغ على جوائز عالمية من خلال المشاركات في المعارض العالمية في إيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة وغيرها من الدول. ومثال ذلك الصائغ (عباس عمارة) الذي حصل على جائزة في مشاركته عام (١٩٣٦) في معرض أقيم بـ (ديترويت) في الولايات المتحدة، وكذلك الصائغ والفنان الشهير أسمر زهرون الذي درس فن النحت والحفر والصياغة في روما، وعاد إلى بلده ليطور هذا الفن وكانت له جهوده المتميزة في ذلك.

وحري بنا أن نذكر أخيرا، أنه عندما ابتدأ الصاغة أعمالهم في قرى ومدن الجنوب في القرن التاسع عشر، كانت مصوغاتهم تتسم بالبساطة وعدم الدقة والبدائية، لكنهم كانوا دائمي البحث والمثابرة لتطوير هذه المهنة الفنية، وعلى الرغم من عُددهم البدائية البسيطة في بدايات القرن العشرين، إلا أنهم أخرجوا إلى العالم تحفًا حقيقية برزت فيها الرموز العرّاقية بجلاء ؛ مثل المسكوكات التي تحمل صور طاق كسرى وقباب الجوامع الشهيرة والنخيل والسفن الشراعية والآيات والنقوش الإسلامية الهندسية، كل ذلك جعل مهنة الصياغة تتوطد لدى أبناء الطائفة، لتصبح صفة تاريخية تلتصق بهم على مر السنين.

المبحث الثالث

الواقع الاقتصادي في المدن

إن الواقع الاقتصادي لأبناء طائفة الصابئة المندائيين في مدن العراق الكبرى مثل بغداد والبصرة يمثل بشكل دقيق واقع المهاجرين، فمنذ سقوط السيطرة العثمانية على العراق ودخول البلد تحت السيطرة الإنجليزية، بدأ حراك اجتماعي دفع بأبناء مدن الجنوب بشكل عام وأبناء الطائفة بشكل خاص إلى المدن الكبرى وما تمثله من وعود بحياة أفضل وعلى الأخص اقتصاديًا.

وكان لهذه الهجرة مقدمات أو عوامل دفعت أبناء الطائفة إلى المدن ؛ وفي مقدمتها دخول أطفال الصابئة إلى المدارس الحديثة سعيًا للحصول على الوظيفة الحكومية التي كانت تمثل مكانة اجتماعية مرموقة. أن عدد المدارس القليل والمحدود في نواحي واقضية مدن العمارة والناصرية دفع الطلبة الصابئة للذهاب إلى مراكز المدن لإكمال الدراسة الثانوية، وقد كان التوجه أو الرغبة الأكثر وضوحًا تتجه نحو مهنة التدريس الابتدائي أو الثانوي. وعندما سألت عن السبب من بعض أبناء الطائفة كانت الإجابة محيرة بالنسبة لي، إذ قالوا أن المعلم أو المدرس يتمتع بالمكانة الاجتماعية أولاً، وثانيا أن إجازة الصيف التي تمتد إلى ثلاثة أشهر تساعده على العودة إلى أهله أو مهنته (الأصلية) مثل الصياغة. وماحيرني في الأمر إنه طالما أصبح الشخص معلما أو مدرسا وذا مكانة اجتماعية مرموقة فما الذي يجعله يصر على الاحتفاظ بمهنته الأصلية ؟!

في فترة مبكرة من عشرينات القرن الماضي تخرج الأستاذ (غضبان رومي) وأصبح معلمًا، وعاد إلى مدينته سوق الشيوخ معلمًا وتربويًا متميزًا. وكذلك الحال بالنسبة للنساء – رغم الفارق بالتأكيد، إذ لم يكن عدد البنات الداخلات إلى التعليم كثيرات – ففي عقد العشرينات تخرجت (باشة عبد الله) كأول مندائية تدخل سلك الوظيفة في حقل التعليم.

لقد كانت المهن الحرفية هي الشائعة بين أبناء الصابئة، وعند انتقالهم إلى بغداد لم يتعبوا كثيرًا في البحث عن عمل، إذ أن الرواد من المهاجرين من أقاربهم كانوا يسعون لترتيب أوضاع الآتين الجدد، وكان الذي يصل منهم يجد أوضاعه مرتبة مسبقًا ولو بشكل أولي.

وعندما وصل المهاجرون إلى بغداد اشتغلوا في حرفهم أو حرف قريبة منها، وادخلوا أولادهم وبناتهم بكثافة في المدارس الحديثة أملاً في حصولهم على وظيفة حكومية، مما ولد جيلاً من أبناء الصابئة العاملين في قطاعات الدولة المختلفة في عقدي الستينات والسبعينات من القرن العشرين .

إن هذا التوجه نحو الدراسة الحديثة والوظيفة أدى بالتدريج إلى انفتاح الطائفة على المجتمع وخروجهم من تقوقعهم في مدن الجنوب. ولكنه في الوقت نفسه أدى إلى ابتعاد الشباب من أبناء الطائفة عن الالتزام الديني، إذ حلقوا شعورهم ولحاهم ولبسوا الملابس الغربية، ولم يعودوا يأبهون بالمتطلبات التي يفرضها الدين عليهم، وقد كانوا في سلوكهم هذا جزءا من المجتمع العراقي الذي كان يشهد فورة عارمة من الحركات السياسية والاجتماعية ذات الطابع العلماني على الأغلب والتي أدت إلى انحسار التأثيرات الدينية بشكل عام، بل وفي النظر من خلال منظار هذه الحركات السياسية إلى الدين – بشكل عام – باعتباره فلكلورًا متخلفًا أو بدائيًا. وكان قلق الهيئة الكهنوتية المندائية في هذه المرحلة كبيرًا على الدين الذي شهد تناقصًا حادًا في عدد الشيوخ، بالإضافة إلى عدم رغبة الشباب في الدخول إلى المؤسسة الكهنوتية.

وكان عقد الثمانينات من القرن العشرين منقطعًا عن مسار الزمن التاريخي بالنسبة للعراقيين الغارقين في هموم حرب ضروس تطحن كل تفاصيل أيامهم، إذ شلت الحرب الدائرة بين العراق وإيران كل تفاصيل الحياة وأصبح شعار (كل شئ من أجل المعركة) لافته معلقة على عقد من عمر العراقيين عمومًا، والمندائيين خصوصًا، فبالإضافة إلى تجنيد شباب الطائفة في الجيش المتمترس على الحدود للقتال، تعرضت مدن الطائفة الأصلية في جنوب العراق إلى دمار الحرب لأنها

مثلت الساحات الخلفية لخطوط القتال، مما دفع بوجبة مهاجرين كبيرة نحو بغداد من هذه المدن – العمارة والناصرية والبصرة – لتصبح بغداد في هذا العقد وبعده مركز الثقل السكاني للطائفة في العراق، مع وجود أعداد قليلة من المندائيين في المدن الأخرى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عقد السبعينات من القرن العشرين شهد ارتفاعًا واضحًا في مستوى دخل الفرد العراقي، وعلى الأخص بعد تأميم شركات النفط العالمية العاملة في العراق. وقد انعكس ذلك الارتفاع على قدرة الفرد العراقي على شراء الكماليات، مما أدى إلى ازدهار الأسواق التجارية ومنها مهنة الصياغة، وقد أنتج ذلك حالة من تمسك أبناء الطائفة بمهنة آبائهم وأجدادهم، إذ أصبح بالإمكان ملاحظة الفرد المندائي موظفًا أو طالبًا ولكنه يمتلك الخبرة والمعرفة في مهنة الصياغة التي مثلت خطوط انسحاب آمنة يلجأ إليها المندائي في حالات تعرضه لأزمات حياتية اقتصادية. وهذا ما حصل في عقد التسعينات الذي طُبِع بطابع الأزمة الاقتصادية الخانقة نتيجة العقوبات التي فرضت على العراق، ففي هذه الفترة شهد البلد أقصى حالات التضخم المالي وانهيار العملة، صاحبه تدني دخل الموظف الحكومي إلى أوطأ المستويات.

وفي هذه المرحلة يمكننا أن نلاحظ عند الدخول إلى أي محل من محلات الصاغة الصابئيين، أن الصائغ لم يعد ذلك الحرفي الأمي الذي تعلم المهنة عن والده، بل نجده – الصائغ – وقد أكمل دراسته الجامعية في مختلف الاختصاصات مثل التربية أو الهندسة أو الآداب أو المعاهد الفنية، ثم ترك الوظيفة الحكومية ورجع إلى مهنة الصياغة – التي كما أشرنا – مثلت ملجأ آمنًا ينسحب لها المندائي في الأزمات.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل أثر ذلك على إقبال المندائيين على الدراسة في المدارس الحديثة بحيث لم يعودوا يرسلوا أولادهم إلى المدارس ؟ ويأتينا الجواب: كلا، لأن الدراسة بقيت تتمتع بمكانتها الاجتماعية المتميزة، ونستطيع أن نأخذ مؤشرا على ذلك عدد الرسائل وأطاريح الدراسات العليا التي قام

بها طلبة مندائيون في مختلف الاختصاصات، وهي بالعشرات، وهذا دليل على بقاء الاهتمام الكبير بالدراسة لدى أبناء الطائفة.

كما وارتبط بالوضع الاقتصادي لأبناء الطائفة موضوع آخر يتمثل في تعرض الصاغة الصابئة (في المرحلة التي أعقبت سقوط النظام التي اتسمت بفقدان الأمن) إلى الكثير من عمليات الابتزاز والخطف والسرقة المسلحة، مما دفع بالكثيرين منهم إلى الهجرة إلى المهاجر، فمن المعروف أن (رأس المال جبان) وصاحب مهنة مثل الصياغة لا يستطيع العمل إلا في أجواء آمنة يستطيع معها أن يعرض بضاعته في معرض المحل وهو مطمئن. والصابئة المندائيون بما هو معروف عنهم من مسالمة، وبعددهم القليل كانوا عرضه لكل هذه التهديدات. إذ لجأ الآخرون إلى البنى الاجتماعية التقليدية – مثل العشائر – لحمايتهم من أخطار تهديدات فقدان الأمن، وهذا ما لم يستطع المندائيون القيام به، إذ كما عرفنا في مباحث سابقة إنهم كانوا يلجأون إلى طلب الحماية من العشائر القوية التي يعيشون بالقرب منها، ولكنهم ومع التغيرات التي حصلت في المجتمع اعتمدوا على سطوة القانون وهيبة الدولة، فلما فقدت هذه العوامل بعد سقوط النظام لاحظنا لجوء قيادات الطائفة إلى من تستطيع أن تفتح حوارًا معهم من مراكز قوة جديدة في المجتمع مثل الأحزاب والحركات السياسية والمرجعيات الدينية والقيادات العشائرية[1] ، في محاولة منها لشرح أوضاع أبناء الطائفة وما يتعرضون له من اعتداءات ومظالم، تنسب في كثير من الأحيان إلى نفر ضال من أبناء المجتمع.

عندما ندرس النسق الاقتصادي للطائفة نلاحظ أن هناك تراتبًا اجتماعيًا (Social Stratification)، فالملكية تمثل أحد المعايير المهمة في تحديد المكانة الاجتماعية (Social Status)، ولكنها بالتأكيد ليست المعيار الوحيد.

إن المكانة الاقتصادية المرتفعة، وبالتالي المكانة الاجتماعية المهمة، تمنح الفرد فرصة أكبر في العمل المجتمعي في مجالس الطائفة وخصوصًا مجلس عموم

(١) عند الاطلاع على أعداد مجلة آفاق مندائية (الدورية المركزية للطائفة) التي صدرت بعد سقوط النظام، نقرأ نشاطات مجالس الطائفة وهي تشير بوضوح إلى ما أشرنا إليه.

الطائفة ومجلس الشؤون العام. فرؤساء العوائل المندائية التـي تُمثـل فـي هـذه المجالس تخضع بالتأكيد لحسابات المكانة الاجتماعية والوجاهـة (Prestige)، وقـد أشـرنا سـابقًا إلى أن هذه المجالس لا تمنح أعضاءها أرباحًا مادية وإنما تمنحهم أو تزيد من مكانتهم الاجتماعية، وبالتالي فإن هناك علاقة تفاعلية دائرية. فالمكانـة الاجتماعية تسهل الدخول لهذه المجالس، والمجالس تزيد من المكانـة الاجتماعيـة وهكذا.

إن أغلب أعمال مجالس الطائفة تعتمد بشكل أساسي على الأعمال التطوعية وعلى التبرعات، مما يزيد من فعالية ذوي المكانة الاقتصادية المرتفعة فيها. وكذلك يجب التأكيد على أهمية المشاريع التكافلية بـين المـستويات المختلفـة للتراتـب الاقتصادي والاجتماعي في الطائفة. وأوضح مثال على ذلـك إنـشاء (الجمعيـة المندائية الخيرية)، ومقرها في معبد الطائفة المركزي في بغداد، إذ يعتبر من أهـم نشاطاتها دعم العوائل المتعففة من أبناء الطائفة بطريقة مؤسساتية ومنهجيـة، ولا تؤدي إلى المساس بكرامة المستفيد من مساعدات هذه الجمعيـة، وتبتعـد خطـط عملها عن الاستعراضية والعشوائية التي قد تحدث في حالات النشاط الفردي.

إن عمل أبناء الطائفة الدؤوب ومثابرتهم، بالإضافة إلـى تكـوينهم الـديني والثقافي والاجتماعي الذي يحث على العمل ويمجـد النـشاط ويـرفض الكـسل والاتكال، كل ذلك جعل أبناء الطائفة يرتبون حياتهم في أحلك الظروف التي مـروا ويمرون بها بطريقة إنسانية لائقة.

الفصل السابع

التغير الاجتماعي

المبحث الأول: البيئات الجديدة والتأقلم

المبحث الثاني: الواقع الجديد لبناء القوة والقيادة الاجتماعية والروحية

١ - الشيخ الجديد

٢ - التغير في المعبد

٣ - تأثير التعليم والثقافة على التغير الاجتماعي

المبحث الثالث: تغير موقع المرأة

المبحث الرابع: تغير موقف الطائفة في الانفتاح على المجتمع

إن أية حالة من التغير الاجتماعي لابد وأن تكون نتاج اقتران خاص وربما فريد لظروف كثيرة متنوعة. ومن ذلك فإن تفسير التغير الاجتماعي عمل تحف به صعوبات كبيرة لأن العوامل المتفاعلة مع بعضها تنتمي لأنساق مختلفة تشكل بدورها البناء الاجتماعي.

وقد عولجت هذه المشكلة الأساسية والواضحة بطريقتين، ولكن كان هناك بعض المآخذ عليها. فقد بسّط بعض الباحثين المسألة بافتراض أن كل العوامل المتفاعلة في موقف ما يمكن معالجتها على أنها قوى يمكن قياسها كميًا، ومن ثم ردها إلى صور قابلة للمعالجة الإحصائية أو الرياضية. وقد كان هذا الرأي متأثرًا بالمغالاة العلمية التي تدفع بالعلوم الاجتماعية نحو العلوم الصرفة. أما الطريقة الثانية فقد بسطت المشكلة باعتبار أن أحد العوامل هو المحدد الأساسي أو (المتغير الأساسي)، بينما تبوب العوامل الآخرى ضمن ما أطلق عليه (المتغير التابع). وهذه الطريقة أيضًا عانت من الكثير من الصعوبات بسبب المقاربة التجريبية التي أنتجتها العلوم المختبرية في العلوم الاجتماعية[١].

إن خطر افتراض إمكانية استخدام طرق العلوم الصرفة ينشأ من حقيقة أن المشكلة في حد ذاتها تختلف من ناحية مهمة عن المشكلات التي تتناولها العلوم الصرفة، فنحن لا نستطيع إجراء تجربة على الحالات الاجتماعية مثلما يقوم باحث البايولوجيا بتجاربه على الفئران أو ذباب الفاكهة !

وكذلك فإننا كأنثربولوجيين لا نقتنع بجمع بسيط لتاثير العوامل الداخلة في التفاعل وبأي حسابات لمعاملات الارتباط، إذ أن الطرق الكمية لا تعطي سوى نتائج كمية، فنحن هنا لا نتعامل مع وحدات متشابهة لقوى متجانسة تتحد معًا لتنتج كلاً، والخدمة التي تؤديها الطرق الإحصائية في دراسة السببية الاجتماعية هي أنها تمهد الطريق وتكشف بدقة أكثر طبيعة العوامل الداخلة في التفاعل، بالإضافة إلى

---

(١) ر. م. ماكيفر &شارلز بيدج، المجتمع، ترجمة د. سمير نعيم احمد، الجزء الثالث مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة - نيويورك، ١٩٧١، ص١٠٨٩ وما بعدها.

أنها تعزل رموزًا كمية لكل جوانب الموقف، وتبين درجة ارتباطها أو عدم ارتباطها بنتائج التغير. ولكن هذه الرموز الكمية ليست سوى دلائل على تفاعل لا تفسره، فهي ليست العوامل الديناميكية التي نفتش عنها.

إن وراء كل علاقة اجتماعية اتجاهات ومصالح اجتماعية، وهي ليست قوى يمكن الفصل بينها، ولكنها مراحل ديناميكية متداخلة، وحتى ننتقل من العلاقات الاجتماعية ذاتها ونتناول مجرد نتاجها الملموس، فإننا نظل خارج المنطقة التي يمكن فيها تحديد الإسهام الكمي للعوامل المترابطة. فعلى سبيل المثال: أن الأرض والعمل ورأس المال والتنظيم كلها ضرورية لإنتاج المنتج (س) ولكن ما هي نسبة كل من هذه العوامل ؟ إن سؤالاً كهذا لا يبقى غير قابل للإجابة فحسب، ولكنه يظل أيضًا عديم المعنى.

فإذا كان وجود عدد من العوامل معًا ضروريًا لإنتاج نتيجة ما، فلا يمكن إجراء أي تقدير كمي للإسهام النسبي لكل منها[(١)].

وإذا كان ذلك صحيحًا بالنسبة للمنتجات المادية ويمكن إخضاعه بطريقة تقريبية للقياس، فإن الأمر أكبر بالنسبة للتفاعلات الأكثر تعقيدًا، حيث تكون الاستجابات متنوعة للظروف المركبة التي تحدد كل موقف اجتماعي.

---

(١) ر. م. ماكيفر &شارلز بيدج، المجتمع، ترجمة د. سمير نعيم احمد، الجزء الثالث مصدر سابق، ص١٠٩٢.

المبحث الأول

البيئة الجديدة والتأقلم

عاش المندائيون مئات السنين في مدن وقصبات الجنوب على ضفاف الأنهار وحافات الأهوار الواسعة التي تمثل سمة من سمات أراضي دلتا دجلة والفرات. لقد عاشوا في تلك المناطق الوفيرة المياه لما تمثله من أهمية طقوسية للدين المندائي، وهو دين تعميدي يمثل الارتماس في الماء الجاري أحد أهم طقوسه، كما أن البيئة الطبيعية بما تحويه من غابات للقصب والبردي، ومن وفرة غذائية نباتية وحيوانية وفرت ملجًا مثاليًا لطائفة غنوصية تعرضت للاضطهاد من مخالفيها في عدة حقب من تاريخ تواجدها في أرض الرافدين، إذ نرى المندائيين يتوغلون في عمق الأهوار أثر كل مذبحة يتعرضون لها طلبًا للأمان وفرارًا من الاضطهاد، وبقوا على هذه الحال حتى منتصف القرن العشرين تقريبًا.

ومع تأسيس الدولة العراقية الحديثة بعد الحرب العالمية الأولى، انتشر نمط الحياة الغربية ودخل الكثير من مظاهر الحداثة إلى حياة العراقيين، ومنها المدارس الحديثة ووسائط النقل، وتوسعت المدن وصارت هناك حاجة للأيدي العاملة الماهرة في العاصمة، مما شكل حافزًا قويًا للهجرة من الأرياف إلى العاصمة وبعض المدن الكبيرة مثل البصرة، وكان أبناء الصابئة جزءًا من هذه الهجرة لما توفره المدن الكبرى من فرص اقتصادية جيدة، وما تمثله حياة المدن الكبيرة من انفتاح تجاه الأقليات الدينية، إذ أن نمط حياة المدينة أكثر انفتاحًا من المجتمعات التقليدية المغلقة بما تسببه الأخيرة من عزل اجتماعي لطائفة دينية تم التعامل مع أفرادها على أنهم غير طاهرين دينيًا (أنجاس).

لقد كان امتهان أبناء الطائفة للحرف اليدوية مثل الحدادة والنجارة والصياغة عاملاً مهمًا في توفر فرص عمل مناسبة لهم في العاصمة مما جعلهم يفضلون العيش فيها.

ويمكن أن نعتبر التغير في مناطق السكن سببًا ونتيجة في آن واحد، ويعود السبب في ذلك إلى عوامل عدة تفاعلت وأنتجت تغيرات واضحة في البناء الاجتماعي لطائفة الصابئة المندائيين.

إن إقبال أبناء الطائفة على الحياة العصرية من وظائف حكومية، وإدخال أبنائهم إلى المدارس الحديثة والبحث عن فرص عمل أفضل، كانت كلها أسبابًا نتيجتها تغير مناطق السكن، وهذا التغير في مناطق السكن كان سببًا أساسيًا في انفتاح أبناء الطائفة على مجتمع المدينة والسعي الدؤوب لإثبات الذات في المجتمع الجديد.

إن التغير الحاصل في نمط الحياة من حياة ريفية بسيطة ومنغلقة إلى حياة مدينية منفتحة، أنتج تغيرات في بناء القوة ومراكز القيادة في الطائفة. فبينما كان رجال الدين وبعض الوجوه العشائرية يمثلون القيادات التقليدية في مجتمع الريف، نجد ان قيادات علمانية تتبنى مفاهيم أيديولوجية حديثة برزت في المدينة وخاضت صراعات مخفية تارة وظاهرة تارة أخرى ضد مراكز القوة التقليدية، وهو أمر طبيعي وعادة ما يحدث مع عمليات التغير الاجتماعي والثقافي في المجتمعات.

كذلك حدثت تغيرات في بنية العائلة، إذ بدأت بالتحول من نمط العائلة الممتدة الملائم لظروف الحياة والعمل في الريف، إلى نمط العائلة النووية الأكثر ملائمة لحياة المدينة ذات الإيقاع السريع والميل نحو العلاقات الرسمية وانحسار دائرة القربى في علاقات العائلة المباشرة، وهذا أدى إلى تغير مهم في مكانة المرأة في المجتمع المدروس، إذ دخلت المدارس الحديثة والوظائف العامة وأصبحت مشاركة في قرارات العائلة وتحديد مستقبلها نسبيًا.

إن نمط حياة العاصمة بغداد في منتصف القرن العشرين المليء بالحركات الاجتماعية والتيارات السياسية الأيديولوجية، جذب شباب الطائفة وأبعدهم عن التمركز حول بؤرة الهوية الدينية التي كانت ترصفهم في بناء اجتماعي تقليدي أكثر تماسكًا في مناطقهم الأصلية، مما أثار مخاوف الكثيرين من أبناء الطائفة ذوي

التفكير التقليدي من هذا الابتعاد عن الدور الذي يلعبه الدين في حياتهم، وقد وقف في مقدمة من استنكر هذا السلوك رجال الدين.

كذلك نستطيع أن نشير إلى تغير ثقافي حتى في مجال اللغة اليومية المستعملة، فبينما كان الصابئة في مدنهم الأصلية يتكلمون فيما بينهم لهجة آرامية مشتقه من المندائية مع كلمات عربية وفارسية تسمى (الرطنة)، تحول أبناؤهم في المدن إلى التحدث باللهجة العراقية العربية المحكية في بغداد أو البصرة، وقد مثل هذا التغير ابتعادًا عن اللغة المندائية، حتى أنهم لم يعودوا يفهمونها وتحولت إلى لغة الطقوس الدينية التي لا يفقهون منها سوى كلمات محدودة. وقد مثّل ذلك أحد أسباب القطيعة المعرفية والإحساس بالاغتراب لدى المندائي تجاه ثقافته الأصلية، بل وحتى الشعور بالذنب لدى مثقفي الطائفة الذين حاولوا الكتابة في تاريخ الطائفة وتعريف الآخر بماهية الدين المندائي، في محاولة منهم للانفتاح على المجتمع وتقديم معرفة عملية صحيحة خالية من الأكاذيب وسوء الفهم الذي شاع في كتابات الآخرين عن الطائفة دون معرفة حقيقية(١).

ولم يكن التغير في مناطق السكن مجرد انتقالة جغرافية، إذ شهد الصابئة المندائيون في العقود الماضية حراكًا اجتماعيًا ملحوظًا، فلقد إتجه أغلب شبابهم نحو التحصيل العلمي الحديث، واجتذبتهم المهن الحديثة، وانصرفوا عن ممارسة حرفهم البدائية السابقة، ولكنهم – مع هذا – طوروا الصياغة التي احتفظوا بها وجعلوا منها صناعة عصرية. ومع هذا التحول الاجتماعي قل اهتمامهم بممارسة طقوسهم الدينية الخاصة، ولم يعودوا يتقيدون بالكثير من المحرمات الدينية التي نشأوا عليها من قبل، مما أوجد أزمة حقيقية بالنسبة لبقائهم كمجموعة دينية ذات سمات ومعتقدات خاصة. وقد دفع هذا ببعضهم إلى التفكير بتكييف مفاهيمهم وطقوسهم الدينية لتساير الحياة العصرية الراهنة، وهكذا، فإن هذه المجموعة الصغيرة من الناس حاولت تمزيق غلاف العزلة الذي ظلوا قابعين فيها عبر القرون في محاولة للدخول في عصر الحداثة رغم كل ما يكتنفها من تهديدات قد تمس وجودهم كأقلية دينية.

---

(١) عزيز سباهي، أصول الصابئة (المندائيين) ومعتقداتهم الدينية، مصدر سابق، ص١١.

المبحث الثاني

الواقع الجديد لبناء القوة والقيادة الاجتماعية والروحية

إن القيادة الاجتماعية هي توصيف يطلق على من يمتلك القدرة على التحكم في البيئة الاجتماعية والسيطرة على من بها من أشخاص والتأثير على ما يجري فيها من أحداث وما يتخذ بشأنها من قرارات والتغلب على المقاومة إن وجدت. بينما يشير مصطلح (بناء قوة) (power Structure) إلى مجموعة علاقات اجتماعية ثابتة نسبيًا، وأنماط من التفاعل قائمة فيما له علاقة بالقوة، وهذا بالتأكيد مفهوم تجريدي للمصطلح فيه بعض الغموض، لذلك تبنت هذه الدراسة تعريفًا إجرائيًا لذلك المفهوم، إذ نعني به ذلك الشكل الذي يضم أولئك المؤثرين الذين يتولون ضبط البيئة الاجتماعية والسيطرة على ما بها من أشخاص والتأثير على ما يجري بها من أحداث وما يتخذ فيها من قرارات، وكذلك طبيعة العلاقات الاجتماعية وأنماط التفاعل التي تربط بينهم وبين غيرهم من فئات المجتمع الأخرى.

ويوضح التراث النظري المرتبط بموضوع القيادات الاجتماعية وبناء القوة في المجتمع اتفاق الدارسين والمحللين – رغم اختلاف منطلقاتهم الفلسفية – على مبدأ التوزيع غير المتساوي للقوة داخل المجتمع، كما هو الحال بالنسبة لتوزيع الثروة والسلطة في المجتمع. غير أنهم – المحللون – يختلفون في تحديدهم لمصادر هذه القوة والكيان الذي يتخذه توزيعها في المجتمع(١).

فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن أبنية القوة في المجتمع ما هي إلا تعبيرًا عن المكانة الاجتماعية في المجتمع وما يرتبط بها من سلطة وهيبة وقدرة على التاثير أو النفوذ، بينما يرى فريق آخر ضرورة إرجاع مصادر القوة الاجتماعية إلى محدداتها، وذلك لأن المكانة والسلطة والهيبة ما هي إلا مؤشرات لأوضاع

---

(١) محمد الجوهري وعلياء شكري، علم الاجتماع الريفي والحضري، دار المعارف، الطبعة الأولى، القاهرة١٩٨٠، ص١٦٧ وما بعدها.

اجتماعية قائمة في المجتمع، ومن ثم يقتضي الوقوف على المصادر الحقيقية للقـوة في المجتمع من خلال دراسة وتحليل الواقع الاجتماعي القائم ومـا يـسوده مـن أوضاع اقتصادية وظروف اجتماعية تحدد أشكال ممارسة القوة.

كـذلك نجد أن ثمة خلافًا بين الباحثين في تحديد عناصر القوة الاجتماعيـة، إذ نجد بعضهم يربط ممارسة القوة بالفاعلين الأفراد على اعتبار أن لكل منهم قدرًا معينًا من القوة تعبر عن مدى السلطة التي ترتبط بالمكانة التي يشغلها وما يحـاط بها من هيبة ونفوذ أو مدى التأييد والثقة التي تمنحها له الجمـاهير. أمـا الاتجـاه الآخر من الباحثين فإنهم يرون في ذلك اختزالاً للواقع الاجتماعي إلى واقع فردي، ولا يرون أي أهمية في البحث عن قوة الفاعلين كأفراد، وإنما باعتبـارهم ممثلـين لفئات اجتماعية معينة ويعبرون عن مصالح واهتمامات طبقة قائمـة، لـذلك فهـم يربطون ممارسة القوة الاجتماعية بالطبقات أو الفئات الاجتماعية القائمة باعتبارها الوحدات الأساسية في المجتمع(١).

كما أن بعض الدراسات ساوت أو خلطت بين مفهومي القيادة والقوة، إذ نجد بعضها يسعى لتحديد الخصائص العامة للقيادة في المواقف المختلفة.

وعلى الرغم من أن كل قوة تمثل بالضرورة قيادة – سواء بطريقة مباشـرة أو غير مباشرة – إلا أن العكس ليس صحيحًا، وذلك لأن هناك قيادات على الرغم من احتلالها لمواقع السلطة والقدرة على التأثير، إلا أنها في الواقع تخضع لتـأثير وضغوط قوى أخرى تمارس تأثيرها ونفوذها على هذه القيادات، ويجب أن لا نغفل في تحليلنا لتوازن القوى القائم في مجتمع الدراسة البعد البيـاني لـذلك المجتمـع باعتباره وحدة في مجتمع أكبر، يتأثر بما يجري فيه من أحداث وما يتخذ فيه مـن قرارات تؤثر بلا شك على أوضاع ومكانة حائزي القوة على المستوى المحلي.

لذا فإن التغيرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي حدثت فـي المجتمـع العراقي لابد وأن تنعكس على مجتمعات الأقليات ومنها المجتمع قيد الدرس (طائفة

---

(١) محمد الجوهري وعلياء شكري، علم الاجتماع الريفي والحضري، مصدر سابق، ص١٦٩.

الصابئة المندائيين)، وهذا ما أشرنا إليه وما سنفصله في المباحث القادمة التي سندرس فيها ظواهر التغير الاجتماعي.

١ - الشيخ الجديد :

عندما نطّلع على التاريخ الحديث لطائفة الصابئة المندائيين، نلاحظ عدم وجود هرم إكليروسي مؤسساتي، بمعنى عدم وجود مؤسسة دينية ذات تدرج صارم وذات سلطات تمارس من خلال هذا التدرج، وإنما هناك تدرج ديني محكوم بقواعد طقسية صارمة، وأن المحك الرئيسي للتدرج الديني هو الأعلمية الدينية، وكما أشرنا في مبحث سابق (مبحث الهيئة الكهنوتية)، فإن سلك الكهنوت مفتوح أمام أي مندائي تتوفر فيه الشروط الجسدية والوراثية، إلا أن الغالب على هذا الأمر هو انحصار الكهنوت في عوائل الشيوخ، إذ يربى الطفل على الالتزام الديني، فيجري تدريبه في البيت على المناسك والطقوس منذ صغره، حتى إذا ما وصل البلوغ يتم تكريسه كرجل دين مندائي.

ويطلق على رجل الدين المندائي "تاصورائي"، وتعني العارف أو المتبحر في العلم اللدني، لأنها مشتقة من "تاصروثا" التي تعني علوم الحقيقة الكامنة والمعرفة اللامتناهية وكلمات الحق والصدق الأسمى التي جلبت من كنز عوالم النور الأزلية وأعطيت للنفس التي دخلت الجسد الفاني عند إتمام خلقه(١).

وبهذا المعنى يكون الشيخ المندائي أكثر ميلاً إلى حياة الزهد والعبادة، وأن طريقة عيشه محكومة بقوانين صارمة فيما يتعلق بالمأكل والمشرب، فالشيخ ممنوع من تناول أي طعام أو شراب إذا لم يعده بنفسه ويتأكد من طهارته، ومن غير المسموح لرجل الدين تناول المسكرات أو تدخين السكائر، كما أن حياته العائلية محكومة بالكثير من الشروط الدينية التي لها علاقة بالطهارة والنجاسة.

---

(١) رمزية عبد الله فندي، الناصروثا علوم الفلسفة المندائية، مقال منشور على موقع اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٧ www.mndaeanunion.org.

لقد مثل رجال الدين المندائي قيادات اجتماعية لأبناء طائفتهم على مدى مئات السنين، بل ونستطيع أن نستشف أن رجال الدين كانوا في الماضي السحيق يمثلون رجال حكم أو إمارة، لأن رجل الدين يقال له "ملكة بر ملكة" أي الملك ابن الملك، كما تمثل الـ "تاغة" (التاج) رمزًا لتاج النور باعتباره ملكًا على شعب المؤمنين. ولكن في الواقع الحياتي نجد أن العلاقة بين رجل الدين والعامة مختلفة، فالشيخ ذو مكانة اجتماعية وهيبة وله دور قيادي، ولكن هذه القيادة متأتية من الاحترام، أي التزام أفراد الطائفة بها طوعًا، وإن قرارات رجال الدين لا تملك قوة التنفيذ، أي أنهم لا يملكون السلطات التنفيذية التي تدعم قراراتهم، وإنما تأتي قوة قراراتهم من احترامهم ومن هيبتهم ومن مكانتهم الاجتماعية. ففي المرحلة التقليدية من حياة الطائفة قبل الهجرة الكبيرة من المدن الجنوبية إلى العاصمة، كان لرجال الدين سلطات أو قيادة اجتماعية لأبناء طائفتهم أكثر وضوحًا، وقد كان يشاركهم القيادة كمركز قوة في المجتمع القيادات التقليدية من وجوه الطائفة أو مختاري محلات الصابئة في المدن والقصبات الجنوبية، وهذه الشريحة حائزة على المكانة والهيبة لأسباب اقتصادية وعائلية، فهم ذو مكانة اقتصادية مرتفعة، وهم ممثلون أو رؤوس لعوائلهم.

وقد كان الشيخ في تلك المرحلة، ابن بيئته وزمنه، فتعليمه العام كان محدودًا إذ كان الاهتمام منصبًا على التعليم الديني وعلى الأخص الجانب الطقوسي من الدين، فقلما كان يوجد رجل دين متبحر في الفلسفة الدينية، وعند وجود شيخ من هذا النوع فإنه يشكل حالة ملفتة وكاريزما في الطائفة، كما هو حال الشيخ كنزبرة دخيل الشيخ عيدان الذي ترأس الطائفة على مدى أكثر من (٣٠) عامًا في مرحلة الانتقال والتغير الحرجة.

إن علاقة رجل الدين بأبناء طائفته هي علاقة تكافلية، فأغلب رجال الدين سابقًا كانوا يتفرغون لممارسة الطقوس الدينية لأبناء الطائفة، وهذا لا يعني وجوب ذلك على رجل الدين، إذ أن من حقه مزاولة الأعمال، ولكن يجب أن تكون أعمالاً لا تقلل من هيبته ومكانته الاجتماعية. ولما كان رجل الدين في كثير من الأحوال

يعتمد اقتصاديًا على أبناء الطائفة الذين يمنحونه الأجور مقابل إجراء الطقوس، فإن العلاقة التفاعلية بين الشيخ والرجل العامي تكون متعددة الوجوه وذات خصوصية، فالشيخ يمنح العامي كل أجور دينه الطقسية والتبريكية، أي يمنحه (الآخرة)، وبالمقابل يمنح العامي الشيخ ما يعتاش به ماديًا أي يمنحه (الدنيا).

وقد كان هناك ما يسمى (دارة) بيت فلان. حيث يكون الأب رجل دين بدرجة "كنزابرة" وأبناؤه - اثنان أو ثلاثة منهم - شيوخ بدرجة "ترميذه"، وبذلك تكون هذه (الدارة) جاهزة لتنفيذ أي طقس خصوصًا أن مساكنهم كانت مطلة على الأنهار، وبذلك تكون - هذه الدارة - (منظمة) مكتفية ذاتيًا وتستطيع تنفيذ أي إجراء طقسي من تعميد إلى زواج إلى وفاة إلى واجبات طقسية أو ذباحة، وهي في نفس الوقت مؤسسة اقتصادية واحدة مداخليها توزع على العائلة المكونة من الأب والأولاد الشيوخ.

ولكن التغير الكبير الذي حصل نتيجة الهجرة إلى بغداد والبصرة، ودخول أبناء الطائفة في معترك الحياة الحديثة من مدارس ووظائف ووسائط اتصال، كل ذلك أثر على دور ومكانة رجال الدين بل وعددهم. إذ عانت الطائفة في النصف الثاني من القرن العشرين من قلة عدد رجال الدين وابتعاد شباب الطائفة عن الالتزام الديني ودخولهم المعترك السياسي - وعلى الأخص اليساري - بما يرسمه من يوتوبيا لحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية واحترام الأقليات.

ومنذ انتقال الشيخ "كنزابرة" دخيل الشيخ عيدان من الناصرية إلى بغداد في عام ١٩٥٩، بدأت مرحلة جديدة من علاقة رجال الدين بالطائفة، ورغم وجود بعض رجال الدين في بغداد منذ الأربعينيات مثل الشيخ عبد الله الشيخ سام، إلا أن انتقال الشيخ دخيل وهو رئيس الطائفة وبناء معبد "مندي" في منطقة الدورة قرب دار سكنه، اعتبر نقلاً لرئاسة الطائفة إلى بغداد وإيذانًا بعهد جديد أصبحت فيه العاصمة هي مركز التواجد الرئيسي لأبناء الطائفة.

بقي حال الطائفة على ما هو عليه منذ مئات السنين أي بدون مؤسسات أو واجهات مدنية تمثلهم وذلك لزهدهم في هذه المسألة، فكانت تقتصر طلباتهم على

هامش حرية بسيط للحياة وممارسة الطقوس. وقد سمعت من بعض المطلعين من أبناء الطائفة أن الصائغ عنيسي الفياض قد حصل على عضوية البرلمان العراقي في العهد الملكي – وقد كان صائغ العائلة المالكة – وكان يسعى لأن يكون صوت الطائفة في البرلمان، إلا أن الشيخ دخيل الشيخ عيدان منعه من ذلك، ورفض انضمامه للبرلمان لأسباب غير معلنه، أعتقد أن جزءًا منها يعود للتنافس الذي حصل في الفترة الانتقالية بين رجال الدين والعلمانيين على مراكز القوة في الطائفة.

لذا فإن انتقال رئاسة الطائفة إلى بغداد وفتح "مندي" يعد مركزًا رئيسيًا للطائفة فيها في فترة الستينات، أنتج تنافسًا على القيادة الاجتماعية ومراكز القوة في الطائفة. وبعد وفاة جيل الشيوخ الكبار مثل الشيخ دخيل والشيخ عبد الله الشيخ سام، آلت رئاسة الطائفة للشيخ عبد الله الشيخ نجم الذي كان يرعى شؤون الطائفة في محافظة البصرة، هو ووالده الشيخ نجم الشيخ زهرون. وقد كان لهذا الشيخ بعض الآراء التجديدية في الطائفة في محاولة لمواشجة الطقس المندائي الموروث مع متطلبات الحياة العصرية، مما أفرز تطويرًا وتغييرًا طفيفًا على الطقس بحيث لم يمس الجوهر الديني للطقوس، ومثال ذلك السماح باستخدام ماء الإسالة في الوضوء "الرشامة" واستخدام الحوض في التعميد، والسماح بالتعميد الجماعي في مواسم الأعياد... إلخ.

في بداية عقد السبعينات دفع التفكير بأبناء الطائفة إلى تشكيل أول هيئة تمثلهم بشكل رسمي، وكانت قيادتها تضم رجال دين ومدنيين أطلق عليها اسم (هيئة التولية)، وكان مركزها بغداد واستمرت بالعمل تحت رئاسة رئيس الطائفة – الشيخ عبد الله الشيخ سام انذاك – وتولد شعور لدى المدنيين من أبناء الطائفة بأنهم بحاجة إلى مؤسسة اجتماعية تمثلهم وتكون فاعلة أكثر من (هيئة التولية) ذات التوجه الديني، فتم تأسيس نادي اجتماعي للطائفة سنة ١٩٧٣م تحت اسم (نادي التعارف) كانت إدارته ومنهاجه وأمسياته وندواته تدار بشكل كامل من العلمانيين،

وحتى أن توجهاتهم السياسية اليسارية كانت واضحة في نشاطات النادي في عقد السبعينيات.

وحدث تغير أوضح في هيكلية الطائفة وفي دور رجال الدين في بداية عقد الثمانينيات، ففي عام (١٩٨١) تم تأسيس (المجلس الروحاني الأعلى لطائفة الصابئة المندائيين) ليكون مسؤولاً عن إدراة شؤون الطائفة في العراق والعالم ويمثل السلطات الدينية والدنيوية. واللافت أن رئيس المجلس الروحاني هو رئيس الطائفة (الشيخ عبد الله الشيخ نجم) يعاونه (٢٢) عضوًا كلهم تقريبًا من خارج سلك الكهنوت، مما يشير إلى الدور المتنامي للعلمانيين في إدارة الطائفة مع بقاء السلطة العليا لرجال الدين. واستمر الحال حتى النصف الثاني من عقد التسعينات، إذ حدثت أزمة بين رئاسة الطائفة والعلمانيين، مما دفع بـ (الشيخ عبد الله الشيخ نجم) إلى ترك رئاسة الطائفة وترك العراق والهجرة إلى بريطانيا، وقد تم في هذه الفترة السعي لفصل السلطات الدينية عن السلطات الاجتماعية، فتم الاتفاق على كتابة نظامٍ داخلي للطائفة أجيز من قبل وزارة الأوقاف عام ١٩٩٦[1]، وتم على أساسه تشكيل ثلاثة مجالس هي: مجلس العموم وهو بمثابة برلمان للطائفة، ومجلس الشؤون وهو المسؤول عن تسيير شؤون الطائفة، والمجلس الروحاني المسؤول عن الجانب الديني من حياة الطائفة.

أما ما يخص رجل الدين المندائي فقد طرأت تغيرات واضحة عليه ؛ فهو لم يعد ذلك الشيخ محدود التعليم الذي لا يفقه من أمور الحياة إلا الجانب الديني، بل إن معظم رجال الدين المندائيين اليوم أنهوا دراساتهم في المدارس الحديثة، وقسم منهم أتم دراسته الجامعية في الكليات والمعاهد كما هو حال رئيس الطائفة الحالي الشيخ "كنزبرة" ستار جبار حلو والشيخ الدكتور خلدون ماجد، كما أن النظام الداخلي الجديد، حدد وجوب حصول المرشح لرئاسة الطائفة على الشهادة الإعدادية، كما أن التغير المهم هو عملية الانتخاب الديمقراطي لرئيس الطائفة،

---

(١) حكمت سليم، كيف بنى المندائيون جمعياتهم، مقال منشور في موقع (بحزاني) صحيفة يومية الكترونية تعنى بالأقليات، ٢٠٠٥/٣/٢، www.bahzani.org.

اذ يرشح عدد من رجال الدين أنفسهم للمنصب ممن يعتقدون بأنهم أهل لـذلك، وأن دورة رئاسة الطائفة هي أربع سنوات قابلة للتجديد حسب النظام الداخلي.

ومن مظاهر التغير بالنسبة للشيخ الجديد: المظهر الخارجي، فليس لرجل الدين المندائي ملابس مدنية تميزه (وهذا لا يشمل الملابس الدينية "الرستة")، إذ كان الشيوخ في المرحلة التقليدية يرتدون الملابس العربية، وهي القميص والثوب الرجالي المفتوح (الصاية) والعباءة الرجالية والكوفية والعقال المشابه للمستعمل في جنوب العراق، أما اليوم فإنهم يرتدون جلبابًا (جبة) مشابهًا لجلباب رجل الدين المسلم مع عمامة بيضاء مكونة من كوفية يلفها على رأسه بعد أن يلم شعره الطويل (لأن حلاقة الشعر واللحية من المحرمات في الدين المندائي). وقد رأيت أحد رجال الدين وهو الشيخ سلوان القادم من السويد في زيارة إلى بغداد وهو يرتدي الملابس الحديثة (القميص والبنطال والبلوفر) مع قلنسوة صوفية على رأسه.

ما زالت طائفة الصابئة المندائيين تعاني من نقص في رجال الدين، وذلك للصعوبات التي تكتنف حياة من يسلك المسلك الكهنوتي، إذ لا يزيد عدد رجال الدين في العراق اليوم عن عشر، واحد فقط بدرجة "كنزبرة"، والآخرون بدرجة "ترميذة". وهذا يعني أن نسبة ما يقارب (٢٠٠٠) مندائي – يطلب خدمات دينية – لكل شيخ، وهي نسبة تبين النقص الشديد في عدد رجال الدين.

٢ – التغير في المعبد :

يعد المعبد المندائي ربما الأبسط بين معابد الديانات الأخرى، وهو نموذج للبساطة المعمارية وصورة حقيقية للارتباط بالطبيعة.

وربما اعتقد من يمر بمنطقة القادسية ببغداد في الشارع المحاذي لمعبد الطائفة المندائية أن ذلك البناء هو معبد الطائفة، وهو اعتقاد مجانب للحقيقة.

فالمعبد هو "بيمندا" أو بيت مندا، وقد يطلق عليه "مشكنة"، وهو بناء مكون من غرفة صغيرة جدًا في الباحة الخلفية المطلة على النهر من هذا المجمع.

إن أصل التسمية هي "مشكنة" أي المسكن أو "بيمندا" بيت المعرفة، إذ أن معنى "مندا" هو التعليم أو العقيدة[1]. ويبدو تأثير النسق الأيكولوجي واضحًا في بناء المعبد المندائي، فالمواد المستخدمة في بنائه هي حزم القصب الذي يملط بالطين، وهو بحجم غرفة صغيرة مساحتها (٢م × ١,٥م) تقريبًا بلا فتحات أو نوافذ، وإنما له فتحه واحدة تستخدم كباب عرضها حوالي (٦٠سم)، يكون الداخل فيها بمواجهة الشمال، وهناك حوض صغير كونكريتي يقع جنوب الغرفة، فيه ماء جارٍ حيث يسحب الماء من مصادر معينة مثل النهر القريب ويخرج من الحوض عائدًا إلى النهر أو إلى السقي، فالمهم هو أن يكون الماء جاريًا، وتربط بين كوخ العبادة والحوض قنوات رفيعة صغيرة تمتد من الجدار إلى الأرض إلى الحوض تسمى "ميسري"، وظيفتها تحديد المنطقة الطاهرة التي يجب أن لا يدخلها أي شئ مدنس. ولا تقام داخل هذه الغرفة أي طقوس دينية سوى طقوس تعميد المندي "مصبتا اد مندا" إذ تجرى هذه الطقوس في اليوم الأخير من الأيام الخمسة لعيد الخليقة لتخليصه – المندي – مما علق به من نجاسات خلال مرور عام وهي طقوس غسل وقراءات يقوم بها "كنزبرة" يساعده شيخان بدرجة "ترميذة" وشاهدان "شكندا"، وكذلك يتم فيها تعميد نسخة من "الكنزا ربا" الكتاب المقدس تكون محفورة على ألواح من الرصاص، ويتم فيها تقديم قربان عبارة عن كبش، لأن إناث الأغنام محرمة على الفرد المندائي، وهي طقوس طويلة تستغرق يومًا كاملاً تقريبًا.

ويتكون المعبد التقليدي من ساحة محاطة بسياج قصبي أو طيني، وليس لهذا السياج وظيفة دينية وإنما وظيفته حجب الطقوس عن العيون الفضولية. يحوي هذا السياج على الساحة وغرفة العبادة "مندا" وحوض التطهير المربوط بقناتين لتحريك الماء. وإن أغلب الطقوس تجري في ساحة المعبد، مثل إجراء طقوس الزواج أو تكريس كاهن أو إقامة وجبات طقسية لأرواح الموتى "مسختا".

كان المندائيون في الفترة التقليدية يسكنون في محلات مطلة على النهر عادة، وتحوي هذه المحلات على بيوت رجال الدين ويكون المعبد قريبا من بيت

---

(١) خالد كامل عودة والشيخ خلف عبد ربه لفته، القاموس المندائي، دار انهر، بغداد ٢٠٠٤ ص١٤٤

الشيخ، وكانت مجالس سمرهم أو تجمعاتهم تتم في بيوتهم على طريقة (الديوان) الموجود في الجنوب، حيث يهيأ (حوش) المنزل ويفرش بالحصران ويتم استقبال الضيوف وتقديم الشاي أو القهوة في هذه الجلسات. وعند انتقال أغلب أبناء الطائفة إلى بغداد والبصرة وهي مدن عصرية أصبحوا بحاجة إلى أماكن تجمعهم وتقام فيها الواجبات الاجتماعية، مثل مجالس العزاء فأصبح المكان المناسب لذلك هو المعبد، حيث يحتوي مجمع معبد الطائفة في بغداد اليوم على قاعة كبيرة تقام فيها مجالس العزاء، وأبنية للهيئات الإدارية ولمركز البحوث والدراسات المندائية، ومقر مجلة آفاق مندائية ومكتبة عامة لأبناء الطائفة، وبالتأكيد مقر رئاسة الطائفة، بالإضافة إلى حوض كبير عصري مغلف بالسيراميك لإقامة طقوس التعميد الذي – الحوض – يعتبر تغيرًا كبيرًا في الطقوس.

وعندما استفسرت من أبناء الطائفة العارفين بالموضوع حول الحوض، أبلغوني أن الفكرة ولدت في معبد الطائفة في البصرة في السبعينات، حيث كان المعبد يقع على نهر العشار وقد كان نهرًا جاريًا ومناسبًا لإجراء الطقوس، ولكن نتيجة الإهمال وعدم الكري تحول ماء النهر إلى ماء آسن لا يمكن إجراء الطقوس فيه، مما دفع بالشريحة الأرستقراطية من الطائفة في البصرة إلى الطلب من الشيخ "كنزابرة" عبد الله الشيخ نجم الموافقة على إقامة حوض للتعميد وجرت الأمور وتم بناء الحوض، إلا أن رئاسة الطائفة في تلك الفترة كانت للشيخ عبد الله الشيخ سام، وهو من النمط التقليدي من رجال الدين مما حدا به إلى رفض هذه (البدعة) جملة وتفصيلاً واعتبر الطقوس التي تجرى فيها باطلة.

وعند تولي الشيخ عبد الله الشيخ نجم رئاسة الطائفة في بداية عقد الثمانينات وانتقاله إلى بغداد، وكذلك الانتقال من المعبد القديم في منطقة الدورة – لأنه واقع ضمن أراضي محطة كهرباء الدورة – إلى المعبد الحالي في منطقة القادسية، طلب المندائيون من الشيخ عبد الله إقامة حوض للتعميد لمجموعة أسباب منها ؛ عدم إرتياحهم لتعميد نسائهم في النهر وتعرضهم لعيون الفضوليين، بالإضافة إلى ما

يمثله الحوض من تحديث في التعامل مع الطقوس، وبما أن الرجل قد حسم الأمر مسبقًا في معبد البصرة لذا فقد تمت الموافقة على إقامة الحوض في معبد بغداد.

واليوم يعتبر المعبد في القادسية صغير الحجم بالإضافة إلى جفاف نهر الخر الذي يطل عليه هذا المعبد، مما دفع بأبناء الطائفة إلى إقامة شعائرهم في ساحة مطلة على النهر تحت جسر الجادرية في منطقة القادسية أيضًا، وهي قطعة أرض مؤجرة من الدولة لإقامة الشعائر المندائية فيها، وخصوصًا في الأعياد مثل عيد الخليقة "بروانايا"، كما أن هناك قطعة أرض مناسبة جدًا من حيث الموقع والحجم منحت للطائفة في منطقة العطيفية، إلا أن إمكانيات الطائفة المحدودة مازالت تحول دون بناء معبد جديد مناسب للطائفة عليها حتى الآن.

٣ - تأثير التعليم والثقافة على التغير الاجتماعي :

لقد لعبت المدارس الحديثة دورًا مهمًا في عمليات التغير الاجتماعي الذي حدث في الطائفة، وتجدر الإشارة بادئ ذي بدء إلى أن للدين المندائي موقفًا إيجابيًا من طلب العلم والتعلم، ولا يفرض على معتنقيه انغلاقًا بهذا الاتجاه كما هو حال بعض الطوائف الدينية التي تخاف على التزام أبنائها الديني من التعليم الحديث، كما هو الحال لدى الشبك واليزيدية في العراق. لذا كان أبناء الطائفة سباقين في إدخال أطفالهم إلى المدارس الحديثة وحثهم على التعلم والحصول على شهادة تؤهلهم للتوظف، بما يمثله ذلك من مكانة ودور اجتماعي وهيبة في داخل وخارج الطائفة، كما أن نسقهم الاقتصادي المتمثل في امتهان الحرف اليدوية الصناعية البسيطة مثل الحدادة والنجارة والصياغة كان يشكل دافعًا مهمًا للتعلم من أجل تطوير عُددهم وطرق إنتاجهم والارتقاء بواقعهم الاقتصادي والاجتماعي، وقد ذكرنا أشخاصًا في مبحث النسق الاقتصادي سافروا في منتصف القرن التاسع عشر، رغم ما كان يمثله السفر من مشقه ومعاناة في تلك الأيام، إلى أرمينيا للتعلم وتطوير فن صياغة المينا السوداء.

لكن الأمر بالتأكيد لم يكن بهذه السلاسة، فقد نشب صراع بين التقليد والحداثة وهو أمر بات من المسلمات في تناول موضوع التغير الاجتماعي، إلا أن الخطوات السائرة باتجاه الحداثة كانت أكثر ثباتًا وأوسع انتشارًا بين أبناء الطائفة الشباب، وكان وجهها المعبر هو انخراط هؤلاء الشباب في المدارس والجامعات الحديثة، وهذا ما قاد بالتأكيد إلى الانفتاح على الثقافة العصرية مما ولد أخطارًا حقيقية على الطائفة في عقود منتصف القرن العشرين.

وربما كانت نظرة الطوائف الدينية الأكثر تشددًا في تعلم أبنائها في المدارس الحديثة تعي حقيقة الصراع الذي سيتولد جراء ذلك فتمنعه من البداية. وقد نال هذا الموضوع الكثير من الدرس والبحث في الأدبيات الاجتماعية، ونعني تأثير الحداثة والمعاصرة ونمط الحياة في المدن الكبرى على النسق الديني من جانب المعتقدات وتغيرها من النظرة الماورائية المؤمنة إلى النظرة المادية ذات التوجه العلمي، ومن جانب آخر فإن إيقاع الحياة السريع في المدينة لا يترك وقتًا للمؤمن للتأمل وإجراء الطقوس التي توصله إلى مرحلة من الاستقرار والراحة الداخلية. إن القلق الذي يطبع حياة المدن الكبرى ينسحب على كل تفاصيل حياة الإنسان التي يعيشها، ويكون الأمر أكثر وطأه على المهاجر الذي تجابهه التحديات المتمثلة في إثبات وجوده وتحسين وضعه الاقتصادي والاجتماعي، كما وأن دخول أبناء الطائفة إلى المدارس والكليات الحديثة جر الكثير منهم إلى الدخول للمعترك السياسي الذي كانت تياراته تمور في الجامعات في منتصف القرن، وقد أكل تيار الالتزام الأيديولوجي السياسي الكثير من ضفة الإلتزام الديني، مما خلق تهديدًا حقيقيًا لوجود الطائفة كأقلية دينية صغيرة. بيد أن هذه الفورة ونتيجة لعدة أسباب، ما لبثت أن هدأت وتحول تفكير أبناء الطائفة – في العقدين الأخيرين من القرن العشرين – إلى البحث عن هوية معاصرة للطائفة تبلور كينونتها الثقافية المؤطرة بإطار ديني، وهي الفترة التي أطلقنا عليها (مرحلة اكتشاف الذات)، واليوم، نرى تمسك الكثير من شباب الطائفة المثقف والدارس في الكليات الحديثة بالطقس الديني، بل وهناك محاولات جادة نحو مواشجة العصري بالتراثي من مفاهيم وطقوس والتزامات

دينية، وقد لعب مشروع إحياء اللغة المندائية من جهة ومشروع ترجمة الأدب الديني المندائي إلى اللغة العربية من جهة أخرى، دورًا مهمًا في هذا الأمر وهذا ما سنأتي على ذكره تفصيلاً في مبحث انفتاح الطائفة.

المبحث الثالث

تغير موقع المرأة

يعتبر وضع المرأة من المواضيع المهمة التي تؤثر في دراسة التغير الاجتماعي، وذلك لأن المرأة تمثل قطاعًا مهمًا من المجتمع وقع عليه الكثير من الظلم والحيف، وأن إعطاء المرأة حقوقها الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية يعد بمثابة مؤشر حقيقي على التغيرات التي تحدث في المجتمع.

إن وضع المرأة وحقوقها الشرعية في الدين المندائي تعتبر جيدة مقارنة ببقية الأديان، فهي مكَرمة حتى في ميثولوجيا الخلق الأول، إذ خُلقت من نفس الطينة التي خُلق منها الرجل، ومن ثم تزوج أولاد الرجل الأرضي الأول "آدم" من بنات آدم المثالي "آدم كسيا"، وهن كائنات مثالية خلقن في أرض العهد "مشوني كشطه".

أما تعدد الزوجات من الناحية الدينية فهو غير مسموح به، ولكن تم التجاوز على هذا المنع. ولا وجود لقوانين شرعية تنظم المواريث، لذا يلجأ المندائيون إلى القوانين الوضعية في حل هذا الموضوع، ولكنهم غير مقتنعين في حالات قسمة المواريث بأن يأخذ الذكر ضعف ما تأخذه الأنثى حسب الشرع الإسلامي، وهذا أمر شائك بالنسبة لهم ولم يحل حتى الآن.

أما من الناحية الاجتماعية، فإن واقع المرأة المندائية يمثل جزءًا من واقع المرأة العراقية مع بعض الخصوصية. ففي الفترة التقليدية من حياة الطائفة كانت المرأة المندائية تعيش في كنف سلطة أبوية فيها صلاحيات الرجال تكاد تكون مطلقة في كل ما يخص حياة المرأة ومستقبلها وزواجها، وبعد زواجها تنتقل إلى بيت الزوجية حيث السلطة الأبوية للزوج ومن بعده للأبناء الذكور، بيد أن الفرق الذي كان بين المرأة المندائية ومجاوراتها من نساء هو أن الأولى لم تكن عاملة في قطاع الزراعة أو الرعي كما هو الحال في العشائر العربية، لأن النسق الاقتصادي

للطائفة كان مختلفًا وقد امتهن فيه الرجال مهنًا حرفية لا مجال فيها لعمل المـرأة، وبذلك فقد كان نطاق عملها محصورًا في المنزل وإدارته وتدبير الأمـور اليوميـة فيه من اعتناء بالأطفال إلى الطبخ والتنظيف والاهتمام بالحيوانات في المنزل مثـل الدواجن أو بعض الأغنام أو الأبقار الموجودة للاستعمال في البيت، وربما مارست بعض النساء في البيوت بعض أعمال الخياطة أو الحياكة أو التطريز، ولكن الغاية منها كانت لسد حاجة البيت وليس الكسب المادي، مع وجود بوادر تعلـيم بـسيطة عند العوائل الثرية التي كانت تسعى لتعليم بناتها وفـق الطريقـة التقليديـة (فـي الكتاتيب أو الملّة) مبادئ القراءة والكتابة.

بيد أن التغيرات التي طرأت على الطائفة كانت مبكرة نسبيًا فـي الجانـب المتعلق بالمرأة إذ أدخل المندائيون بناتهم إلى المدارس الحديثة فـي وقـت مبكـر مقارنة بمجاوريهم الذين كانوا شديدي الرفض لهذا الأمر، وقد تخرجـت معلمـات مندائيات في وقت مبكر في عقد العشرينيات والثلاثينيات ومارسن مهنة التعليم في المدارس الحكومية، مثل السيدة (باشة عبد الله) التي تعد أول امرأة مندائية تـدخل سلك الوظيفة الحكومية في التعليم.

وبدأ التغير الواضح في واقع المرأة المندائية مع الهجـرة الكثيفـة لأبنـاء الطائفة من مواطنهم الأصلية في مدن الجنوب إلى بغداد والبصرة، إذ أصبح دخول الفتيات إلى المدارس الحديثة والجامعات أمرًا مفروغًا منه، ودخلـت المـرأة بعـد تخرجها معترك الحياة العملية وأصبحت الكثيرات من النساء المندائيات يعملن فـي مجال الطب والهندسة والتعليم. . إلخ، وكذلك كن قد اقتحمن مجال العمل السياسي، إذ انتمت أعداد منهن إلى الأحزاب السياسية والمنظمات الطلابية التي كانت تعمـل في الوسط الطلابي في منتصف القرن العشرين، ومن الشخصيات النسائية المندائية اللائي برزن في هذه الفترة الشاعرة العراقية المبدعـة لميعـه عبـاس عمـارة، والأستاذة الباحثة والكاتبة ناجية غافل مرانـي، والأسـتاذة الـدكتورة والـسياسية اليسارية ليلى غضبان رومي وغيرهن.

ولكن يبقى وضع المرأة المندائية في المجتمع العراقي واقعًا تحت تأثير الكثير من الضغوط، أولها أن هذه الطائفة الصغيرة تعرضت – بوصفها جزءًا من الشعب العراقي – إلى ويلات الحروب والحصار الاقتصادي الذي أنتج خللاً ديموغرافيا، فيه عدد النساء يفوق عدد الرجال بوضوح بما يمثله ذلك من صعوبة فرص الزواج وقلتها، وبالتالي إزدياد حالات العنوسة. كما أن تحديات نمط العيش في المدن يدفع باتجاه تأخير سن الزواج لحين وصول الرجل إلى قدرات اقتصادية تؤهله للدخول في مؤسسة الزواج، ناهيك عن هجرة العديد من شباب الطائفة في عقد التسعينات نتيجة الضغوط الاقتصادية، كل ذلك أدى إلى تفاقم وتنوع أنماط المشاكل التي تواجه المرأة المندائية، وقد تمثل ذلك في تناقص فرص الزواج، وتأخر سن الزواج، بالإضافة إلى تعرض المهاجرين وأبنائهم وبناتهم إلى ضغوط ثقافية تهدد هويتهم الدينية والوطنية والقومية.

بقي أن نشير إلى موضوع آخر يتعلق بالمرأة المندائية، وقد أصبح جزءًا من تراث هذه الطائفة: وهو التمسك الشديد بـ (عذرية الفتاة) أو ما يسمى "البهارة"، وما تتعرض له الفتاة من فحص قبل عقد قرانها. إذ يعتبره البعض اليوم أمرًا طبيعيًا نتيجة تقبل هذا الأمر واعتباره من المسائل المفروغ منها في المجتمع العراقي ككل، بينما يراه البعض الآخر انتقاصًا من حقوق المرأة بالتأكد منها بهذه الطريقة.

كذلك يعتبر البعض من أبناء الطائفة أن هناك تفريق بين الرجل والمرأة في موضوع (المندائي/ أو المندائية) المتزوج من خارج الطائفة، إذ يسمح للرجل المندائي أن يعود للديانة المندائية إذا انتهى هذا الزواج بالطلاق أو الترمل بعد أن يخضع لعملية تعميد جديدة، شرط عدم ختانه، أما المرأة المندائية فلا يسمح لها بالرجوع إلى الديانة بعد انتهاء هذا الزواج. وعندما سألت أفرادًا من أبناء الطائفة عن الأمر قالوا: إن الأمر بات الآن مسموحًا به للرجل والمرأة، بينما قال البعض الآخر أن الخوف من رجوع المرأة إلى الدين يتركز في احتمالية زواجها من مندائي فترزق منه بأطفال، وأن هناك احتمال وارد لدخول هؤلاء الأطفال – عند

بلوغهم – إلى سلك الكهنوت وما سينتجه ذلك من مشاكل، إلا أني لم اقتنع بهذا التفسير لأن المندائيين يهتمون بتسجيل ولاداتهم وأن من يدخل السلك الكهنوتي يجب أن لا يكون ابنًا لثيب أصلاً إلى ثلاثة وقيل سبعة أجداد من أجداده وهو أمر معروف جدًا لدى المندائيين.

وكذلك فإن من مقاييس التغير الذي حصل في موقع المرأة لدى الطائفة المندائية، انخفاض نسبة الأمية بين الأناث إلى أوطأ معدلاتها مقارنة بغيرهم، وهذا يمثل فرصًا مستقبلية جدية للمرأة في الاستقلال الاقتصادي وتحقيق ذاتها من خلال الدراسة والعمل وبناء كينونتها كإنسانة أولاً وكامرأة في البيت ثانيًا.

ومن الجدير بالذكر أن الحجاب مفروض على المرأة المندائية طقسيًا، إذ لا يجوز أن تكون مكشوفة الرأس أو الذراعين أثناء أداء الطقوس، وإن ملابسها الدينية "الرسته" مصممة بحيث تؤدي هذا الغرض. ولكنها في الحياة اليومية عادة ما تكون سافرة، وقد تعرضت النساء المندائيات نتيجة ذلك في الآونة الأخيرة – بعد سقوط النظام على وجه الدقة ومع بروز تيارات راديكالية تكفيرية - إلى الكثير من المضايقات بسبب سفورهن، مما دفعهن إلى ارتداء الحجاب على الطريقة الإسلامية في حياتهن اليومية دفعًا لتلك الضغوط، وقد رأيت بعض النساء المندائيات يرتدين الحجاب، وأعتقد أن المسألة ذات طابع اجتماعي أكثر مما هو ديني كما كان حال أمهاتهن أو جداتهن اللواتي كن يرتدين الملابس التقليدية (الشيلة أو الفوطة والعباءة) لأسباب اجتماعية وتأثرًا بالمحيط الاجتماعي الذي يعيشن فيه.

المبحث الرابع

تغير موقف الطائفة في الانفتاح على المجتمع

تعتبر طائفة الصابئة المندائيين آخر الطوائــف الغنوصـــية (Gnosticism)، والغنوصية هي أحد المذاهب العرفانية القائلة بأن العلم أو المعرفة العليا التي يتلقاها الإنسان من خالقه تكون عن طريق الوحي أو الإلهام أو الكشف (Revelation)، وأن كلمـــة "مندا" المندائية تناظر كلمة (Gnosis) الإغريقية بمفهومها الديني والروحي، إذ أنها تعني المعرفة أو العلم الرباني الذي يحرر نفس الإنـــسان أثنـــاء حياتـــه[1]. والعرفانية هي فكرة دينية تمتد جذورها إلى الحضارات القديمة في وادي الرافـــدين ووادي النيل، كما وظهرت في الفلسفات الفارسية والإغريقية والرومانيـــة، ومـــن أقوى تياراتها الفلسفية المتأخرة (الأفلاطونية الحديثة)، التـــي ظهـــرت علـــى يـــد الفيلسوف أفلوطين في مدينة الإسكندرية، والتي تماهت بعد ذلك مع بعض التيارات المسيحية في القرن الميلادي الأول والثاني، ومن أبرز دعاتها فـــي هـــذه الفتـــرة (سيمون) الذي عاش في القرن الأول للميلاد، و(فالنتينو) وهو فيلـــسوف لاهـــوتي عاش في روما في القرن الثاني للميلاد، وقد تعرضت الغنوصـــية إلـــى حمـــلات شرسة من رجال الكنيسة الأوائل الذين حاربوها بضراوة واتهموا معتنقيها بـــالكفر والهرطقة حتى قضوا على أكثر التيارات الغنوصية في العالم.[2]

لقد مثل الاتجاه العرفاني الغنوصي القشرة السميكة التي أحاطـــت بالديانـــة المندائية وحمتها على مدى مئات السنين من الانقراض، ولكن وفي الوقـــت ذاتـــه، حجب هذا الغلاف السميك الطائفة عن محيطها ومنع تعرف الآخرين على الديانـــة المندائية بشكل منصف وحقيقي، مما أنتج فترات طويلة من الاضطهاد تعرضت لها

---

(١) ناجيه مراني، مفاهيم صابئية مندائية، مصدر سابق، ص١٠٤

(٢) The new encyclopaedia Britannica ,mc ,vol: p. p. 214 -219

اعتمادا على إشارة ناجية مراني، مفاهيم صابئية مندائية، مصدرسابق، ص١٠٥.

الطائفة بسبب الاتهامات الجاهلة التي تتهم بها، وعلى رأسها عدم التوحيد أو الإشراك أو عبادة الكواكب والنجوم أو تأليه الملائكة كما مر ذكره سابقًا .

وقد كان لسان حال الطائفة تجاه هذه الاتهامات كلمة "سوفا" المندائية التي تلخص سلوك الطائفة تجاه الآخر وتعني (لاعليك) أو (اهمل الأمر) أو (تغاضى عن الأمر)، لأن ما يهم المندائي البسيط، هو الأمان المصاحب لهامش حرية بسيط يستطيع أن يعيش حياته البسيطة في ظله ويمارس طقوسه الدينية، وهم كطائفة مسالمة ومجدة في العمل ومفيدة لمحيطها الاجتماعي ولا تهدد مجاوريها، كانوا يتمتعون بذلك الهامش.

لقد بقي حال الطائفة على ما هو عليه حتى مطلع القرن العشرين، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى ظهرت أولى بوادر انفتاح الطائفة في ظل الاحتلال البريطاني للعراق وزوال الحكم العثماني، وقد تمثل ذلك في تحديد القيادة العسكرية البريطانية في العراق لرؤساء الطوائف الدينية وما نتج من مراسلات بين الحكام السياسيين البريطانيين والشيخ دخيل الشيخ عيدان الذي كان يرأس الطائفة، (هناك إشارة إلى تلك الرسائل في مكان سابق)، وصدرت الكتب العربية التي تناولت حياة الصابئة المندائيين في فترة ما بين الحربين مثل كتاب (مندائي) لعبد الحميد عبادة في عام ١٩٢٧، وكتاب (الصابئة في حاضرهم وماضيهم) لعبد الرزاق الحسني عام ١٩٣١، وكانت لقاءات الكتاب بشيوخ الطائفة أحد المصادر المهمة للمعلومات عن الطائفة، ولكن رغم هذه اللقاءات، فإن هذه الكتابات جاءت مليئة بالأخطاء.

ومع الهجرة الكبيرة التي قام بها أبناء الطائفة من مدنهم في جنوب العراق باتجاه البصرة وبغداد بدأت البوادر الحقيقية لانفتاح الطائفة، وقد كان هذا الانفتاح نتيجة جهود المدنيين من أبناء الطائفة، لأن رجال الدين وحتى المنفتحين منهم كانوا قلقين حيال هذا الانفتاح، لأن هذا الأمر كان – باعتقادهم – يهدد كينونة هذه الطائفة الصغيرة المتمحورة حول هوية دينية تمثل خصوصيتها المميزة لها.

ومع ازدياد مركز قوة العلمانيين في الطائفة ازداد انفتاحها، غير أن هذا الانفتاح لاقى عددًا من العقبات أهمها جهل هؤلاء العلمانيين باللغة المندائية، مما جعلهم قليلي الخبرة بالأدب الديني المندائي الغزير، وقد لجأ بعض مثقفي الطائفة في عقدي السبعينيات والثمانينيات من القرن السابق إلى الدراسات والكتب الأجنبية للاطلاع على أدبهم الديني وعلى البحوث والدراسات التي كتبها المختصون الألمان والإنكليز في الشأن المندائي، وقام بعضهم بترجمة هذه الكتب، كما هو الحال مع كتاب الليدي دراوور (صابئة إيران والعراق)، الذي قام بترجمته غضبان رومي ونعيم بدوي. كما قام بعضهم بتأليف الكتب عن الطائفة لأنهم شعروا بأنهم أقدر على تقديم صورة عن طائفتهم من الآخرين، وانتجوا كتبًا مهمة في مجال التعريف بالطائفة مثل عبد الفتاح الزهيري وناجية مراني وغضبان رومي. ولم يكن للطائفة في تلك الفترة دوريات خاصة بها، لذا لجأ هؤلاء الكتاب إلى الدوريات الموجودة في الساحة الثقافية العراقية يكتبون فيها دراساتهم عن الطائفة، مثل الجرائد اليومية (الجمهورية، طريق الشعب، التآخي...إلخ) بالإضافة إلى المجلات مثل مجلة التراث الشعبي ومجلة آفاق عربية وغيرها.

وبعد تبلور الهوية الدينية العصرية للطائفة على يد الناشطين من أبنائها وعبر تشكيل المجالس التي تديرها، تم عقد المؤتمر الأول للطائفة في بداية عقد التسعينيات وتم التخطيط لإصدار دورية خاصة بالطائفة، وفعلاً تم التحرك على الموضوع واستحصال الموافقات لإصدار مجلة آفاق مندائية عام ١٩٩٢، وقد كانت نشرة داخلية بسيطة تم العمل على تطويرها بعد ذلك حتى أصبحت اليوم دورية ممتازة في إخراجها وطباعتها ورصانتها العلمية.

كذلك تم تأسيس مركز البحوث والدراسات المندائية، وكانت من أهم واجباته العمل على انفتاح الطائفة وتعريف الآخر بها بشكل حقيقي من خلال الدوريات والترجمات والندوات.

وفي عقد التسعينيات ومع الهجرة الملحوظة لأبناء الطائفة إلى المهاجر نتيجة الضغوط الاقتصادية، تكونت جاليات مندائية كبيرة في تلك المهاجر، ما لبثت

أن نظمت نفسها في جمعيات وأندية كان دافعها الأساس هو الحفاظ على الهوية الثقافية والدينية لأبناء الطائفة في المهجر، ونشطت هذه الجمعيات في الوسط الأوربي والأمريكي في مجال انفتاح الطائفة على العالم، وأصدر أبناء الجاليات مجلات ودوريات وأنشأوا أكثر من ست مواقع على الإنتريت وأكثر من إذاعة.

بعد ذلك جاءت مرحلة تنظيم الجهود عبر اتحادات دولية مثل اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر الذي يعتبر موقعه على الإنترنت من أهم المواقع المشغولة بالتعريف بالمندائية بشكل حقيقي دون تشويهات، بالإضافة إلى موقع (العالم المندائي) (Mandaean World) في الولايات المتحدة، والموقع الرسمي لرئاسة الطائفة في بغداد (مندائي).

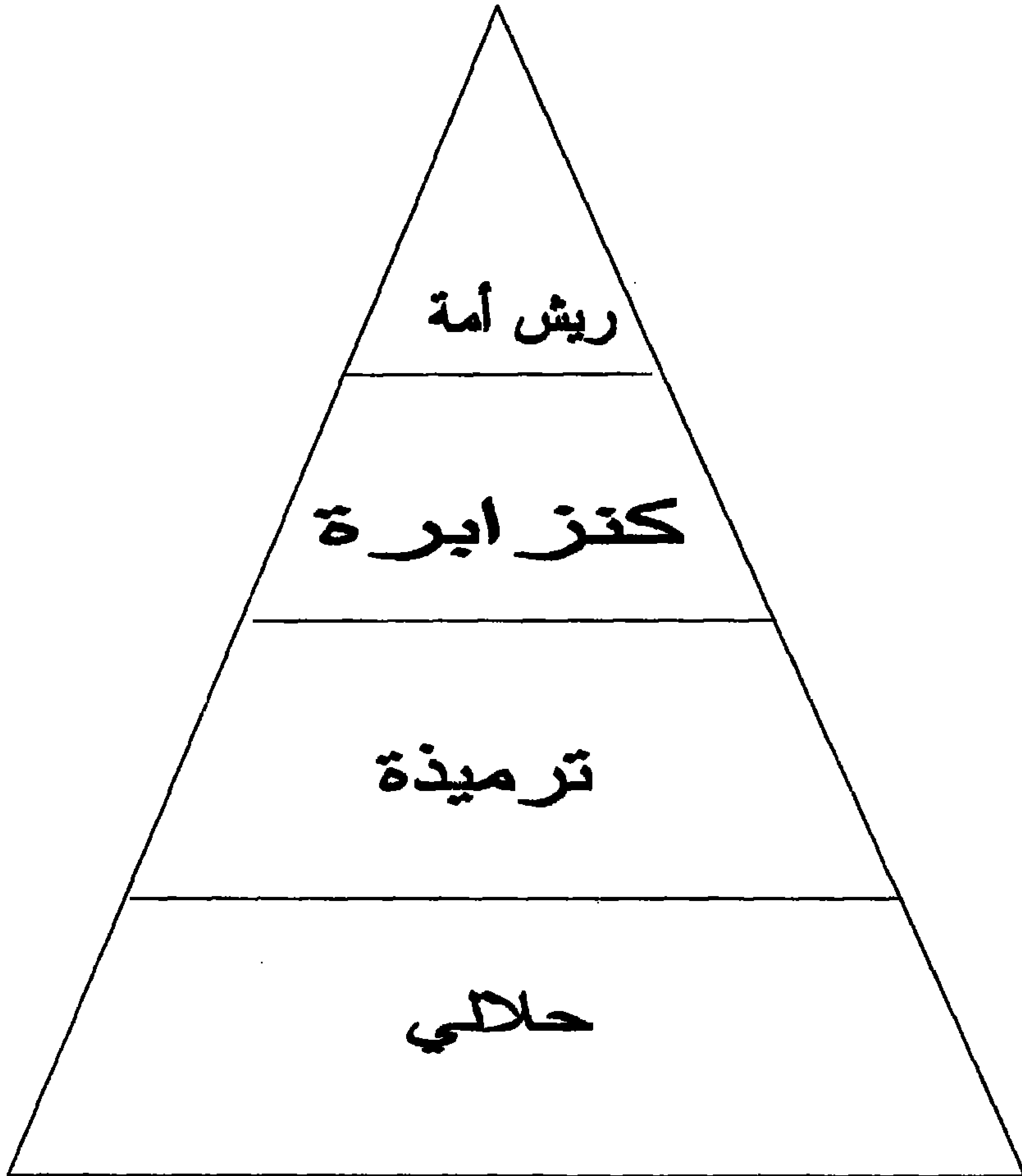
لقد كان هناك خطين متفاعلين يصبان في بلورة اهتمام أبناء الطائفة بتراثهم وبانفتاحهم على الآخر. وقد تمثل الخط الأول في ترجمة الأدب الديني المندائي، إذ قامت لجنة مختصة بإصدار الكتب المقدسة المهمة باللغة العربية مثل "كنزاربا" الكتاب المقدس للطائفة و"دراشة آد يهيا" تعاليم يحيى بن زكريا (ع)، و"تيباني" كتاب الصلوات المندائية، و"قلستا" ترانيم الزواج المندائية، و"حران كويثا" كتاب حران الداخلية، كما صدر أول قاموس (مندائي – عربي – إنكليزي) مؤخرًا في بغداد، وكل ذلك سهل على شباب الطائفة الاطلاع على أدبهم الديني والتمسك والاعتزاز به.

أما الخط الثاني فهو إعادة إحياء اللغة المندائية، وذلك بتأسيس المدرسة المندائية، إذ يقوم بعض الأساتذة الذين يجيدون اللغة المندائية بتدريس هذه اللغة وقواعدها بالإضافة إلى بعض الدروس الدينية، وقد افتتحت هذه المدرسة في نهاية عقد التسعينات من القرن الماضي وتخرجت فيها دورات بعد أن أتمت الصف السادس، لأن الدراسة في هذه المدرسة تصل إلى هذا الحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مشروع المدرسة المندائية يعاني من الكثير من المعوقات والمشاكل ربما وقف في مقدمتها المعوقات المالية وعدم توفر المكان الملائم لصفوف المحاضرات لضيق المجمع الموجود في منطقة القادسية في بغداد كما أشرنا سابقا.

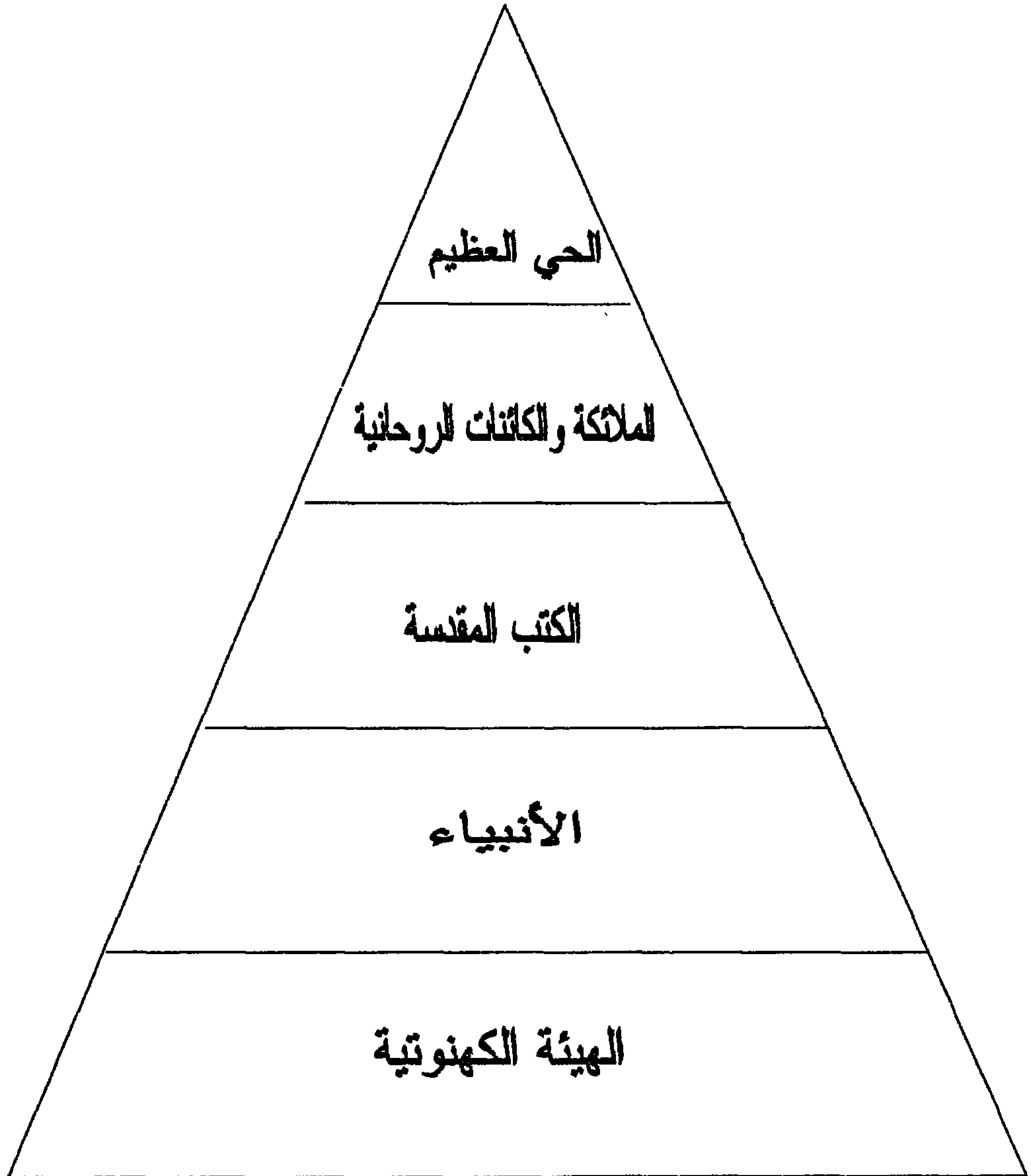
لم تعد الطقوس المندائية اليوم بالنسبة لأبناء الطائفة تمثـــل تراثًـــا أو تقليـــدًا فلكلوريًا بعيدًا عنهم، بل لقد لاحظنا ازدياد حالات الالتزام الديني لدى شباب الطائفة انطلاقًا من الاعتزاز بهوية دينية عصرية، وتراث ممتد بجذوره العميقة المرتبطـــة بتراث وحضارة وادي الرافدين، إذ يعتبر مندائيو اليوم أنفسهم الأحق بتمثيله نتيجة عمقهم الحضاري وعراقة تراثهم.

ملحق الأشكال والخرائط والصور

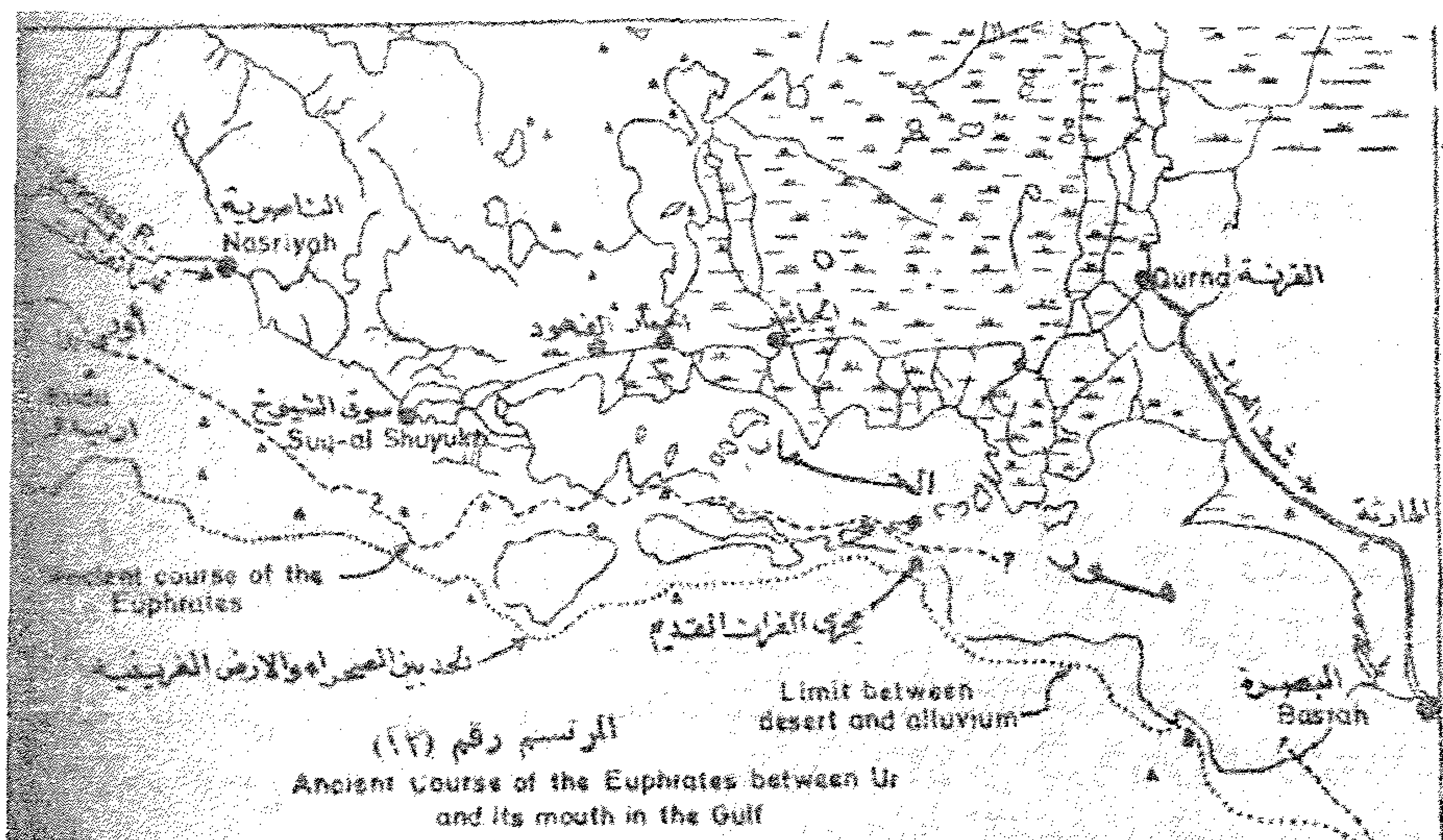
(شكل رقم ١) هرم (الهيئة الكهنوتية)



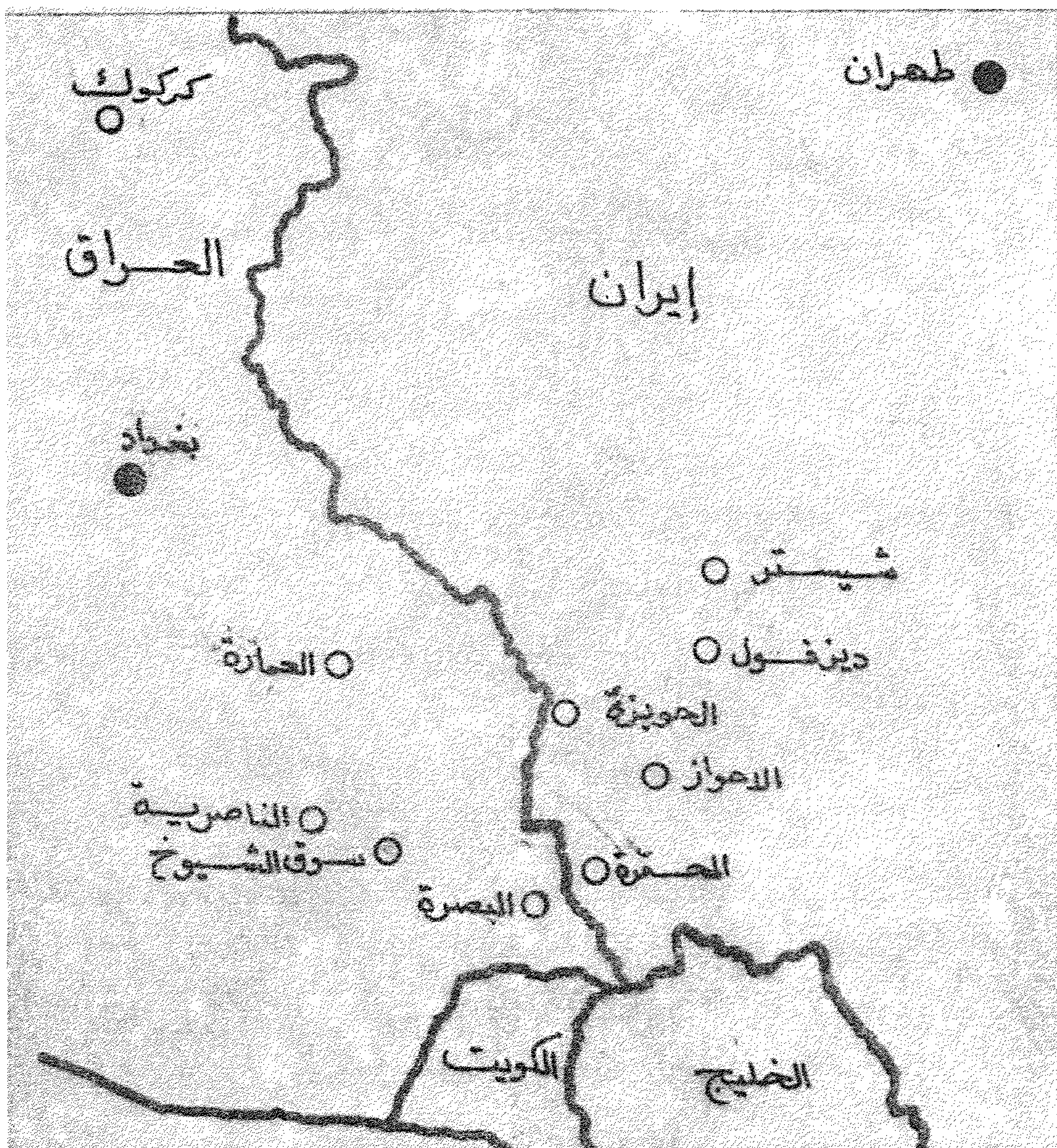
شكل رقم (٢) هرم (القدسية)



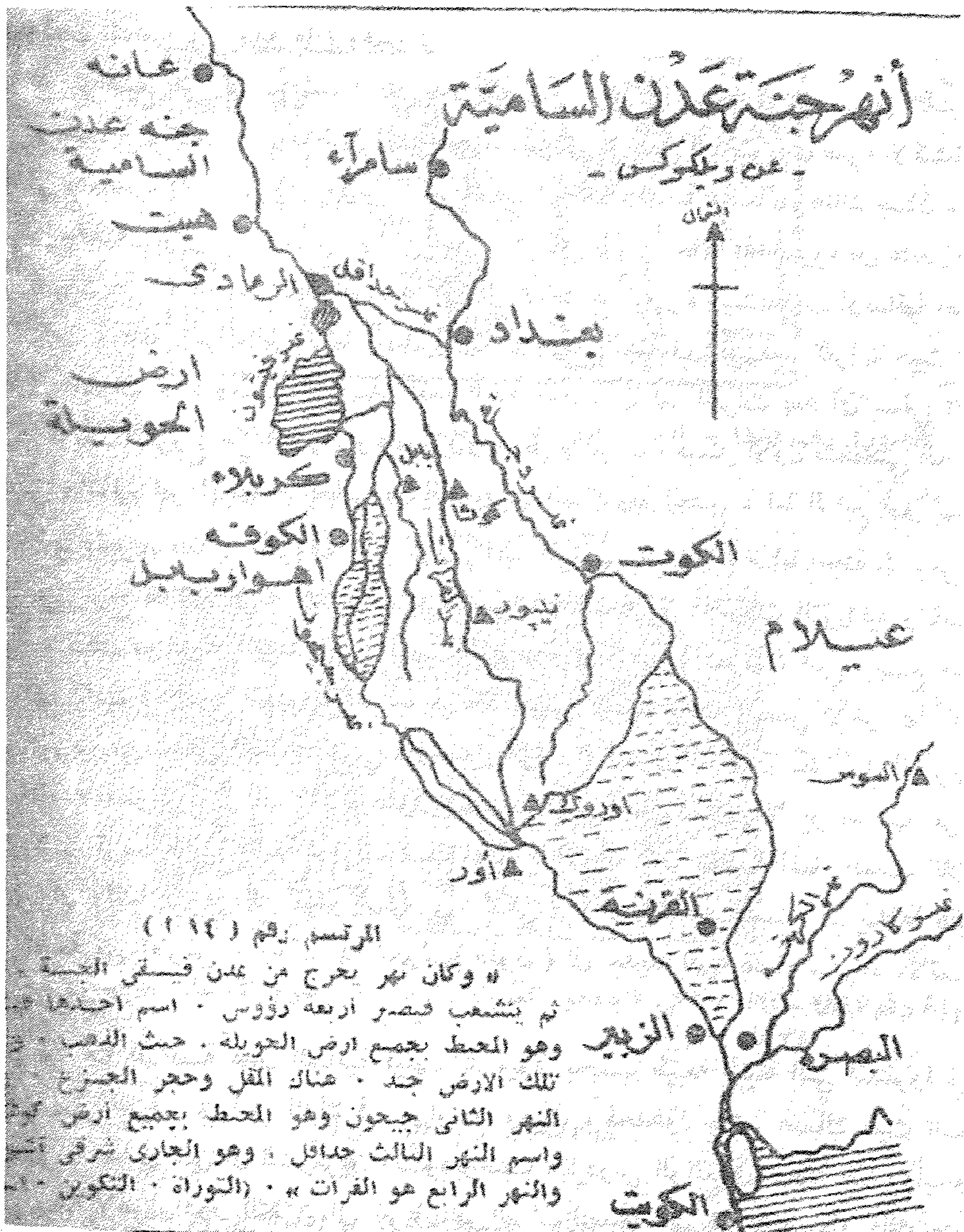
خارطة (١) خارطة تأريخية لأهوار جنوب العراق



خارطة (٢) مدن الصابئة الأصلية في العراق وإيران



خارطة (٣) الأنهار المقدسة



صور (١) المهن التقليدية



صور (١) المهن التقليدية





زهرون ملا خضر مع ولديه أسمر وناجى فى الثلاثينيات من القرن العشرين

صور (٢) أدوات الطقوس



ادوات الطقوس (من اليسار الى اليمين): كنكانا، طرابنه، توقه، بريبي

صور (٣) ادوات التعميد







صور (٤) الطقوس



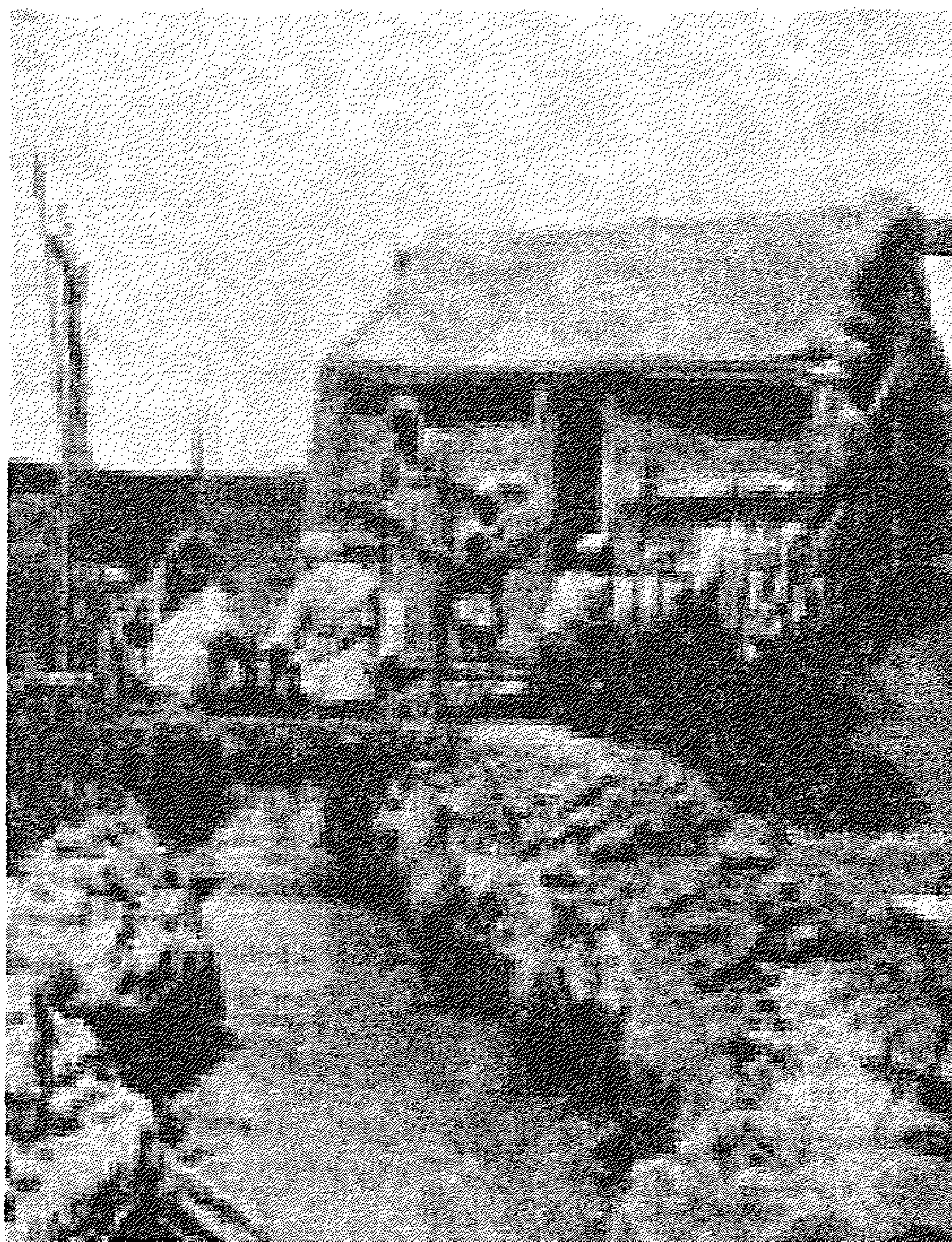


صور (٥) بيئات الصابئة التقليدية

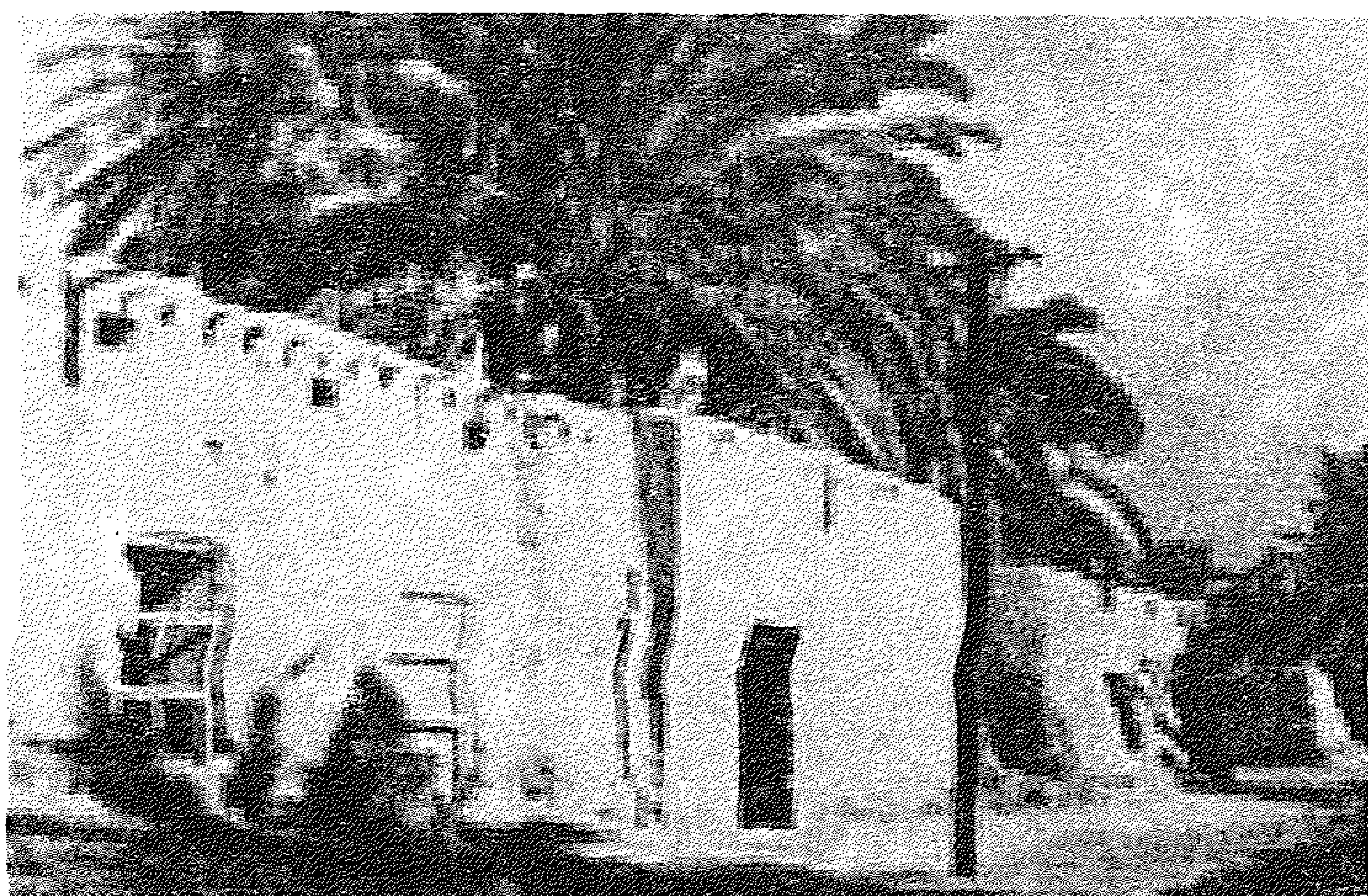









www.iraqipages.com
1923




1958
www.iraqipages.com



المؤلف فى سطور

الاسم : صادق شهيد الطائي

الميلاد : بغداد ١٩٦٥

المؤهلات العلمية:

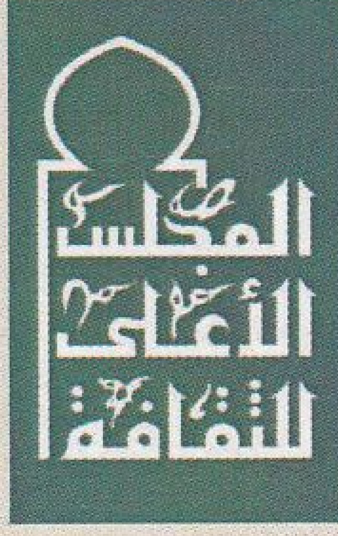
- حاصل على بكالوريوس هندسة ميكانيكية – كلية الهندسة – جامعة بغداد ١٩٨٧.
- حاصل على ليسانس علم اجتماع – كلية الآداب – جامعة بغداد – ٢٠٠٢
- حاصل على ماجستير علم اجتماع – كلية الآداب – جامعة بغداد – ٢٠٠٥.
- يحضر لنيل درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع القاهرة – جامعة حلوان ٢٠١٠.

الخبرة العملية:

- عمل مهندسًا للتصاميم والتنفيذ – منظمة الطاقة الذرية العراقية ١٩٨٧ – ١٩٩٢.
- عمل مهندسًا للتنفيذ والصيانة – شركة العطار للخدمات الهندسية – بغداد ١٩٩٢ – ١٩٩٨.
- باحث مساعد فى مركز دراسات العولمة – كلية التربية – جامعة بغداد ، تحت إشراف د. متعب مناف السامرائي ١٩٩٨ – ٢٠٠٣.
- باحث في الشأن العراقي – منظمة حل الأزمات الدولية – بغداد ٢٠٠٣/٧/١ – ٢٠٠٤/١/١.

- باحث ومعد برامج سياسية – هيئـــة الإذاعـــة الكنديـــة CBC مكتـــب بغـــداد ٢٠٠٤/١/١ – ٢٠٠٤/٦/١.
- باحث ومعـــد بـــرامج سياســـية – قنـــاة الحـــرة / عـــراق – ٢٠٠٤/١/١ – ٢٠٠٤/٦/١.
- نشر العديد من المواضيع في الصحف والمجلات العراقية والعربية.
- عضو جمعية الاجتماعيين العراقية منذ ٢٠٠٢.
- عضو نقابة المهندسين العراقية منذ ١٩٨٧.

المراجعة اللغوية : **عمـرو مـغـيـث**
الإشراف الفنى : **مـاجـدة ضـيـاء**



إن التغير الذي حدث في مجتمع الطائفة المندائية طال كل أنساق البناء الاجتماعي. ففي النسق الاقتصادي كان أبناء الطائفة في مناطقهم الأصلية يمارسون حرفًا تقليدية أتقنوها وبرعوا فيها مثل الحدادة والنجارة والصياغة، بالإضافة إلى صناعة وإصلاح الزوارق، وقد أبدع المندائيون في فن الصياغة، وعلى الأخص أعمال المينا السوداء المنقوشة على الفضة. بينما نجد أبناء الطائفة بعد هجرتهم إلى المدن الكبرى ودخولهم المدارس الحديثة والجامعات قد ولجوا إلى كل مجالات المجتمع، فنجد اليوم منهم المهندس والطبيب والضابط والأستاذ الجامعي...

إن ثقافة وبناء المجتمع المندائي هي جزء وثقافة فرعية من المجتمع العراقي، وقد عانى أبناء الطائفة ما عاناه الشعب العراقي من ويلات وحروب وأزمات، وربما كان أثر ذلك على أبناء الطائفة المندائية أكثر وضوحًا بحكم كونهم أقلية دينية صغيرة.

إن لدراسة ثقافة مجتمع طائفة الصابئة المندائيين أهمية خاصة، لما تمثله هذه الطائفة وهذا الدين من دور مهم في فهم نشوء وتطور وتداخل الأديان والحضارات والثقافات على أرض الرافدين، فأبناء هذه الطائفة هم بحق ورثة هذه الحضارات العريقة.

الغلاف : ماجدة ضياء الدين

